

الهانم.. والزعيم

الحب والثورة

مشوار حياة سعد زغلول وأم المصريين

رشاد كامل

الهانم والزعيم

الحب .. والثورة
مشوار حياة
سعد زغلول وأم المصريين

رشاد كامل

الطبعة الأولى
أغسطس ١٩٩٧

دار نصر
للنشر والتوزيع

رقم الإيداع ١١٧٦٧ / ١٩٩٧

- تصميم الغلاف والإخراج : «فـــوزى الهـــوارى»
- الغـلاف ريشــة الفنـــان : «ســـامـــى أمـــين»
- تجـهـيـز الغـــلاف : «مـــودى جـــرافـــيك»
- تنفـيـذ الغـــلاف : «مـــحـــسن رفـــعت»
- تنفـيـذ وجـرافـيك : «شـــوكـــت فـــتحى»
- النـــاشـــــــــر : دار نصـــر للنشـــر والتـــوزيع
- طبـــــع : بمطبعـة السـلام بـرس

٤٧ ش خالد بن الوليد - الملك فيصل محطة حسن محمد ت : ٥٨٥٦٨٨٩

المقدمة

الهانم والزعيم: القدر والتاريخ !

سعد وصفية..

كلاهما كان على موعد مع القدر !

سعد وصفية..

كلاهما كان على موعد مع مصر !

سعد وصفية..

كلاهما كان على موعد مع التاريخ !

سعد وصفية..

لم يخطر ببال أحدهما - ولا في الأحلام - أن يرتبط بالآخر، ويمتزج به، ويذوب فيه، ويتحد معه.

كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية ضد هذا الارتباط أصلا.

كان «سعد زغلول» ابن عمدة ريفي، وكانت «صفية» ابنة لأشهر رئيس وزراء مصرى لم يكن يجد أي غضاضة فى أن يعلن على الملأ احترامه وإعجابه بالإنجليز!

ولم يخطر ببال «مصطفى فهمى باشا» بأن تتزوج ابنته من أكبر أعداء الإنجليز، ولم يخطر ببال «سعد» أن يتزوج من فتاة ذات أصول تركية ولدت فى بيت يمتلئ بالخدم والحشم، بل كان يخدمها أحد «الأغوات»!

كان «سعد» أكبر من عروسه يوم تزوجها بحوالى ١٨ سنة، لكن «صفية» لم تشعر أبدا بهذا الفرق فى سنوات العمر.

تزوج «سعد وصفية» في ٦ فبراير ١٨٩٦، وكان من الجنون والحماقة أن توافق أى أسرة مصرية على أن تصاهر أحد المحامين، فقد كان ذلك بمثابة فضيحة ما بعدها فضيحة!

وعندما نشرت صحيفة «الأهرام» خبر الزفاف فقد حرصت على ألا تنشر اسم العروس!

لم تكن أخلاق وتقاليد ذلك الزمن تسمح بذكر اسم «العروس» حتى لو كانت ابنة رئيس الوزراء نفسه!

كان الزمن غير الزمن، والدنيا غير الدنيا! حتى الزعيم الوطنى «محمد فريد» عندما أشار لهذا الزواج فى مذكراته لم يتطرق لهذه المسألة - أى مسألة اسم زوجة سعد، وكان كل ما كتبه هو ما يلى: «فى يوم الخميس ٦ فبراير سنة ١٨٩٦ احتفل بزفاف كريمة مصطفى باشا فهمى، رئيس مجلس النظار على سعد بك زغلول، القاضى بمحكمة الاستئناف، وهو من الشبان الذين وصلوا إلى هذه الدرجات العليا بجدهم واجتهادهم فإنه من إحدى العائلات المتوسطة بمديرية البحيرة ثم تعلم بالأزهر ثم اشتغل بالمحاماة وأخيرا تعين بالاستئناف».

وفيما بعد روت «صفية زغلول» تفاصيل اللحظات التى سبقت زفافها إلى «سعد زغلول» بك زوجها.

قالت صفية زغلول: إنه فى ليلة زفافها قالت لها أمها (أصائيش هانم) إن العريس سوف يصحبها فى عربة حنطور من بيت أبيها إلى بيته فى حى الظاهر، وعندما تقف العربة أمام بيت العريس، سينزل العريس ويقول لها: تفضلى!! فتتمنع عن النزول.. فيقول لها للمرة الثانية: تفضلى: فتتمنع!! ثم يقول لها للمرة الثالثة: تفضلى! وعندئذ تنزل من العربة وتتبع العريس إلى داره.. وأن هذه هى التقاليد التى تتبع فى العائلات الارستقراطية الكبيرة! وأطاعت العروس الصغيرة تعليمات أمها. فما أن وقف العربة ونزل منها العريس وقال بصوت آمر: تفضلى، حتى انكمشت العروس الصغيرة فى زاوية العربة الحنطور وتمنعت ولم تنزل من العربة كما قالت لها أمها وكما تقضى التقاليد! وفوجئت العروس بالعريس (سعد بك زغلول) يتركها ويمشى فى طريقه إلى داره. وعندها وجدت نفسها تقفز من العربة وتعدو وراءه.

وحسب ما رواه «مصطفى أمين» وسمعه من أم المصريين فإن «صفية» كانت تروى دائما هذه القصة وتقول مبتسمة: ومنذ تلك اللحظة أصبحت أجرى وراءه دائما!!

□□

كانت «صفية زغلول» امرأة يندر أن تتكرر!

لقد كان أكثر من يؤنس وحدة وعذاب «سعد» فى منفاه بجبل طارق هو وجود «صفية» بجواره.

وكانت «صفية» تردد دائما:

«لو لم تكن زوجى وأنت رجل غريب عنى وبهذه الوطنية والحماسة لجئت إليك من أقصى الدنيا لأخدمك وأقبل يديك».

وكان «سعد» يقول دائما:

«إن أم المصريين كانت على استعداد لتقديم حياتها فداء لوطنها، فعندما توجهت مع زملائى إلى المعتمد البريطانى وقلت لها: اعلمى يا «صفية» أننى أمضى الآن حاملا رأسى على كفى اليمنى لاقدمها فداء لمجد بلادى.. فقالت لى: يا سعد إننى معك فى جهادك وإيمانك بحق الوطن، وإذا كنت تحمل رأسك على كفك اليمنى فلتكن رأسى على كفك اليسرى!».

وكانت «صفية» تؤكد لسعد عقب سماعها هذه الشهادة فى حقها: أنا لا أستحق لهذا الثناء!

لقد أثبتت الأيام والسنوات ووقائع التاريخ أن كلاهما كان جديرا بما حصل عليه من احترام وتقدير جميع طوائف الأمة أمس واليوم وغدا!

ولسنوات طويلة ظلت «صفية زغلول» هى ذلك الجندى المجهول فى حياة زعيم الأمة «سعد زغلول»!

ولم يكن ذلك صحيحا على الإطلاق!

فقد كانت «صفية» حاضرة دائما فى حياة «سعد زغلول»: قاضيا، ووزيرا ورئيسا للوزراء، وثائرا ومتمردا وقائدا وزعيما للثورة!

اقتسمت «صفية» مع «سعد» لحظات وساعات وأيام.. المجد والألم، الحزن والفرح، الهزائم والانتصارات!!

ويشاء القدر أن يحرم «صفية زغلول» من نعمة «الأمومة» ويقرر الأطباء بأنه لا أمل على الإطلاق فى أن تنجب وتصبح «أما»، ومن الغريب أن يمنحها الشعب - كل الشعب بكافة طوائفه - أحلى وأجمل وأنبل لقب عاشت به ومعه حتى رحلت عن دنيانا وهو لقب «أم المصريين»!!

وكان «سعد زغلول» دائم القول لصفية:

«لقد فاتنا النسل فأصبحت هذه الأمة كلها من ابنائك وابنائى.. ونعم العوض الذى عوضنا الله».

□□

لقد كان الزعيم «سعد زغلول» جديرا بالمكانة التى احتلها فى قلوب الناس طوال هذه السنوات.

وكانت الهانم «صفية زغلول» جديرة بالمكانة التى احتلتها فى قلوب الناس طوال هذه السنوات.

وبقدر ما كان «سعد زغلول» رجلا وزعيما استثنائيا فى حياة مصر، كانت «صفية زغلول» امرأة استثنائية يندر أن تتكرر!

وكما تستحيل مصر بغير النيل، والوردة بغير العطر، والحياة بغير الحب، تستحيل «صفية» بغير «سعد» والعكس صحيح أيضا.

ورغم انتمائى لجيل ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بكل انجازاتها العظيمة وأيضا كوارثها التى لا تغتفر، فأنا أحد الذين يؤمنون بزعامات مصر، وبأن كل زعيم بذل وحاول أن يفعل الكثير من أجل مصر!

ويأتى «سعد زغلول» على رأس زعامات مصر المعاصرة، ولا استطيع أن اخفى إعجابى به إنسانا وزعيما ومتمردا!

وهكذا وطوال عام كامل سكنتنى «سعد زغلول» و«أم المصريين»، عاشا معى وأكلا معى، وتنزها معى، ولم يتركانى لحظة واحدة!

وأسفرت هذه الصحبة الرائعة عن هذه الأوراق والفصول «الهانم والزعيم» التى جـــاءت بمثابة زيارة جديدة لأعظم قصة حب اختلطت فيها السياسة بالحب.. والثورة بالرومانسية.. والوطن بالمنفى.

□□

وتبقى كلمة لابد منها، ولا معنى لإغفالها، لقد نشرت فصول هذا الكتاب طوال خمسة أشهر كاملة ابتداء من يناير ١٩٩٧ على صفحات مجلة «سيداتى سادتى» وسط حماس وترحيب وتقدير لا حدود له من الكاتبة والزميلة والصديقة «الدكتورة هالة سرحان» رئيس التحرير.

كما نالت من الزملاء «مجدى نجيب» و«فوزى الهوارى» و«محمد الرفاعى» نجوم «سيداتى سادتى» كل الاهتمام والتقدير أسبوعا بعد أسبوع!

ولم يفاجئنى حماس أخى وصديق عمرى الاستاذ «عبد الخالق نصر» عندما طلب أن تكون حلقات «الهانم والزعيم» هى الإصدار الثالث لدار «نصر للنشر والتوزيع» وكان حماس الصديق «عادل رفاعى» مستشار الدار لا حدود له.

شكراً لكل هؤلاء وغيرهم، ويبقى الشكر الأكبر للقارئ العزيز فهو وحده صاحب السلطة التى تمنح الكاتب شهادة ميلاده وشرعية وجوده!

رشاد كامل

«أغسطس ١٩٩٧»

١

سعد وصفية: زفاف له تاريخ !

- □ وصف «الأهرام» لحفل زفاف «سعد زغلول» !
- □ سعد يحضر معلمة لتعليم «صفية» اللغة العربية !
- □ والد «صفية» فى وداع الخديو «إسماعيل» !
- □ عرابى «يوبخ» زوجته لأن ابنته تتعلم الإنجليزية !



لم يصدق أحد تفاصيل الخبر!!

كان الخبر الذى رفض جميع الناس فى مصر المحروسة أن يصدقوه هو مجرد خبر زواج!!

لكنه لم يكن زواجاً عاديا بمقاييس الدنيا منذ مائة عام بالضبط!!

كان خبر الزواج يتعلق بابنة رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت «مصطفى فهمى باشا» من القاضى الشاب «سعد زغلول بك»!!

وجه الغرابة فى ذلك الخبر أن العروس ابنة الحسب والنسب لم يزوجها أبوها رئيس الوزراء من عريس ينتمى لنفس الطبقة الاجتماعية التى احتكرت ولسنوات طويلة حكم مصر!!

لم يعرف الناس فى ذلك الوقت ولسنوات طويلة بعد ذلك أن اسم العروس هو «صفية» وأنها صغرى بنات رئيس الوزراء!!

ولم يعرف الناس وقتها أن العريس «سعد زغلول» بك كان يكبرها بحوالى ١٨ سنة كاملة!!

لقد حرصت جريدة الأهرام على أن تنشر تفاصيل حفل الزفاف بعد ٤٨ ساعة فقط من حدوثه، ولفت انتباه القراء ودهشتهم وصف «الأهرام» له فى ٦ فبراير ١٨٩٦ بأنه «أعظم حفلة زفافية جرت هذا العام بعد الحفلتين اللتين أقيمتا فى قصر القبة العامر».!

واحتلت هذه التفاصيل حوالى عمود ونصف عمود من إحدى صفحات الأهرام الداخلية التى صدرت بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٨٩٦.

وتحت عنوان باب «العاصمة» كتبت الأهرام تقول:

«أعظم حفلة زفافية جرت فى هذا العام بعد الحفلتين اللتين أقيمتا فى قصر القبة العامر هى التى شهدها الناس أمس فى منزل صاحب العزة الفاضل «سعد بك زغلول».

فقد كان السرادق المنصوب يتسع للألوف من النفوس وفى سقفه الثريات مصفوفة صفوفاً ومن تحت الأثاث المذهب المفروش بالحرير الأحمر على غاية الاتقان فى التنسيق والترتيب.

وكانت الموسيقى العسكرية فى مكان معد لها أمام السرادق، فإذا وفد المدعو حيته بالإنشاد وقابله على الباب جمهور من الأصدقاء المتولين أمر التشريفات فى المقابلات والتوديع والمؤانسة أثناء الجلوس.

وكان فى مقدمة الذين حضروا الحفلة النظار (الوزراء) الفخام، وبعض النظار السابقين والسيد «جون سكوت» المستشار القضائى (الإنجليزى) والسر تشريفاتى خديوى وعدد كبير من الكبراء وأصحاب المكانات العالية وجميع رجال القضاء الأهلى والمحامين لديه وأعضاء الشورى وجمهور من الأعيان والوجهاء على اختلاف مقاماتهم وأجناسهم.

وقد أجمع الجميع على امتداح ما أودع من الذوق السليم فى تلك الزينة التى كانت زخارفها الثمينة تزداد قيمتها فى العيون بقدر ماظهر من اجتهاد مرتبها فى إظهارها بمظهر السذاجة والبساطة!

وقد كان ابتداء الحفلة منذ الساعة السادسة إذ حضر العلماء الأعلام وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ «حسونة النوواى» شيخ الإسلام، فتناولوا العشاء وتلاهم غيرهم من الأخصاء المدعوين.

وفى الساعة التاسعة أخذ المدعوون يتوافدون حتى إذا اكتمل عددهم فى الساعة العاشرة صعد حضرة المطرب الفريد «عبده أفندى الحامولى» على أريكة فنه فكأنه استولى منها على العرش الذى تحوم حواليه النفوس، وتود أن تلتصق به الآذان وكان على أحد جانبيه المطرب المبدع الشيخ «يوسف المنيلاوى» وعلى الآخر «محمد أفندى العقاد» صاحب التخت المشهور. فتغنى الحامولى ضاحكا باكيا متنهداً ساراً، مشجياً لاعبا بالقلوب، ذاهباً بالأفكار كل مذهب فى عالم الذهول واستمر كذلك مع جوقته (فرقته) إلى قرب الصباح.

وفى نحو الساعة الحادية عشرة فتح سماط الطعام المصنوع على الطريقة الأفرنجية وكان فى سرادق مخصوص متسع اتساعاً عظيماً، فاختلف إليه المدعوون أفواجاً ولم يختلفوا فيه إنه دليل الكرم التام والضيافة الحاتمية.

وخلاصة القول إن جميع الذين حضروا حفلة أمس سروا بها من كل الوجوه ولاسيما بما أبداه لهم حضرة صاحب المنزل المحتفل بزفافه من البشاشة وحسن المجاملة وكمال الأدب واللطف وبما كان يتلقاهم به من مثل ذلك حضرة شقيقه الفاضل «أحمد فتحى بك» رئيس محكمة المنصورة الإبتدائية وصاحب اليد البيضاء فى تنظيم هذه الزينة وحضرات رجال القضاء الذين انتدبوا لمهمة التشريفات!

وختمت «الأهرام» وصفها لحفل الزفاف بقولها:

«فنسأل الله أن يجعل هذا القران مفتتح باب «سعد .. لسعد» وحليلته الكريمة وأن يمن عليهما بالهناء المستمر والتوفيق الدائم».

□□

والذين قرأوا ذلك الوصف المدهش لحفل زفاف «سعد بك زغلول» قبل حوالى مائة سنة لم يخطر ببالهم أن يتساءلوا عن اسم العروس فقد كان ذلك هو العيب نفسه؟!

لم تكن اخلاق وتقاليد ذلك الزمن تسمح بذكر اسم «العروس» حتى لو كانت ابنة رئيس الوزراء نفسه!!

كان الزمن غير الزمن، والدنيا غير الدنيا!!

حتى الزعيم الوطنى «محمد فريد» عندما أشار لهذا الزواج فى مذكراته لم يتطرق لهذه المسألة - أى مسألة «اسم زوجة سعد» وكان كل ماكتبه هو مايلى:

«فى يوم الخميس ٦ فبراير سنة ١٨٩٦ احتفل بزفاف كريمة «مصطفى باشا فهمى» رئيس مجلس النظار على «سعد بك زغلول» القاضى بمحكمة الاستئناف. وهو من الشبان الذين وصلوا إلى هذه الدرجات العليا بجدهم واجتهادهم فإنه من إحدى العائلات المتوسطة بمديرية البحيرة ثم تعلم بالأزهر ثم اشتغل بالمحاماة وأخيراً تعين بالاستئناف».

ومالم يعرفه أحد فى ذلك الوقت هو أن سعد زغلول فى يوم زفافه بقى فى مكتبه يراجع القضايا التى سيحكم فيها كمستشار فى محكمة الاستئناف، وانتقل مباشرة من مكتبه فى بيته (بحى غمرة) إلى الكوشة فى بيت والد العروس فى حى باب اللوق (بوسط القاهرة) وجلس بجوار العروس، وكان من وقت لآخر - حسب مايقول مصطفى أمين - يسرح فى القضايا التى سيحكم فيها فى اليوم التالى.

وكان سعد قادراً على العمل ١٨ ساعة بغير انقطاع، فقد كان العمل هوايته الكبرى، وكان يجد فيه لذة ومتعة وهناء.

وفيما بعد روت «صفية زغلول» تفاصيل اللحظات التى سبقت زفافها إلى «سعد زغلول» بك زوجها.

قالت صفية زغلول : إنه فى ليلة زفافها قالت لها أمها (أصائيش هانم) إن العريس سوف يصحبها فى عربة حنطور من بيت أبيها إلى بيته فى حى الظاهر، وعندما تقف العربة أمام بيت العريس، سينزل العريس ويقول لها: تفضلى!! فتتمنع عن النزول.

فيقول لها للمرة الثانية تفضلى: فتتمنع!!

ثم يقول لها للمرة الثالثة: تفضلى! وعندئذ تنزل من العربة وتتبع العريس إلى داره .. وأن هذه هى التقاليد التى تتبع فى العائلات الأرستقراطية الكبيرة!!

وأطاعت العروس الصغيرة تعليمات أمها. فما أن وقف العربة ونزل منها العريس وقال بصوت آمر: تفضلى، حتى انكمشت العروس الصغيرة فى زاوية العربة الحنطور وتمنعت ولم تنزل من العربة كما قالت لها أمها وكما تقضى التقاليد!

وفوجئت العروس بالعريس (سعد بك زغلول) يتركها ويمشى فى طريقة إلى داره، وعندها وجدت نفسها تقفز من العربة وتعدو وراءه..

وحسب ما رواه «مصطفى أمين وسمعه من أم المصريين» فإن «صفية» كانت تروى دائماً هذه القصة وتقول مبتسمة : ومنذ تلك اللحظة أصبحت أجرى وراءه دائماً.!

□□

وعندما تزوج «سعد زغلول» اكتشف أن صفية لم تدخل أى مدرسة فقد أحضر لها والدها معلمة فرنسية تعلمها اللغة الفرنسية، وأخرى مصرية تعلمها مبادىء القراءة والكتابة.

وحسب شهادة مصطفى أمين – فقد شعر سعد بخيبة أمل، إنه يريد شريكة لا زوجة، امرأة تقرأ الصحف العربية، وتناقشه فى أحداث السياسة، وتلفت نظره إلى المقالات الهامة ويقرأ عليها مايكتب.. لهذا بادر سعد بإحضار معلمة للغة العربية تتولى تعليم زوجته وابنته المتبناة «رتيبة» فى نفس الوقت.

وكان سعد يشرف بنفسه على تعليم صفية ورتيبة، ويطلب إليهما أن تقرأ كل منهما بصوت مسموع، ليصحح لهما النطق ويناقشهما فى معانى ماتقرآن، ومع الوقت أصبح يأتيهما بمقالات مصطفى لطفى المنفلوطى وقصائد سامى البارودى.

وهكذا أصبحت صفية تقرأ الصحف المصرية بانتظام وتتتبع الأخبار، وتشترك فى التعليق على الحوادث».

□□

وقبل حوالى عشرين عاماً بالضبط من زواج «صفية». كانت الدنيا غير الدنيا!!

قبل ثلاث سنوات من ميلاد «صفية مصطفى فهمى» كانت مصر تشهد انقلاباً اجتماعيا خطيراً.

كان هذا الانقلاب يتمثل فى إنشاء أول مدرسة للبنات!!

حتى ذلك الوقت – ١٨٧٣ – لم يكن فى مصر كلها مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة. ولم يكن يلتحق بها سوى البنات الحبشيات، أما البنات من باقى الطبقات فلم يكن هناك مدارس خاصة بهن، باستثناء بنات الأسر الراقية والقادرة.. فقد كان الآباء يصرون على تعليمهن فى البيت!!

وأما تعليم البنات فى المنازل فقد كان مقصوراً على الأشغال اليدوية وشئون المنزل والقراءة دون الكتابة!!

أما السبب الغريب وراء تعليمهن القراءة فقط فهو كما يقول «أحمد شفيق باشا» رئيس الديوان الخديوى: «حتى لا تستطيع البنت استخدام الكتابة طوع نزعات الشباب».

وكانت صاحبة فكرة إنشاء مدرسة للبنات هى السيدة «جشم آفت هانم» ثالث زوجات الخديوى إسماعيل. وكانت ذات مكانة خاصة لديه وكانت تتمنى لو رزقت ولداً فلما لم يقدر لها ما تمنته فكرت فى أن تتبنى لها بنتا، وقد وقع اختيارها على «فائقة هانم» لما رأته فيها من صفات طيبة وأخلاق فاضلة.

أطلقت زوجة الخديو «جشم آفت هانم» اسم السيوفية على مدرسة البنات التى أنشأتها، واختارت لمنصب ناظرة المدرسة السيدة «روزة» وكان يعلم فيها القراءة والكتابة والشىء البسيط من الحساب وغيره والأشغال اليدوية وشئون المنزل وحفظ القرآن الكريم.

وكان بها عند افتتاحها عام ١٨٧٣ نحو مائتى تلميذة، وبلغ عددهن بعد عام ١٨٧٤ حوالى أربعمائة تلميذة يتعلمن مجانا فضلا عن الإنفاق على مأكلهن وملبسهن!!

أكثر من هذا أن زوجة الخديو إسماعيل «اعتزمت إنشاء مدرسة أخرى أعظم منها، وأتمت بناءها فعلاً، وقبل افتتاحها كان الخديو إسماعيل وزوجاته يغادرون مصر فى رحلة المنفى (١٨٧٩) فأهمل شأن المدرسة وشغلتها الحكومة ببعض الدواوين.

وبعد حوالى ثلاثة أعوام من إنشاء مدرسة السيوفية قرأ الناس إعلاناً فى صحيفة الأهرام الصادرة فى ٢ مارس ١٨٧٧ يبشرهم بإنشاء مدرسة أهلية وطنية بالإسكندرية لأجل تعليم البنات، أما صاحبتها فهى السيدة «كريستين قرداحى» وتقوم المدرسة بتعليم البنات «العربية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية وسواها ثم علم البيانو يومياً وكذلك الأشغال اليدوية الدقيقة كالخياطة والتفصيل وتطريز القصب، وتطريز الحرير من جميع الأجناس وشغل الصوف والركامو والبرانيط».

كان ذلك هو أقصى ماتحلم به أى فتاة فى ذلك العصر!!

ورغم ذلك فقد كان البعض يعتبر تعلم الفتاة للكتابة وصمة عار وخطيئة!!

كان الزعيم «أحمد عرابى» واحداً من هؤلاء البعض!!

فهو يكتب من منفاه فى جزيرة «سيلان» خطاباً شديد اللهجة إلى السيدة زوجته يقول فيه بالحرف الواحد:

«حضرة صاحبة العفة والعصمة حرمنا المحترمة رعاها الله آمين.

نخبركم بأن كريمتنا «أم كلثوم» أرسلت لنا جواباً وبتلاوته حصل لنا كدر شديد إذ إنه علم لنا منه أنها تخلقت بأخلاق ذميمة، وتلك الأخلاق ليست من طباعها أصلا بل إنها اكتسبت ذلك من مخالطتها إلى حرم أخيها التى ابتلانا الله بها..(!!)

أما هذه الأخلاق الذميمة التى تعلمتها ابنة عرابى فهى وحسب نفس الخطاب:

«إنها تتعلم الكتابة الإنجليزية وتضع اسمها على الجوابات المرسلة لنا بالقلم الإنجليزى الأمر الذى تستوجب عليه قطع أياديها.. فهى تتعلم لغة قوم لايعود علينا وعليها منها إلا الضرر والفضيحة والعار، فيقتضى تفهيمها بذلك بحضور إخوتها جميعاً».

إن الزعيم «أحمد عرابى باشا» صاحب التاريخ الطويل والعريض فى دنيا الوطنية.. هو نفسه الذى يطالب بقطع يد ابنته لأنها تتعلم لغة قوم لايعود منهم إلا الفضيحة والعار!!

□□

وفى نفس العام الذى ولدت فيه «صفية» كان والدها «مصطفى فهمى باشا» يعيش مأساة كبرى لم تكن تخطر بباله أبداً!!

كانت المأساة تخص «إسماعيل باشا صديق» وزير مالية الخديو إسماعيل وموضع ثقته وأسراره. فقد كان أخوه فى الرضاعة!!

طوال ثمانى سنوات من ١٨٦٨ إلى ١٨٧٦ كان «إسماعيل باشا صديق» (المفتش) هو المسئول الأول والأخير عن أموال مصر وميزانيتها. وحسب مايقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى «فإن هذه السنوات المشئومة هى التى جرت الخراب المالى على البلاد، وهى أتعس فترة فى تاريخ مصر».

وكان يقال له «الخديو الصغير» وكان وحده دون زملائه كلهم يعمل باستقلال تام وبدون مشاورة الخديو إسماعيل أو الرجوع إليه!!

نمت وكبرت وتضخمت ثروة «إسماعيل باشا صديق» من الرشاوى والسلب والنهب بصورة لم تخطر ببال الخديو نفسه، وفاق حجم ثروته ثروة الأمراء أبناء الخديوى إسماعيل!!

ويؤكد المؤرخ «إلياس الأيوبى» فى كتابه الضخم عن «الخديو إسماعيل» أن ملابس نساء المفتش وحليهن، والرغد المحيط بهن وكثرة حشمهن وخدمهن وفخامة دورهن ومواكبهن وكل ما كان يحيط بحياتهن من مظاهر الأبهة والجلال أصبح مما تحسدهن عليه حسداً حقيقياً أميرات البيت الخديوى، ويغرن منه غيرة صحيحة!! فإن ثمن مراوح

زوجة ذلك الوزير المحبوبة بلغ ٣٧٥ ألف فرنك، وثمن شمسية من شماسيها بلغ ستمائة ألف فرنك.

وكان من البديهى كذلك أن يحقد أمراء البيت المالك وأميراته على إسماعيل صديق باشا ويبغضونه ويرغبون فى إزالته ويعملون عليها».

فى ذلك الوقت كانت مصر غارقة فى ديونها، وعاجزة عن السداد أو تأجيل أقساط الديون، ثم طرأت فكرة إنشاء صندوق الدين وهو أول هيئة رسمية أوروبية أنشئت لغرض التدخل الأجنبى فى شئون مصر والسيطرة عليها، ثم تم إنشاء مجلس أعلى للمالية وبعدها الرقابة الثنائية.

وجاء إلى مصر مندوبان (إنجليزى وفرنسى) ونزلا ضيفين رسميين على الخديو، فوضع الخديو تحت تصرفهما كل التسهيلات اللازمة لكى يتمكنا من الوصول إلى الغرض الذى جاءا من أجله!!

كان مسيو «جوبير» مندوبا عن الدائنين الفرنسيين، ومستر «جوش» مندوبا عن الدائنين الإنجليز، الذى كان المطلب الرئيس له هو إقصاء «إسماعيل صديق» عن وزارة المالية كشرط جوهرى لإصلاحها!!

وبلغ من جرأة إسماعيل صديق المفتش أنه قال للأمير «حسين كامل» ابن الخديو:

– «المسألة ليست عزل وزير بل إلغاء وزارة المالية بصفتها مصرية محضة».

وقدم «إسماعيل المفتش استقالته ضمن خطاب طويل أوضح فيه الأسباب التى حملته على تقديمها، «وأبى الخديو قبولها وأجل مطالعة كتابه.»

لكن مصر كلها عرفت بأمر الاستقالة، بل وتعيين الأمير «حسين» وزيراً للمالية بدلا من المنصب الذى كان يشغله وهو وزير الحربية!!

وقام الخديو إسماعيل باستقبال وزير ماليته السابق «ببشاشة ولطف فوق المعتاد» ودار بينهما حديث طويل، ولعل أخطر ما قاله «إسماعيل صديق المفتش» للخديو:

– «لو كان هلاكى وحده يكفى لإنقاذكم، فلا أدرى إذا كان يكون لدىّ أقل رغبة فى أن أحمى منك القليل الباقى من عمرى، ولكن الحال ليست كذلك، وأعتقد أن الخلاص لن يأتى للبلاد ولنا إلا ببقائنا متحدين، فكما أنى لا أستطيع أن أنجو بدون سموكم، فإن مولاى لا يستطيع أن يخرج من المأزق بدونى»!!

كانت لهجة «إسماعيل صديق المفتش» حادة وحاسمة، ولمح الخديوى تهديداً خفياً يصدر من بين كلماته!!

وقرر الخديوى إسماعيل استدعاء أبنائه الثلاثة وصرح لهم فى رغبته فى إلقاء القبض على إسماعيل صديق المفتش ومحاكمته!!

وهنا قال الأمير محمد توفيق ولى العهد مقترحاً على والده الخديوى:

- «يجدر بسموكم والحالة هذه إصدار أمركم إلى مصطفى فهمى باشا محافظ العاصمة بإعداد ألفى عسكرى وإرسالهم ليحيطوا بسراى المفتش بالإسماعيلية».

وهنا بالضبط يبدأ دور مثير قام به «مصطفى فهمى باشا» - والد صفية - والتى لم يكن قد مضى على ولادتها إلا شهور قليلة!!

□□

ببساطة شديدة انتهت حياة الخديوى الصغير «إسماعيل باشا صديق»!!

عدل الخديوى إسماعيل عن فكرة محاكمة «إسماعيل باشا صديق» واستدعاه إلى سراى عابدين كعلامة الثقة به، وهدأ روعه، وتلطف فى محادثته ثم اصطحبه إلى سراى الجزيرة مظهرا أنه رضى عنه، ولكن لم تكد العربة التى أقلتهما تجتاز حدائق السراى، وتقف أمام باب القصر، حتى نزل الخديو وبادر إلى إصدار أمره بالقبض على صديق واعتقاله فى ناحية من القصر. ومن تلك اللحظة اختفى خبره واسمه عن المصريين، إذ عهد الخديو إلى أتباعه بقتله ، فقتلوه وألقوا جثته فى النيل (حسب مايقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى).

وكثرت الإشاعات وملأت كل مصر المحروسة!!

كان أخطر الشائعات رواجاً فى ذلك الوقت أن قاتل إسماعيل باشا صديق هو نفسه محافظ العاصمة «مصطفى فهمى باشا»!!

وفيما بعد كتب د.لويس عوض مؤكداً أن تاريخ «مصطفى فهمى باشا» اقترن بمقتل إسماعيل باشا المفتش وقيل إنه قتله بأمر «إسماعيل» الخديوى!!

وكان لابد أن تمضى سنوات عقب هذا الحادث حتى يتبين الناس حقيقة الدور الذى لعبه «مصطفى فهمى باشا» فى اغتيال «إسماعيل باشا صديق»!

حقيقة هذا الدور وظروفه وملابساته ساعة بساعة كشف عنها أحد كبار الجالية الأجنبية بمصر فى تلك الأيام، وحرص على كتابتها وتسجيلها المؤرخ «إلياس الأيوبى» فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٢ عن الخديو إسماعيل.

تقول سطور الرواية:

«حالما وصل الخديو وإسماعيل صديق باشا فى العربة إلى باب سراى الجزيرة نزل الأول مسرعاً، ونزل المفتش بعده، فدخل إسماعيل (الخديوى) بالسرعة عينها إلى السراى ودخل غرفة أمامه، وأسدل على بابها الستار، فأراد المفتش اتباعه ولكن ٢٤ شاويشا تحت قيادة «إسحق بك» الياور وقفوا دونه وسدوا عليه الطريق، وتقدم «إسحق بك» منه وقال له بخشونة إنه أسيرهم!!

فصاح المفتش: مولاى.. مولاى يقبضون علي وأنا ضيفك يا أفندينا؟!

فلم يجب نداءه أحد!! ولم يبد مقاومة مطلقاً بل سقط فى يده واستكان إلى تصرف الشاويشية فيه، فقادوه إلى طرف الحجرة التى هو فيها وأقاموا حوله يحرسونه!

ولما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر أتى إلى المفتش «مصطفى فهمى باشا» محافظ القاهرة فى ذلك العهد، وأبلغ إسماعيل صديق منطوق حكم المجلس الخصوصى. (وهو نفيه إلى دنقلا وسجنه فيها تحت الاحتياط الشديد».

واحتج المفتش احتجاجاً عنيفا، أولاً: على صدور الحكم غيابياً مع أنه كان من الممكن دعوته للدفاع عن نفسه!!

وثانيا : على تعرض المجلس للنظر فى قضية ليست من اختصاصاته، لكون المتهم مشيراً عثمانياً (أى لا يحاكم إلا فى الآستانة أمام الباب العالى).

وأنذر «المفتش» مصطفى باشا بإبلاغ احتجاجه إلى الخديو رسمياً، وإلا كان خائنا نحو الباب العالى!

ومع أن «مصطفى باشا» فهمى كان متأثراً جداً، ومتكدراً غاية الكدر من أن وظيفته تحتم عليه عمل مايعمل، إلا أنه لم يستطع إجابة طلب المفتش وقال له:

– ما الفائدة من ذلك ياباشا؟! أنت تعلم جيداً أن الباديشاه (يقصد السلطان العثمانى) بعيد وأن الخديو قريب، فأنّى ليد جلالته أن تحميك من يد سموه؟!

فقال المفتش : لا بأس جرب ياصديقى جرب!! فإنى لست أدافع عن حياتى فقط بل عن حياتك أيضاً، وعن حياة ذات الذين حكموا علىّ اليوم بدون سماعى، فما قد وقع لى قد يقع لكم فإن يكن اليوم دورى فقد يكون غداً دوركم!!

لا تقل كلا بهزة رأسك هذه، فأنت غلطان، نعم، أنا أقرأ فى عينيك الخاطر المتجول فى فكرك، أنت تقول نحن نكون أكبر منك فطنة وحرصاً نحن لن نفعل مافعلت! لن نتآمر على سلطة الخديو!!

«ياباشا هل أنت معتقد صحة هذه المؤامرة؟! أنا؟! أنا أتآمر عليه!! كلام فارغ!! مخابراتى مع العلماء ورجال الدين كانت بإذنه وتصريحه، والله والله! وثروتى وأملاكى بالرغم من كل الظواهر لم أقتنها بسرقة أموال الحكومة، وإنما اكتسبتها بمضاربات خصوصية!!»

«أنا أقسم لك على ذلك يامصطفى إذا كان يوجد اختلاس فى الأموال العمومية كما يقولون فلست أنا اللص والخديو يعرف ذلك»!!

□□

كان صوت «إسماعيل صديق باشا» قد احتد وعلا بأكثر مما ينبغى وأكثر مما يوافق «مصطفى باشا فهمى» لذلك فقد راح محافظ العاصمة يقول له:

– هس ياصديق لا تتكلم هكذا، لاسيما بمثل هذا الصوت العالى، فربما كانت لمعرفة الخديو نصيب مما تقوله من الصحة هى السبب فى أنك صرت إلى الحال التى أنت فيها تشجع! كل شىء لم يفقد بعد!! ليس السفر إلى دنقلا موتاً! فقد رأينا من أتى من أبعد من ذلك وعوضت عليه خسارته المؤقتة أضعاف أضعافها!!

فشخص «المفتش» إلى «مصطفى باشا فهمى» كأنه يوبخه على محاولة الضحك عليه مثلما لو كان ولدا صغيراً، وعلى تعليله إياه بأمانى ليس لها فى نفسه أثر، فلم يستطع «مصطفى باشا» احتمال اللوم المنبعث عن تلك النظرة، وحوّل رأسه عن المفتش!!

ولما كانت الساعة الخامسة، وصلت الباخرة التى أعدت للسفر بإسماعيل صديق إلى دنقلا وأخطر أحد الجاويشية بذلك!

وماهى إلا لحظة حتى دخل «إسحاق بك» (ياور الخديوى) هو وأجناده، وكانوا قد خرجوا عند قدوم «مصطفى فهمى باشا» وقال للمفتش:

– هيا بنا ياباشا!!

وأومأ إلى الجاويشية الأربعة والعشرين فأحاطوا بصديق وقادوه إلى ظهر الباخرة صاغراً وأنزلوه إلى حجرته وأوصدوا نوافذها، وتبعه «مصطفى فهمى باشا إلى الباخرة بحكم وظيفته!!»

وحسب نفس الشهادة السابقة فقد طلب إسماعيل صديق المفتش كوبا من الشمبانيا وهو مشروبه المفضل وقد تجرعه دفعة واحدة.

«فلما مرت ساعة بدأ يشعر بالألم وأحس كأن ناراً أخذت ترعى فى أحشائه، ولكنه كان خبيراً بالمفعول ودرجته، فقال «لمصطفى فهمى باشا» ضاحكاً:

– ياعزيزى مصطفى باشا، ماذا قلت لى منذ لحظة عن الرجوع من دنقلا؟! آرانى لن أرجع منها إلا يوم الحشر!

فأراد مصطفى باشا أن يقاوم فكرته ولكن المفتش قال له:

– صه .. صه يامصطفى.. أنت تعلم كما أعلم أنا، أن إحدى قدميّ قد دخلت القبر، غير أن هؤلاء البهائم قد غلطوا فى الكمية التى أمروا بوضعها فى الزجاجة (يقصد السم) وماجاء منها فى الكوب التى تجرعتها منذ ساعة قد يبقينى حياً حتى غد. وهذا مالا أريده، فسأشرب إذن كوباً ثانياً على صحة الذين سيتبعوننى قريباً فى هذا السفر الميمون!! على صحتك يامصطفى!!

وشرب المفتش كأسا أخرى ولكن بنيته كانت قوية ومتينة على ضآلة جسمه فزادت الكأس الثانية آلامه ولكنها لم تصعقه كما كان ينتظر، ودقت الساعة السابعة وهو لايزال على قيد الحياة!!».

وراح «المفتش» يتلوى ويتمرغ على أرض الحجرة ويشهق شهيقا متقطعاً، وكان «مصطفى فهمى باشا» وإسحق بك واقفين فى الحجرة يشاهدان ذلك المنظر المفجع، أما الأول مصطفى فهمى باشا فإن اصفرار الموت كان قد علا وجهه كما علا وجه المفتش، وتصبب العرق من جبينه وجسمه كله، ولم يسعه - وشهيق المفتش يتزايد حتى بلغ درجة من الشدة مزعجة للغاية - سوى أن يصم أذنيه لكيلا يسمعه!!

فلما دقت الساعة الثامنة ظهر كأن كل شىء قد انتهى، فاقترب إسحاق بك من المفتش لظنه أنه مات وشرع ينزع السلسلة التى فيها خاتمة، لكن المفتش فجأة فتح فمه وعض يد إسحاق فقطع إبهامه، وجن الرجل وأمر الجاويشية فطوقوا عنق المفتش بحل وشدوه فخنقوه ثم وضعوا جثته – وهى سخنة بعد – فى الزكيبة المملوءة حديداً، والمعدة لذلك الغرض، وبعد أن اجتازت السفينة بهم سراى الوالدة وتجاوزت جزيرة الروضة طرحوها فى النيل.

ثم رست جهة مصر العتيقة ونزل منها مصطفى فهمى باشا وإسحاق بك والأربعة والعشرون جاويشا وعادوا كلهم إلى مصر، فإن مهمتهم كانت قد انتهت.»

□□

وسط هذه الأحداث الجسيمة التى كانت تواجه مصر جاءت «صفية مصطفى فهمى» إلى الحياة عام ١٨٧٦.

كانت «صفية» آخر العنقود!!

سبق صفية إلى الحياة شقيقتاها «زكية» و«فهيمة»!!

ولدت «صفية» فى ١٦ يونيو ١٨٧٦.

أما أبوها فهو «ابن حسين أفندى البكباشى التركى الأصل الذى ولد فى جزيرة كريت سنة ١٨٤٠ أثناء إقامة والده بها!!»

تكفل بتربيته خاله «محمد زكى باشا» ناظر ديوان الأشغال، وتلقى تعليمه بالمدرسة الحربية بالقلعة والتحق بالجيش وظل يترقى فى مناصبه حتى نال رتبة الفريق.

بعد ذلك شغل عدة مناصب هامة، فقد عين مديراً للمنوفية ثم محافظاً للقاهرة وبورسعيد وناظراً للخاصة الخديوية ثم سر تشريفاتى خديوى.

فى شبابه تزوج من الآنسة المصونة والجوهرة المكنونة «أصائيش هانم»!!.

فى نفس الوقت كان «مصطفى فهمى» والد صفية يبدأ رحلة صعوده السياسى!!

وفى نفس الوقت كان الشاب «سعد زغلول» يبدأ رحلة صعوده الاجتماعى!!

كانت رحلة كل منهما طويلة.. وفيها مايستحق القراءة أيضاً!!

وإلى الفصل القادم!

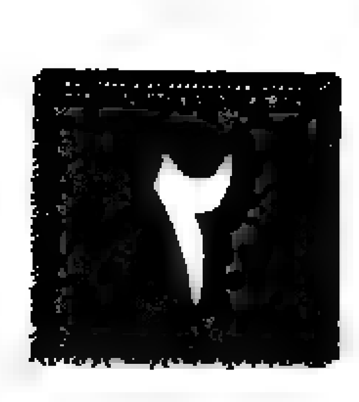


سعد زغلول أيام زمان



الأفوكاتو.. ورئيس النظار.. ومفترق الطرق!!

- ☐ استقامة سعد ونزاهته فتحت أمامه أبواب المجد.
- ☐ سر اشتغال سعد بالمحاماة وهى «صناعة مبتذلة»!!
- ☐ إمراة ذات سوابق وشهادة لأخلاق سعد زغلول !!
- ☐ سر «إصرار عرابى» على وجود «مصطفى فهمى باشا» وزيراً!!



فى نفس العام الذى وُلدت فيه «صفية مصطفى فهمى» كان «سعد زغلول» شاباً فى عنفوان سنوات المراهقة والشباب!!

ربما كان عمر «سعد زغلول» فى عام ١٨٧٦ حوالى ١٦ سنة إذا كان ـ كما يؤكد البعض ـ أنه من مواليد ١٨٦٠. وربما كان عمره ١٧ سنة إذا كان من مواليد ١٨٥٩ كما يؤكد البعض وفى مقدمتهم سكرتيره «محمد إبراهيم الجزيرى».. وربما كان عمره ١٩ سنة إذا كان من مواليد ١٨٥٧ كما يؤكد البعض الآخر!!

لكن المؤكد أن جميع من تصدوا لسيرة «سعد زغلول» لم يتفقوا على تحديد العام الذى ولد فيه!! إن الخلاف حول ميلاد سعد زغلول وتاريخ مولده هو خلاف علمى وتاريخى، مكانه الطبيعى أقسام التاريخ فى كليات الآداب بين أساتذة التاريخ!!

لكن المهم أن «سعد زغلول» جاء إلى الدنيا فى هدوء شديد، لكنه غادرها بعد سنوات طويلة يسبقه نهر الأحزان ودموع ملايين المصريين!!

وصف «مصطفى أمين» ظروف وملابسات مولد «سعد زغلول» فقال: «صرخت القابلة (الداية) وهى تحمل المولود بين يديها: ولد .. ولد!!

ووقفت سيدات الأسرة حول فراش «مريم» يتطلعن إلى ولدها الأول!

وزغردت الخادمات، وأقبل الأب «إبراهيم زغلول» على صوت الصياح ليرى مولوده الثامن.. لقد رزق قبل ذلك بسبعة أولاد وبنات هم : «عبدالرحمن» و«محمد» و«أحمد» و«شلبى» و«ست الدار» «وفرحانة» و«ستهم»!

ولكن ستة من هؤلاء كانوا من زوجته الأولى. وكان هذا هو المولود الجديد أول ولد من زوجته «مريم»! لقد تزوجها منذ عامين وفوجىء بها تلد له قبل ذلك بنتاً! وأطلق عليها اسم «ستهم»! ولكنه كان يريد ولداً من زوجته الجديدة التى يحبها!!

وأخيراً جاء الولد وأسماه «سعد زغلول»!

وجلست سيدات الأسرة حول المولود. وقالت واحدة: سيكون قائداً!

وقالت الثانية: سيكون معلما!

وقالت الثالثة: سيكون وزيراً!

وقالت الرابعة: سيكون حاكما!

وقالت مريم: بل سيكون كل هؤلاء في وقت واحد!

وضحكت السيدات الجالسات، ولكن القدر لم يضحك، فقد كان «سعد زغلول» هو هذا كله.

كانت مريم رائعة الجمال، وكان والدها «عبدالله بركات» من أبرز رجال الإقليم ورزقت بعد ذلك بفتحي زغلول، ولكن مريم فوجئت بوفاة زوجها إبراهيم زغلول وكان عمر «سعد» خمس سنوات، وتقدم كثير من عظماء الإقليم والأكابر ليتزوجوا من الأرملة الفاتنة، ولكنها أبت أن تتزوج وقالت:

- لقد أصبحت اليوم أماً وأباً في وقت واحد!

ويصفها «مصطفى أمين» فيقول:

«كانت امرأة غريبة بالنسبة للنساء الفلاحات في ذلك العصر، لم تكن تقرأ وتكتب، ولكنها كانت امرأة حكيمة . واستطاعت وهي امرأة أن تتزعم الأسرة، وأن تصبح أقوى شخصية بعد وفاة زوجها، وأصبحت المرجع الذي يرجع إليه أولاد زوجها. وكان بعضهم أكبر منها سناً، ولكنها كانت قد ورثت عن أبيها الحكمة والدهاء وقوة الشخصية والصبر والاحتمال والسيطرة على أعصابها، وكل هذه صفات قلّ أن تجتمع في رجل واحد فما بالك بامرأة».

ويحرص «سعد زغلول» في مذكراته على الكتابة عن أسرته فيقول بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩١٦: «لما مات والدي كنت صغيراً جداً، ولا أتذكر من شخصه إلا أنه كان ذا شنب يميل للصفرة، طويلاً، وأتذكر أنني رأيته يضرب امرأة تدعى «وهبانة» وأنه لما مات نصبت خيمة، واستمرت منصوبة عدة أسابيع، وكان يؤتى فيها بكعك كثير، يفطر الناس منه صباحاً لأن كثيرين كانوا ينامون فيها .

وقد كان متزوجاً بسيدة غير والدتي تدعى فاطمة.

وكانت امرأة ممتلئة الجسم ولها الرئاسة في البيت.

ورزق من والدتي ببنت تدعى «ستهم» وأنا، وفتحي ، وولد آخر يدعى «فرج» مات بعد ولادته ، وكان هو بكريها ..

وقبل ثلاث سنوات من ميلاد «صفية» كان «سعد زغلول» قد وفد إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف عام ١٨٧٣، ويعرف طريقه إلى السيد «جمال الدين الأفغاني» ثم الشيخ «محمد عبده» وقد لعبا في حياته دوراً لا يستهان به فكريا وسياسياً وإصلاحياً!!

ويقول سكرتير سعد فيما بعد: «وفي تلك السنوات القلائل التي قضاها سعد في الأزهر يشهد زملاؤه بأنه حصل فيها مالم يحصله غيره في عشرين عاماً على صغر

سنه». وطوال السنوات التى كان يدرس فيها «سعد زغلول».. فى الأزهر الشريف كان يرتدى الجبة والقفطان والعمامة، وكان حسن الهندام، غالى الثياب، ممتازاً فى لبسه بين زملائه جميعا!! ولم يغير زى العمامة - حسب شهادة سكرتيره - إلا حينما عُين فى وظيفة (باشمعاون) مديرية الجيزة.

وبدأ منذ ذلك الوقت فى شرب الدخان (التدخين) وكان يدخن بشراهة لا مثيل لها!!

واقترب الشاب «سعد زغلول» من أستاذه وشيخه الجليل «محمد عبده» فواظب على حضور دروسه، وكان «سعد» مفتوناً بالشيخ ومحاضراته حتى أنه كتب فيما بعد يقول عن الشيخ « محمد عبده» إن الذى كان يحضر دروسه فى الأزهر لا يسعه إلا أن يحتقر دروس سائر العلماء فيه..

كان «سعد زغلول» يصغر الشيخ «محمد عبده» بحوالى عشر سنوات كاملة، لكن سعد كان يعتبره بمثابة الأب الروحى والأخ الأكبر. وكان فى كل رسائله إليه لا يناديه إلا بقوله «والدى الأكمل» وكان يوقع رسائله بكلمة «ولدكم» أو «صنيعكم»!!

□□

وفجأة اهتزت مصر كلها لحادث سياسى هز كل مصر من كبيرها إلى صغيرها!!

فجأة صدر قرار بعزل الخديو إسماعيل ونفيه خارج البلاد فى يونيو ١٨٧٩.

كانت مصر تطوى صفحة هامة فى تاريخها الحديث، وكانت أسرة «مصطفى فهمى باشا» تبدأ صفحة جديدة ومثيرة فى رحلة الصعود الاجتماعى والسياسى!!

فى نفس الوقت كان الشاب «سعد زغلول» مهموماً بحياته وشواغله، لكن المؤكد أنه قرأ وتابع مثل مئات الألوف رحلة الخديو إسماعيل وأيامه الأخيرة قبل مغادرة أرض مصر!

وغادر الخديوى «إسماعيل» مصر منفيا إلى إيطاليا.

وفى غرائب «التقارير الإلهية - حسب قول وشهادة أحمد عرابى فى مذكراته:» أن مصطفى فهمى باشا .. الذى كان قد انتدبه الخديو إسماعيل لمرافقة.. إسماعيل باشا صديق حين سفره إلى دنقلة فى سفينة بخارية بطريق النيل، فاستصحب معه رفاصاً بخارياً آخر وعند وصوله إلى المعصرة ودعه ورجع إلى القاهرة متأثراً مدهوشاً من ذلك الظلم العظيم الذى تم بقتل الرجل خنقاً فى دنقلة بلا تحقيق ولا بحث، ولما أذنت ساعة رحيل الخديو إسماعيل باشا من مصر، شيعه «مصطفى باشا فهمى» كذلك فى رفاص بخارى حتى وصل باب البوغاز ثم رجع بعد تأدية واجب الوداع لمولاه، فانظر إلى عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى.»

وتولى الأمير «محمد توفيق» عرش مصر خلفاً لوالده الخديو إسماعيل!!

كان من الطبيعى أن تقدم وزارة «شريف باشا» استقالتها ولم يكن قد مضى على تشكيلها سوى ٨٠ يوماً فقط!

لكن «محمد توفيق» كلف شريف باشا بتشكيل الوزارة فى ٣ يوليو ١٨٧٩، ووقع اختياره على «مصطفى فهمى باشا» ليصبح وزيراً للأشغال!!

كانت «صفية» فى حوالى الثالثة من عمرها عندما أصبح والدها «مصطفى فهمى» باشا وزيراً لأول مرة .. عندما قام «محمد شريف باشا» بتشكيل نظارته فى ٥ يوليو ١٨٧٩ فقرر تعيين «حضرة سعادتلو مصطفى باشا فهمى لنظارة الأشغال العمومية بعد أن كان محافظ الإسكندرية!!

وبعد إعفاء الوزارة وقيام الخديو «محمد توفيق باشا» بتشكيل الوزارة فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ .. تعين حضرة سعادتلو مصطفى فهمى باشا «لنظارة الخارجية»!

وهكذا ظل «مصطفى فهمى باشا» ينتقل من وزارة إلى أخرى، من الخارجية إلى الحقانية إلى المالية، إلى الداخلية، إلى الحربية والبحرية إلى الرياسة.. إلخ.

وهكذا عاشت «صفية» و«زكية» و«فهيمة» فى بيت عز وجاه، وينطبق عليها وعلى شقيقتيها المثل القائل إنها ولدت وفى فمها ملعقة من ذهب»!!

كان «صفية» لأنها آخر العنقود هى طفلة أبيها المدللة.

وعاشت «صفية» فى قصر أبيها بين الجوارى والأغوات، بل اشترى لها والدها ذات يوم أحد الأغوات وكان اسمه «فيروز» لخدمتها، وكان لشقيقتيها أيضا أغوان مخصصان لخدمتهما .. وبعد زواجهما انتقل هذان الأغوان معهما!!

ووسط هذه الحياة كان والدها على موعد مع أحمد عرابى وثورته الشهيرة!!

انتهت المواجهة بين الخديو «محمد توفيق» و«أحمد عرابى» بانتصار «عرابى» وقبول كافة مطالبه وعلى رأسها عزل وإعفاء وزارة «نوبار باشا»!!

أكثر من هذا أن «أحمد عرابى» نجح فى إرغام الخديو على أن يقوم شريف باشا بتشكيل الوزارة بدلا من اقتراح الخديو الذى كان يريد إسناد الوزارة إلى «حيدر باشا يكن» الذى كان يمت إليه بصلة القرابة!!

كانت المفاجأة أن «شريف باشا» ضد اختيار «مصطفى فهمى باشا» فى وزارته لكنه سرعان مارضخ لأوامر أحمد عرابى وتقرر تعيينه وزيراً للخارجية!

كان حماس «أحمد عرابى» زعيم الثورة «لمصطفى فهمى باشا» بلا حدود، وكانت له مبرراته ودواعيه فى هذا الحماس والتأييد!

وسجل «عرابى» فى مذكراته تفاصيل ذلك كله وكتب يقول:

فى يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ توجهت إلى سرايا «شريف باشا» وهنأته برياسة الوزارة الجديدة، وطلبت منه أن يعنى بانتخاب من يؤازرونه فى سرعة تأليف مجلس

النواب، ونشر الحرية فى البلاد، ورغبت إليه فى تعيين «محمود سامى (البارودى) باشا ناظراً للجهادية، و«مصطفى فهمى باشا» ناظراً للخارجية لما أعلمه عن ميلهما إلى العدل والحرية.. فأبى وقال:

- إنى لا أقبل أن يكون فى وزارتى «محمود سامى» ولا «مصطفى فهمى» لأنهما لم يوفيا بالعهد الذى تعاهدنا عليه من قبل، فقد اتفقنا على أنه إذا رفض الخديو الموافقة على تأليف مجلس النواب استقالت وزارتنا ولا يشترك أحد منا بعد ذلك فى الوزارة الجديدة ولكنهما نكثا بالوعد وقبلا الدخول فى وزارة رياض باشا التى قامت بعد وزارتنا والتى سقطت بالأمس، لذلك لا أستطيع أن أشتغل معهما.

فقلت (أى عرابى) له: إن لكل وقت حكماً وإنى أثق بحبهما للحرية والعدل والمساواة، وفضلا عن ذلك فإن الجيش لا يطمئن لغير «محمود سامى باشا»!!

فقال: أفلا ترضون أن أكون ناظراً للجهادية (الحربية) فإنى قد تربيت معكم فى العسكرية؟!

فقلت: لقد اخترناك رئيسا للوزارة ولابد من مراعاة ميول الجيش!!

ويمضى «عرابى» قائلاً:

«فلما أصر على عدم قبولهما فى وزارته تركته، ورجعت إلى أشغالى من غير أن يتم شىء فى أمر الوزارة.

وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قابلته مرة أخرى وقلت إنه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض، فقلت له:

- إن لم تؤلف الوزارة اليوم، فسنطلب غيرك، ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك.. ففيها بحمد الله العلماء والحكماء، ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز الخطير»!

فأغرورقت عيناه (شريف باشا) بالدموع ولم يحر جوابا، ثم خرجنا من عنده، وبعد قليل جاءنا الشيخ «بدراوى عاشور» (وكيل زراعته) وقال إن الباشا قد قبل ما عرضته عليه وأنه يريد مقابلتى، فذهبت إليه مع «محمود سامى باشا» حيث أعلن لنا تأليف الوزارة..

وهكذا رضخ «شريف باشا» لمطالب «أحمد عرابى»!

ولابد أن يكون التساؤل الطبيعى عن سر هذا الحماس الكبير من «عرابى» لمحمود سامى البارودى و«مصطفى فهمى باشا»؟!

حسب تحليل ورأى «المؤرخ» عبدالرحمن الرافعى فإن «عرابى» كان حريصاً على إسناد وزارة الحربية إلى البارودى لما ثبت من ولائه للحركة وإخلاصه للجيش. ولم ينس أنه على يده حين تولى وزارة الحربية أجيبت مطالب العرابيين الأولى وهى زيادة

رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة لإصلاح القوانين العسكرية وأن الخديوى قد أقصاه بعد ذلك من وزارة الحربية لإخلاصه للحزب العسكرى.

أما «مصطفى فهمى» فكان «عرابى» يميل إلى تقليده وزارة الخارجية لما كان يتظاهر به من الإخلاص للحركة .. على أنه لم يبد منه أى عمل إيجابى يدل على هذا الإخلاص، وكل ما عرف عنه أنه من يوم أن اشترك فى مقتل إسماعيل صديق باشا .. على عهد «الخديوى إسماعيل «ملُئ قلبه رعباً من هول هذا الحادث، ونفرت نفسه من استبداد الخديويين ومن هنا اطمأن له العرابيون..».

لكن فيما بعد صدر عن «مصطفى فهمى» باشا عبارة كانت لها دلالتها البالغة إذ قال:

إن سلوك عرابى فى الحقيقة أوجد كثيراً من القلق بين أعضاء الحكومة وإنه ينم عن جهل عرابى لما فعله»..

لكن أغرب ما ينسبه البعض لمصطفى فهمي باشا أنه سافر إلى أوروبا للاستشفاء فى أوج العمليات العسكرية (بين عرابى والإنجليز) خلال صيف ١٨٨٢.

ولا ينسى أحد لمصطفى فهمي باشا أنه بوصفه ناظر خارجية الجناب الخديو قد استقال احتجاجاً على التدخل الأجنبى فى شئون مصر واستقلالها الخارجي، وكان يرأس الوزارة «محمود سامى البارودى فى ذلك الوقت»

وفشلت ثورة عرابى، وتم تقديمه للمحاكمة التى أصدرت قراراً بنفيه إلى جزيرة سيلان..

ولم يكن «سعد زغلول» بعيداً عن أحداث الثورة العرابية!! وكان فى مقدوره أن يبقى بعيداً عن وجع دماغ السياسة وملابساتها، فقد أصبح «سعد زغلول» ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٨٨٠ محرراً فى جريدة الوقائع الرسمية «التى كان رئيس تحريرها هو الشيخ محمد عبده نفسه، وكان أول مرتب يتقاضاه سعد هو ثمانية جنيهات فى الشهر!!

وابتداء من فبراير ١٨٨٢ زاد مرتبه فأصبح تسعة جنيهات وثلاثين قرشا فى الشهر وكتب «سعد» عشرات المقالات فى «الوقائع المصرية» يهاجم فيها الفساد ويدعو لحكم الشورى، ويتبنى نفس مبادىء وشعارات الثورة العرابية فيما بعد!!

وسرعان ما يترك سعد جريدة الوقائع المصرية ليعمل فى وظيفة معاون بنظارة الداخلية فى مايو ١٨٨٢ ثم يتركها ليصبح ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة فى سبتمبر ١٨٨٢ بمرتب خمسة عشر جنيها فى الشهر!!

ورغم كل ذلك الأمان المادى والوظيفى خاطر «سعد زغلول» بالاشتراك الفعلى فى حوادث ثورة عرابى، وحسب شهادة سكرتيره «الجزيرى» كان سعد من أركانها وذوى

الرأى فيها على حداثة سنه وقلة تجاريبه (تجاربه) وبعد أيام قبض عليه متهماً بأنه عضو فى جمعية سرية تسعى لقلب نظام الحكومة!!

وفى ٢٠ يونيو ١٨٨٣ تم اعتقال «سعد زغلول»، وتقرر الإفراج عنه بعد أن فشلت المحكمة فى أن تجد دليلا واحداً ضده، لكنه بقى معتقلاً هو وزميله حوالى ثلاثة أشهر إلى أن أفرج عنه بالفعل فى أكتوبر ١٨٨٣ .. ظل «سعد زغلول» فى السجن حوالى ١٠٥ أيام وعندما خرج كان عاطلا بلا عمل!!

ويقول «عباس محمود العقاد» فى كتابه سعد زغلول .. سيرة وتحية:

وقد خطر له - أى لسعد - أن يستعيد وظيفته أو وظيفة غيرها فى الحكومة فإذا بهم يسومونه من التزلف والتنكر مالا يطيق، فعدل عن التوظف وقبل أن يحترف المحاماة، وفضل هذه الصناعة على انتظار الوظيفة بالتشفع إلى هذا واستعطاف ذاك..»

ولعل مايثير الدهشة بعد ذلك هو شرح العقاد لطبيعة مهنة المحاماة وقتها فيقول:

«كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من لا يحسب المرافعة إلا مجالاً للبذاء وطول اللسان، ومن لا يحسب النجاح فى القضايا إلا ضرباً من الاحتيال والشطارة يغش به القاضى ، ويغش به الخصم، ويغش به الموكل، ويعتمد فيه على الكذب والمراوغة والاختلاس، ولم تكن للمحامى منزلة فى نظر القضاء ولا فى نظر العلية ولا السواد، وكان كل رجل «مستور» الحالة يأنف من معاملته فضلا عن مزاملته ومصاهرته وكان اسم المحامى مساوياً لاسم المزور!!»

وفيما بعد اعترف «سعد زغلول» قائلا:

«إننى اشتغلت بالمحاماة متنكراً عن أهلى وأصحابى، وكلما سألنى سائل: هل صرت محاميا؟! أقول معاذ الله أن أكون كقوم خاسرين!! وجملة القول أننى كنت أجتهد أن لا يعرفنى إلا أرباب القضايا وإن كنت أجهل ماذا تكون العاقبة؟!»

لكن نزاهة وشجاعة وجرأة سعد زغلول هى التى جعلت لحرفة المحاماة مكانة هامة ومتميزة، وهذا ما دعا سعد زغلول إلى الاعتراف بهذه الحكاية المثيرة فيقول: «إن استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم .. أذكر أننى كنت فى مكتبى أيام المحاماة، وإذا بسيدة فى زى نساء البيوتات تدخل المكتب وتحيينى تحية الأدب والاحتشام، فأشرت إليها بالجلوس والتفت إليها بعد أن فرغت من عمل الحاضرين أسألها: من السيدة التى شرفتنى بهذه الزيارة؟!

قالت: محسوبتك .. ع. إسكندر اسم امرأة من صواحب البيوت المريبة المشهورة فى ذلك الحين، فما سمعت الاسم حتى ثارت ثائرتى وعجبت للوكيل كيف سمح لها بالدخول وكيف اختارتنى هى لقضيتها أو للمسألة التى قصدتنى لأجلها.

وخاطبتها بكلام قارص لم أرع فيه حق الأنوثة! فلم تحر جواباً وتركتني أقول ما أريد حتى إذا هدأت ثائرتي وسكت قالت لي: أتسمح لي بكلمة!!

قلت: تفضلي!!

قالت: إن الناس إذا رأوني عندك في قضية كان هذا شهادة لك لا عليك! إذ لو كنت أنت من معارفي لما صدقوا أنني أثق بك وأئتمنك على المصالح، ولولا أنك مستقيم لما جئتك اليوم، وإلا فإن زواري المحامين كثيرون، ولم أفكر في واحد منهم لأنني أعرفهم، وفكرت فيك لأنني لا أعرفك ولا أراك فيمن أراهم كل يوم».

وكان تعليق «سعد زغلول» للعقاد هو:

ـ سمعت كلاماً أريباً ولباقة معجبة، وسرتني هذه الشهادة بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة!!

وهكذا طارت سُمعة وشهرة سعد زغلول حتى وصلت إلى كبراء وعظماء مصر!!

كانت «صفية» تتأهب لاستقبال عامها الخامس عشر عندما أصبح والدها «مصطفى فهمي باشا» رئيسا للنظار!!

كان يحكم مصر «الخديو محمد توفيق»، وكان الإنجليز يحكمون الخديو!!

كان حاكم مصر الفعلي هو اللورد كرومر.. وهو صاحب قرار تعيين «مصطفى فهمي» باشا رئيسا للنظار.

كان «رياض باشا» رئيس النظار قد قدم استقالته للخديو في ١٢ مايو ١٨٩١ تحت حجة: «اعتلال صحتي قد وصلت إلى درجة حتى صرت لا أستطيع القيام بمهام المأمورية المهمة التي أنا مكلف بها من قبل ذاتكم الكريمة، ولهذا الداعي أتقدم لأعتابكم السنية ملتمساً مع غاية الأسف من تعطفاتكم الجليلة إقالتي، وأنا على كل حال خادمكم المطيع..»

ولم يكن ذلك هو السبب الحقيقي لطلب الاستقالة، بل كان إحساسه بالندم الشديد بعد إذعانه لإرادة الإنجليز في تعيين الإنجليزي «مستر سكوت» مستشاراً قضائياً!! ولم يغفر الإنجليز له هذا الموقف، وكان لابد من العثور على رئيس نظار جديد أكثر مرونة وليناً من رياض باشا، ولم يكن هناك أفضل من «مصطفى فهمي باشا» قال عنه اللورد «ألفريد ملنر»: إن اختيار اللورد كرومر.. قد وقع على «مصطفى فهمي» باشا الوزير الذي كانت تنشده إنجلترا!!

وقال عنه المسيو «جول كوشري»: «كان مصطفى فهمي عديم الذكاء، معقود النشاط، وكان أشأم الوزراء الذين عرفتهم مصر».

وحسب تحليل د. يونان لبيب رزق فإن « مصطفى فهمي ظل رجل الجميع لأنه كان يجيد تنفيذ الأوامر أكثر مما يجيد إصدارها، ثم إنه من ناحية أخرى كان يهرب من

المواقف التى تستلزم مساندة أحد أطراف السلطة، فهو مثلا بالرغم من اشتراكه فى نظارات الثورة العرابية إلا أنه عندما تعقدت الأمور ترك البلاد بدعوى سوء صحته، وسافر إلى أوروبا ولم يعد منها إلا بعد أن هدأت الأمور.»

ولا شك أن المحتلين قد اختاروا الرجل لهذه الصفات التى تميز بها. ويصف لورد ملنر هذا الاختيار بقوله : «إن تولى «مصطفى باشا» للسلطة أصاب طبيعة الحكومة المصرية بتغيير كبير. فهو أول رؤساء النظار المصريين المتعاطفين مع الإنجليز بلا تحفظ ذلك أنه مقتنع تماما بأن مصر تحتاج إلى الارتكان إلى دولة كبرى وأنه ليس مثل إنجلترا فى هذا» لكن فى تقدير د. لويس عوض فإن مصطفى فهمى كان مدرسة فى الوطنية المغلوبة على أمرها والتى أدركت فى مرحلة الاحتلال البريطانى أن مصر للمصريين أمل قادم وليست أملا حاضراً وأنه لاخيار فى الحاضر إلا بين مصر للإنجليز أو مصر للعثمانيين، وأنه لا مفاضلة وقتئذ إلا بين الاستعمار المتقدم المستنير والاستعمار المتخلف الجاهل!!

كانت نظارة «مصطفى فهمى باشا» هى النظارة رقم ١٣ فى تاريخ النظارات المصرية منذ تشكلت أول نظارة برئاسة «نوبار» باشا فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨.

وهكذا صدر فى ١٤ مايو ١٨٩١ منطوق الأمر العالى إلى عطوفتلو مصطفى فهمى باشا وجاء فيه: «إنه بناء على مارأيناه فى عطوفتكم من الدراية والأهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا لعهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا، وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة. وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم فى الأعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها..!» «محمد توفيق» وكانت إجابة مصطفى فهمى باشا على منطوق الأمر العالى الذى أصدره الخديو توفيق هى: مولاى.. قد تفضل جنابكم العالى علىّ بأن أحال لعهدتى رئاسة مجلس النظار، وكلفنى بتشكيل هيئة نظار جديدة، فأرفع إلى مقامكم السامى واجب الشكر والامتنان على تجديد الثقة بى من مولاى وأن أقصى مرامى هو إجابة مولاى إلى هذه الدعوة التى كان باعثها الوثوق بى والاشتراك بجميع ما يصل إليه إمكانى مع رفقائى فى السير على القواعد التى جعلها مولاى أساساً لحكومته .. وعلى هذا أتشرف بأن أرفع إلى مقام مولاى أسماء من تشكل منهم هيئة النظارة الجديدة. مصطفى فهمى. وهكذا بدأ «مصطفى فهمى» باشا رحلته ومشواره السياسى الذى طال لسنوات وسنوات.. وعقب تشكيل وزارته استأذن صاحب العطوفة مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية من لدن الجناب العالى فى السفر إلى أوربا لمدة ثلاثة شهور!! وأول المدة لهذه الرخصة يوم ٢١ يوليو سنة ١٨٩١. وفجأة!! أصيب الخديو توفيق باشا بالحمى الوافدة (الأنفلونزا) يوم الجمعة أول يناير

١٨٩٢ فعالجه طبيبه الخاص الدكتور سالم باشا سالم.و.. وتوفى مساء الخميس ٧ يناير ١٨٩٢ بعد فترة حكم وصلت إلى ١٢ سنة و١١ شهراً.

كان عباس الثانى هو الابن البكر للخديو توفيق يتلقى العلم فى العاصمة النمساوية فيينا عندما مات والده الخديوى، وسرعان ما أصبح عباس الثانى خديوى مصر خلفاً لوالده .. وفى مذكراته التى صدرت فيما بعد كتب الخديو قائلا:

«لقد قررت دون تردد أن أعيد تشكيل وزارتى، ولم أكن أرغب فى الاحتفاظ بـ مصطفى فهمى الذى كانت تنازلاته تجاه انجلترا تشبه ضعفه كثيراً.. ولم يكن من أصل مصرى، وكان أسلافه قد أتوا من كريت .. ولكن مصطفى فهمى رفض أن يستقيل، ونصح مندوبى باستشارة لورد كرومر أولاً».

ولم يكن رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا هو الوحيد الذى تحدى الخديو عباس حلمى الثانى!! بل كانت هناك امرأة شابة ومتمردة وثائرة غاضبة وحانقة وكارهة للخديوى هى الأميرة «نازلى فاضل»!!

كانت الأميرة «نازلى فاضل» هى ابنة «مصطفى فاضل باشا» نجل «إبراهيم باشا ابن محمد على» والى مصر، وكان والدها شقيق الخديو إسماعيل ـ يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من إسماعيل، لذلك ظل هو وأولاده فى حالة عداء مستمر للخديو إسماعيل وكل من أتوا بعده!!

كانت نازلى فاضل شابة مثقفة ، مستنيرة وصاحبة أول صالون أدبى وفكرى وسياسى يلتقى فيه الرجال يتبادلون الحوار والأفكار فى حرية كاملة!

كان من نجوم صالون الأميرة «نازلى»: الشيخ «محمد عبده» و«قاسم أمين» ولورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر.. والشاب المحامى اللامع «سعد زغلول»!

كانت شهرة سعد زغلول واستقامته ونزاهته كمحام قد وصلت إلى الأميرة «نازلى» فاختارته وكيلا لأعمالها!!

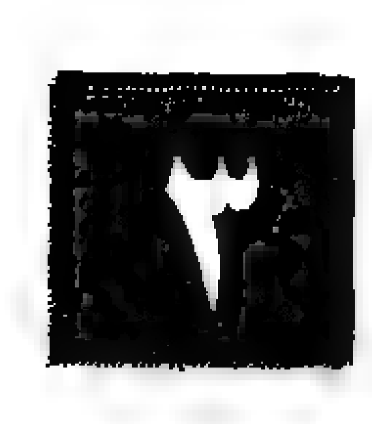
ويقول د. لويس عوض: «فى صالون الأميرة نازلى فاضل كانت تجتمع بانتظام مدرسة الإصلاح: محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين إلخ. وكانوا يلتقون عندها باللورد كرومر والسير رونالد ستورز والجنرال كيتشنر إلخ، وبتوجيه الأميرة نازلى فاضل تعلم الشيخ محمد عبده اللغة الفرنسية وهو فى سن الرابعة والأربعين، كما تعلم المحامى الأزهرى «سعد زغلول» اللغة الفرنسية ليخرج بها محاميا عصرياً، وقد كانت الأميرة من أكبر أنصار العرابيين أيام الثورة العرابية». وهنا تبدأ حكاية «سعد» مع «نازلى»!

وإلى الفصل القادم



شائعة زواج سرى لسعد زغلول !

- ☐ سر هجوم «صفية» على الأميرة نازلى فاضل !
- ☐ سعد يعترف: قاسم أمين كان وراء زواجى !
- ☐ سعد لصفية: فاتنا النسل فأصبحت كل الأمة أبناءك وأبنائى !
- ☐ صفية تعترف: سعد منعنى من وضع البودرة منذ زواجنا !!



كانت المرة الأولى وربما الأخيرة التى فوجىء فيها سعد زغلول بمشهد زوجته صفية.. (أم المصريين) وهى تصرخ وتغضب وتنفعل وتثور ويعلو صوتها بهذه الدرجة!!

نعم.. كانت صفية ثائرة وهائجة، ومنفعلة، وغاضبة وهى تصيح فى وجه زوجها سعد زغلول قائلة:

إنهم يزيفون التاريخ وأنا على قيد الحياة؟ فماذا سيفعلون ويقولون بعد أن أموت!!

اندهش سعد زغلول وربما انزعج، وفوجىء بصفية تقول له من وسط ثورتها:

- خذ واقرأ ماهو مكتوب!!

وسط الدهشة البالغة أمسك سعد زغلول بالصحيفة وراحت عيناه تجريان فوق الكلمات والسطور حتى استقرتا على مقال جاء فيه بالحرف الواحد: إن الفضل فى زواج سعد وصفية يعود إلى الأميرة نازلى فهى التى توسطت فى هذا الزواج وشجعته وباركته وأقنعت مصطفى فهمى باشا رئيس وزراء مصر بأن يزوج صغرى بناته للقاضى الشاب الفلاح سعد زغلول!!

انتهى سعد زغلول من قراءة السطور السابقة، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة واصلت صفية زغلول كلامها بحدة وغضب وعنف قائلة:

- إن الأميرة نازلى وقفت عقبة ضد زواجى، لقد لجأت إلى اللورد كرومر طالبة أن يتدخل لمنع الزواج، بل ذهبت إلى الخديو (عباس حلمى الثانى) لنفس الغرض، وذهبت إلى أبى وقالت له إن سعد زغلول متزوج من سيدة أخرى يخفيها فى بلدته «إبيانة»، بل وأرسلت إحدى كلفواتها - أى جواريها - لتبلغ أمى أن العريس فلاح لا يعرف كيف يأكل بالشوكة والسكين!! وعندما فشلت فى كل محاولاتها هددت بالانتحار إذا تم هذا الزواج، كل هذا لأنها أرادت أن تتزوج هى من سعد فكيف يقال اليوم إنها هى التى شجعت وباركت زواجى من سعد؟!

وابتسم سعد زغلول ولم ينطق بكلمة وكأنه أحس حسب تعبير مصطفى أمين - أن زوجته لاتزال تغار عليه من قصة حب جرت منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة!!

نعم.. كانت الأميرة نازلى فاضل، نقطة خلاف بين سعد زغلول وزوجته!!

كان سعد زغلول يحترم الأميرة نازلى فاضل!!

وكانت صفية زغلول تكرهها من أعماق قلبها!!

وفى كل الحالات كانت الأميرة نازلى فاضل سؤالاً غامضاً بلا إجابة!! ولغزاً يستعصى على الفهم!!

والسؤال الآن : ماسر احترام سعد زغلول لها؟! ولماذا كراهية أم المصريين لها؟!

تعددت الأسباب ولنحاول العودة إلى البدايات.. بدايات الحكاية!!

فى البداية نتساءل : من هى «نازلى فاضل»؟! وماهى حكايتها؟!

كان والدها هو الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل (من والدته) وكان يرى أنه أحق بعرش مصر من شقيقه إسماعيل، ولهذا كرهت كل أعضاء الأسرة المالكة.

يقول الزعيم الوطنى «محمد فريد» فى شهادته عنها:

«كانت من أنصار الإنجليز وعشاقهم وكانت تجاهر بذلك ، تربت تربية أوروبية ثم تزوجت بـ خليل شريف باشا أخى على باشا شريف سفير الدولة العلية بباريس، ولما توفى عادت لمصر وبقيت مدة بلا زواج ، صاحبت فى أثنائها الكثيرين من الإفرنج والمصريين!! كانت لها صلة بالمرحوم الشيخ محمد عبده وجماعته وسعد زغلول وقاسم أمين وعفيفى باشا وغيرهم.

وكان سعد زغلول له صداقة متينة بالأميرة نازلى هانم المشهورة. وبسبب هذه الصداقة ومساعى الأميرة لدى كرومر عين سعد بك وقتها مستشاراً فى الاستئناف وهى حادثة لم يسبقها ولم يعقبها مثلها.

ويضيف د. عبد الخالق لاشين «ويبدو أن علاقة سعد زغلول بصالون هذه الأميرة قد توثقت عقب عودة الشيخ محمد عبده من بيروت وتردده عليها مع «بلنت» إن لم يكن قبل ذلك حيث إن سعداً كان قد تعين وكيلاً - محامياً - لأعمال الأميرة. ومن خلال هذا الصالون التقى سعد بـ إفلن بيرنج - اللورد كرومر فيما بعد - للمرة الأولى ولم تقتصد ساعتها الأميرة نازلى فى عبارات الإطراء التى ذكرتها عن سعد.» تستحق شهادة الكاتب الكبير عباس محمود العقاد فى هذا الصدد القراءة الهادئة المتأنية.. جاءت شهادة العقاد قبل أقل من عشر سنوات من وفاة سعد زغلول.

وتحت عنوان «سعد فى بيته» كتب العقاد يقول:

فى ديسمبر ١٨٩٥ خطب سعد شريكة حياته السيدة الجليلة أم المصريين صفية زغلول كريمة المرحوم مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الحين، وفى شهر فبراير من السنة التالية احتفل بزواجه، إذ كان يومئذ فى السادسة والثلاثين.

والسادسة والثلاثون ليست بالسن المبكرة للزواج بين المصريين ، فقد جرت العادة - ولا سيما في تلك الأيام - أن يفكر الآباء في تزويج أبنائهم وهم دون العشرين أو في العشرين على أقصى تقدير، ولكن سعداً لم يكن ينظر إلى الحياة نظرة الفتيان الذين يعيشون معيشتهم الدارجة من الدراسة إلى الزواج إلى التجارة أو الوظيفة على نظام رتيب لا يطرأ عليه تبديل ولا تغيير.

بل كان فتى يتطلع إلى المجد والمستقبل من بداية حياته، وكان رجلا له رأى في المرأة وفيما ينبغي أن تكون عليه شريكة الحياة. يخالف رأى السواد الغالب في تلك الأوقات وفي جميع الأوقات، وحسبه من ذلك أنه هو الذى أعان «قاسم أمين» زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه «تحرير المرأة» وتشجيعه على احتمال مالقى في سبيله من سخط وعناء.

وكان فضلا عن ذلك يتيما يتصرف في أمر زواجه كما يشاء هو لا كما يشاء الآباء والأهلون. ولو عاش أبوه حتى بلغ سن الزواج في القرى لجاز أن يختلف تاريخ حياته من هذه الناحية بعض الاختلاف، ولكنه تُرك لنفسه في هذا الأمر فأصبح في حِل من اختيار الزمن واختيار القرينة كما يريد، وأصبح في حل من الانتظار إلى أن يدرك الشأن الذى يتيح له أن يتطلع إلى قرينة توافقه في العقل والخلق وتجاريه في مضمار الحياة.

وقد كان فوق ذلك تلميذاً للسيد جمال الدين الأفغاني الذى عاش عيشة المتبتلين واستطاب حياة الانفراد والجهاد، فلم يكن غريبا عنده أن يبقى الرجل إلى الثلاثين أو ما بعد الثلاثين بغير زواج.

وكانت السيدة قرينته في الثامنة عشرة حين بنى بها ، أى في السن المألوفة لزواج البنات بين الأسر التركية والبيوت المهذبة إلى الآن. وكان هذا الزواج من أسعد توفيقاته في جميع أدوار حياته، لأنه وفق فيه إلى قرينة هي نعم القرينة للرجل العظيم.

كانت في سن بنته فتعلمت ما تتعلمه البنات من الآباء، وأطاعته طاعة الصغير للكبير الموقر المحبوب، ولكنها عاشت معه حتى رئمته وتكفلت به تكفل الأمهات بالبنين الذين هم في حاجة العطف والحنان.»

ويؤكد شيخ الصحفيين «حافظ محمود»:

«كان زواج الشيخ سعد الله زغلول المحامي في أواخر القرن التاسع عشر من ابنة رئيس الوزراء شيئاً جديداً على المجتمع، لكن هذا التجديد الاجتماعي كان أثراً من آثار الصالون الأدبي للأميرة ناظلي فاضل حيث كان يشترك في هذا الصالون كل قادة الفكر في ذلك العصر، ومنهم المحامي سعد زغلول.

كان سعد زغلول شابا عبقرياً لامعاً يجتذب حديثه السامعين فضلا عن قسمات وجهه المهيبة، ولمعة الذكاء التى تضفى شيئاً من الحلاوة على ضيق عينيه، وتحت تأثير هذه الصفات المعنوية والمادية تدخلت الأميرة ناظلى فاضل، لتخطب صفية بنت رئيس الوزراء لسعد زغلول المحامى اللامع الذى أهلته هذه اللمعة بالإضافة إلى هذا النسب لأن يغدو مستشاراً فى المحاكم الأهلية ثم وزيراً ثم وكيلا منتخباً من الشعب للجمعية التشريعية».

وإذا كان مصطفى أمين يؤكد على أن هذه الأميرة أحبته ولهثت فى حبه، وحاولت عبثاً أن تتزوجه!! فإن الزعيم محمد فريد يؤكد أنه كان من نتيجة ارتياد سعد لهذا الصالون - صالون نازلى - أن أطلقت الشائعات بأن سعدا الذى تعين وكيلا - محاميا - للأميرة وأصبح عائشا معها بصفة غير شرعية وربما تزوج بها قريبا، قد تم تعيينه بوظيفة نائب قاض فى ٢٧ يونيو ١٨٩٢ بمرتب أربعين جنيها شهرياً.

ولم ينكر سعد زغلول اعترافه بصداقته وتردده على صالون الأميرة نازلى فاضل!

وفى مذكرات ١٦ يوليو ١٩٠٩ كتب سعد زغلول يقول:

«قضيت سهرة أمس عند الأميرة نازلى فى فيلا هنرى بشارع لاكامبانى ، وكانت هناك امرأة عرافة، أخذت تتفوه بأشياء سخيفة ومبهمة ولا معنى لها. ولكن الأميرة كانت تريد تصديقها، وتفسير كل ما تقوله من حماقات، الأمر الذى أصابنى بالضيق واستمر عندى هذا الإحساس بالضيق بعض الوقت بعد أن استأذنت فى الانصراف.»

ويعترف «العقاد» فى كتابه الهام «سعد زغلول سيرة وتحية» بأن هذا الزواج قد وقع موقع الاستغراب عند كثيرين، فزعموا أنه لم يكن ليوفق هذا التوفيق لولا وساطة الأميرة نازلى فاضل صديقة سعد وصاحبة المنزلة الرفيعة عند الساسة المثقفين.

لكن الحقيقة التى سمعناها من الثقاة - يؤكد العقاد - أن الأميرة لم تكن ترتاح إلى هذا الزواج ولم تساعد على إتمامه، بل لعلها ساعدت على نقضه وإرجائه!

وإنما كان قاسم أمين صديق سعد هو هاديه إلى هذا التوفيق، لما كان يعلم من شروط سعد فى الزوجة الصالحة كلما تحدثا فى شأن المرأة والزواج، وكثيراً ما كانا يتحدثان فى هذا الموضوع.

وقد سئل سعد مرة - كما سمعت - فى حقيقة مايروى عن وساطة الأميرة نازلى فى زواجه بالسيدة صفية فابتسم وقال:

- لا. لم تكن الأميرة رحمها الله هى صاحبة هذا الفضل ولكنه كان قاسم أمين!!

ثم قال سعد زغلول بعد صمت يسير:

تلك أكبر مأثرة أذكرها لـ قاسم مدى الحياة!!

أما عن شائعة زواج سعد زغلول فى شبابه زواجا سرياً غير معلوم فيقول عنه العقاد بالحرف الواحد:

«ولم يرُق زواج سعد بـ صفية كثيرين من «عزال» الزواج الملازمين لكل بيئة شرقية إلى هذه الأيام، فلا يكاد يشرع فى زواج حتى تكثر الأقاويل من هنا وهناك عن الزوج والزوجة وعن الأصهار والآباء، فأشاعوا فيما أشاعوا أن سعداً تزوج فى شبابه من إحدى بنات بلده وأن له منها ذرية على قيد الحياة!!

وساعد على رواج هذه الإشاعة كبر سنه عن السن المألوفة لزواج الموسرين من أبناء الفلاحين، ولكنها إشاعة سمعتُ ماينفيها نفياً قاطعاً ولم أسمع مايؤيدها من أحد يعول له على كلام!

وسألت (أى العقاد) العالم الفاضل المرحوم الشيخ محمد زيك بك الإبيانى فيها فاستبعدها جداً وقال:

ـ إنى أعتقد أنها غير صحيحة، ويؤكد اعتقادى أن (إبيانة) قائمة على أسر ثلاث هى أسرة (الزغاللة) وأسرة (زيد) وأسرة (حسام الدين) فلو تزوج من بلدته لتزوج من إحدى هذه الأسر ولاشتهر ذلك. وبعيد جداً أن يتزوج من فتاة من المجهولات الأنساب لأنه كان عاراً شديداً بين أبناء الريف، وقد كان سعد شغوفاً بتحصيل دروسه حتى فى أجازات الصيف، فغير بعيد أن يتحصن طويلاً أيام الشباب.»

لم يكن فى حياة سعد زغلول سوى حب واحد هو حبه لـ صفية زوجته!!

ولم يضبط أحد سعد زغلول مشغولا بامرأة أخرى.

لكن سعد زغلول مثل غيره من الرجال عاش أزمة منتصف العمر، كانت قد ولت أيام الشباب ويستعد لاستقبال الخريف بكل تداعياته النفسية والجسدية!! كان سعد فى منتصف الخمسينيات عندما سجل هذا الاعتراف الخطير فى مذكراته وكان بتاريخ ٣١ يوليو ١٩١٥ وفيه يقول:

«لا يشغل فكرى منذ شهر مايؤلم، ولا يرد على خاطرى مايزعج، ولا يتعاقب على نفسى مايقلقها من الشعور والإحساس، ولكنى مشغول بغير ما كنت مشغولاً به وهو الميل إلى محادثة النساء!! ومغازلتهن!! وكلما نظرت إلى مليحة تأثرت بملاحتها، وملكنى شىء من الميل إليها!!

وكلما خلوت بنفسى رأيتها لا تشعر إلا بهذه الشهوة».

ثم يتساءل سعد فى النهاية بقلق:

«أفهذه عرض من الأعراض؟! أو مرض من الأمراض؟! أو حال من أحوال الشيخوخة؟! لا أدرى!! ولكن يلزم معرفته. »

وفى ١٧ ديسمبر ١٩١٦ يعترف سعد زغلول قائلا:

«إذا خلوت بامرأة، اجتمعت عليّ وقت الخلوة بها جميع التصورات التى تخوفنى من القرب منها، وتكدر صفوى بها، وإذا جلست إلى محرّم آخر، أتممته، وقلبى غير مستريح، وضميرى يخزنى وخزات تقلل من سرورى بإتمامه. وهكذا أرى نفسى قبيحا جداً فى ثوب المحرمات، وأراها مليحة جداً فى ثوب الطيبات، فلا بارك الله فى المنكرات، وحيا الله الصالحات».

وربما تذكر سعد زغلول عندما راودته هذه المشاعر الخاصة ما سبق أن كتبه قبل عامين، عندما قال فى مذكراته بتاريخ ١١ يوليو ١٩١٥ مايلى:

حدثنى أحد الأصدقاء، بأنه هام زمن الصبا بفتاة كانت تسكن معه فى بيت، فأخذ يغازلها حتى استمالها إليه، ولكنه عندما أراد وصالها خطر فى باله، وهو يعانقها، الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، فاسترخى وندم، ولم يفعل ـ من ذلك الوقت ـ شيئاً يغضب الله».

ويعلق سعد زغلول على ذلك بقوله:

«ومن هذه الحكاية يُستدل على أن الإيمان بالله ينهى عن الفسق والمنكر ويقيهم من الفجور».

وفى حياة سعد زغلول حادثة مثيرة بطلتها ابنة أحد أصدقائه الذين توفوا قبل فترة، هذه الحادثة على غرابتها وإثارتها حرص سعد على تسجيلها فى مذكراته.

الحادثة بكلماتها وتفاصيلها تستحق القراءة الهادئة وربما ساهمت فى إلقاء بعض الضوء على سلوك سعد زغلول الذى كان قد مضى على زواجه من صفية وقت وقوع الحادثة حوالى ١٢ سنة.

فى مذكرات ٢٤ أغسطس سنة ١٩١٦ قال سعد زغلول:

«ألحت عليّ ـ كتابة ـ بنت صديق لى توفى من زمان أن أراها لتبث شكواها، فلبيت نداءها وذهبت إليها(!)

فرأيت فتاة فى العشرين من العمر، سمينة، ذات عيون سوداء واسعة، ورموش طوال، وقد عرّت صدرها ولبست شبشب فى رجلها، وجلست بجانبى من غير حياء ولا احتشام(!!!)

ومكثت لديها هنيهة ثم انصرفت .. فألحت ثانية، وثالثة! فذهبت إليها اليوم، وما كانت تنتظر قدومى، فرأيتها وقد صبغت خدودها بالأحمر، وكذلك شفتيها ، واكتحلت بالسواد ولبست شيئاً من الحلى يتدلى على خديها كالنوائب، فقرفت من رؤيتها وحزنت حزناً شديداً..

وجاءت أختها الأصغر منها فرأيتها أقل منها تبهرجاً وقد كنت قلت لها: أظنك تريدين الخروج؟! قالت: لا ولكن خاطباً من طنطا فى الجمعية التشريعية أرسل يقول: إذا كانت تقبل أن أتزوج بها فإنى حاضر. فقلت ما اسمه؟!! قالت: لم يقل، وأبى إظهاره إلا بعد القبول ! قلت: هذا شىء غير معقول ! كيف يقبل فى الزواج من هو مجهول الاسم الذاتى ولا يعرف بحال من الأحوال؟! هكذا أراد ، وقد تهيأت للقاء أولئك القادمين من عنده. ويعلق سعد زغلول قائلاً: لا أدرى فإن الدهشة من حالتها حالت بينى وبين تفهم مقالتها .. ثم قالت (أى الفتاة) وإنى حيرى ، أسير على غير هدى، ووالدتى تريد الانفصال منا، وتبحث عن بيت، فهل تعرف لنا من منزل؟! قلت: هذا ليس شغلى! قالت: وهل لا تريد أن تضمن والدتى فى مبلغ خمسين جنيهاً ؟! قلت: لا يمكننى!!

وكانت أجوبتى جافة خالية من اللين، وبعد ذلك حضرت أختها، فسألتها عما إذا كانت دخلت المدارس؟! قالت: إنها كانت فى ـ الميرديو ـ من زمان ثم خرجت.

وانصرفت متأسفا على هذه العائلة، وأنا أردد بالفرنسية: هذا قرف !! هذا يقرفنى! وقد استعذت بالله من الزمان وشره، ومن تقلبات الأحوال.»

ويقول كريم خليل ثابت فى كتابه سعد فى حياته الخاصة (صدر عام ١٩٢٩):

كانت أم المصريين تبذل جهدها لإرضائه وإراحته (أى سعد) منذ اليوم الأول لزواجهما، ومما روته فى هذا الصدد بعد وفاة فقيدها بأربعة أيام لمن كان يحيط بها من المعزيات:

«كان سعد يكره تبرج النساء، وكان يمقت كل سيدة متبرجة، وكان إذا رأى عندى سيدتين إحداهما متبرجة والأخرى غير متبرجة، التفت إلى الثانية وقال لها:

ـ لماذا أكثرت اليوم من البودرة والأحمر على وجهك؟!

فتخجل السيدة الأولى وتقول له:

ـ بل أنا يادولة الباشا إللى مكثرة من البودرة والأحمر!!

ولا تعود إلى التبرج عندما تزورنا مرة أخرى.»

وكان مما قالته صفية زغلول أيضاً:

وكنت ألوم سعد على هذه الصراحة، وأؤكد له أنه بكلامه هذا يؤلم المتبرجات. فكان يجاوبنى:

ـ ولماذا لا تريدين أن أكون صريحاً فيما أعتقده حقاً؟!»

وقالت «صفية» أيضاً:

- وكان «سعد» يكره «البودرة» طول حياته، ومما أذكره أننى لم أضع على وجهى ذرة واحدة من البودرة منذ يوم زفافنا». ولم تغب هذه الواقعة عن قلم عباس محمود العقاد وهو يؤرخ لحياة سعد زغلول وكان قوله:

- «إن من دلائل العظمة فى سعد - ولا شك - أن استحق الحب فى حياته وبعد مماته من هذه النفس الكريمة وهذه الفطنة الألمعية وهذا القلب الكبير، بل استحق الطاعة فيما لا طاعة فيه بين النساء العصريات حتى للزوج المحبوب والأب الموقر، وهو مخالفة الزى الشائع والعرف المصطلح عليه، فإن للزى سلطاناً فوق كل سلطان وللزينة حكماً يصعب نقضه بغير مضاضة واستكراه لأن نقضه لا يفيد ترك الزينة وحسب فهذا خطب يسير وخسار لا يضير، ولكنه يفيد أحياناً معنى التعرض للزوجة فى خصائص أمرها والمشاركة لها فى منظرها وملامح وجهها، وهو شىء إذا فهمته الزوجة على هذا المعنى فسرعان ما تنكره وتتمرد عليه، ومع هذا كانت السيدة «صفية» تعلم أن سعداً لا يرضى عن المساحيق التى كانت ولا تزال شائعة بين السيدات فأخذت نفسها باجتناب هذه المساحيق طوال الحياة، ولم تبال أن تظهر بغيرها بين صديقات وقريبات كلهن يجارين العرف ويلتزمن شعائر الأزياء». ويقول مصطفى أمين: إن سعد زغلول كان يكره البودرة ويحب الوجه الطبيعى بلا طلاء!!

□□

ومضت السنوات ولم يرزق سعد زغلول نعمة الذرية - وفى تفسير العقاد لذلك الأمر - فكأنما هذا الحرمان يزيد عطف الزوجين كل منهما إلى الآخر ولا ينقص منه ولا يكدره بأسف ظاهر ولا شجن دخيل، فليس بين الأزواج المتعين بالأبناء والأحفاد من كان يحب زوجه أكثر من حب سعد لـ صفية أو من كانت تحب زوجها أكثر من حب «صفية لـ سعد»!

ولحدبه عليها وحرصه على سلامتها آثر السفر إلى أوروبا فى الصيف الذى مات فيه محمد عبده رحمه الله، مع ولائه الشديد لذلك الصديق العظيم والأستاذ الكريم، ووفائه المعروف لخاصة الصحب والإخوان، لأن السيدة «صفية» كانت ذلك العام على حالة من المرض لا يؤمن فيها الإهمال ولا غنى فيها عن العناية والعلاج.

ولم يسمع عن سعد أنه كان يذكر الحرمان من البنين أمام أهله أو شريكة حياته، وإذا ذكره لها فإنما يذكره فى معرض التهوين والمواساة فكان يقول لها:

- «لقد فاتنا النسل فأصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائى.. ونعم العوض الذى عوضنا الله».

ولدقة الحس فى نفسه من هذه الناحية كان يؤثر أن لا يمسها بكلام أو إشارة على مسمع من الأزواج المحرومين!

رأى ـ سعد ـ يوماً إحدى قريباته تشترى تذكرة بريد عليها صورة طفل جميل فقال لها:

ـ ما عساك أن تصنعى بها؟!

قالت: أرسلها إلى فلانة وأتمنى لها أن يرزقها الله طفلا مثله فى صباحته وجماله!

قال: «وهل هناك ما يدعو الآن إلى ذلك الأمل؟ إن كان فابعثى بها وإلا فخير أن لا تثيرى فى قلبها هذه الذكرى، فلعلها لا تظفر بالولد فتنقلب إلى حسرة وشقاء.»

كانت «الأمومة» هى الحلم المستحيل فى حياة «صفية زغلول»!!

وكان نفس هذا الحلم يراود «سعد زغلول» وكان يتمنى من أعماق قلبه أن ينجب «ولداً.» لقد كان فى نهاية الأمر رجلا شرقياً وفلاحاً يدرك قيمة ومعنى «الولد» والعزوة!!

لكن سعد زغلول كان يدرك ـ وكذلك صفية ـ أن هذا الحلم لن يتحقق أبداً!!

تأكد «سعد زغلول» من استحالة تحقيق هذا الحلم بعد ما زار مع زوجته صفية عواصم أوروبا وعرضها على عدد كبير من الأطباء فأجمعوا كلهم على أنها لن تنجب!! لا اليوم ولا غداً!!

ورغم هذا التأكيد القاطع من الأطباء، فلم تفقد «صفية زغلول» أبداً قدرتها على تحقيق هذا الحلم!!

لكن الأقدار شاءت أن تحرم صفية من أن تصبح أماً فى الطبيعة، لكنها سرعان ما أصبحت «أم المصريين»!!

ولعل ما كان يخفف هذا النقص فى حياة «سعد» و«صفية» هو وجود الطفلين سعد ورتيبة.. معهما!!

كان سعد ورتيبة .. هما ابنى «ستهم» شقيقة سعد زغلول الوحيدة!!

وعندما ماتت الأم «ستهم» كانت رتيبة لا تزال فى الثالثة من عمرها، وسعد فى عامه الأول ، وتولت والدة «سعد زغلول» تربية الطفلين.

ويقول الكاتب الكبير «مصطفى أمين»: عاشت البنت اليتيمة فى كنف جدتها، تسير فى ذيلها أينما سارت، تتعلق بثوبها وكانت مريم تبادلها هذا الحب فكانت تصر على أن تنام رتيبة وسعد معها فى سريرها.

وبنى المستشار «سعد زغلول» بيتاً له فى حى الظاهر بالقاهرة، وطلب سعد من أمه أن تجىء وتقيم معه فى القاهرة ولم يكن قد تزوج بعد، فجاءت مريم ومعها حفيداها رتيبة وسعد .

وكان «سعد زغلول» يحرص على أن يتناول غداءه مع أمه كل يوم، وفي كثير من الأحيان كان يتأخر عن موعد الغداء، فتنتظر أمه حتى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر ويصر الطفلان اليتيمان على أن يبقيا بلا غداء حتى يأكلا مع خالهما سعد زغلول.

وارتبط «سعد» بهما. وكان في وقت فراغه يعلمهما القراءة والكتابة، وكانت مريم تعلم رتيبة الطهي وخاصة طاجن الفراخ بالأرز، وهو صنف كان «سعد» يفضله كثيراً، وكان يطلب من أمه أن تصنع له بيدها هذا الطاجن الذي أحبه وهو طفل في القرية قبل أن يجيء إلى القاهرة ويدرس في الأزهر!

ورفض سعد أن يتزوج إلى أن بلغ الخامسة والثلاثين، وعندما خطب صفية ابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء قال له إنه يشترط شرطاً واحداً وهو أن تقيم معه في نفس البيت أمه «مريم» .ورتيبة وسعد اللذان تبناهما.

ووافق رئيس الوزراء على هذا الشرط، ورحبت «صفية» بأن تقيم في بيت واحد مع حماتها وحفيديها!

وعاشت الأسرة في سعادة غامرة، لكنها لم تستمر طويلا، فقد ماتت السيدة «مريم» وشعرت رتيبة باليتم من جديد، وقال لها «سعد» و«صفية»:

- ستكونين بنتنا، وسيكون سعد الصغير ابننا!! نحن لم نرزق أطفالاً وأنتم أطفالنا منذ اليوم الأول الذي دخلتما فيه هذا البيت. ولم تصدق رتيبة أن من الممكن أن تعوض جدتها التي كانت أماً وأباً في وقت واحد، والتي منحتها من الحب والاهتمام ما جعلها تنسى أنها يتيمة، ولكن سعدا وصفية كانا لها خير أب وخير أم وقد عاشت أغلب أيام عمرها في بيتهما.

ثم قامت مشكلة.. إذا نادت «صفية» ياسعد رد سعد زغلول الكبير، وسعد زغلول الصغير في وقت واحد!!

واستدعى سعد زغلول ابن اخته «سعد زغلول الصغير وقال له:

- عندنا مشكلة عويصة في هذا البيت، إما أن تغير أنت اسمك أو أغير اسمي؟!

وقال سعد مداعبا سعد الصغير:

- أنا الكبير وأنت الصغير، و«سعيد» هو تصغير لاسم «سعد» ولذلك سنغير اسمك ابتداء من اليوم ونسميك «سعيد»!!

وفعلاً تقدم إلى قسم السيدة زينب وطلب تغيير اسم «سعد زغلول» إلى اسم «سعيد زغلول»!!

وفجأة كبرت رتيبة وتوالى عليها الخطاب يودون الزواج منها..

وإلى الفصل القادم..

٤

عريس يطلب ابنة سعد!

- ☐ عريس ابنة سعد (المتبناة) فقير ومحام مبتدئ!
- ☐ سعد زغلول يسأل العريس فى كل شىء إلا المعلومات الشخصية!
- ☐ «صفية زغلول» تتولى شراء جهاز العروس رتيبة!
- ☐ صفية زغلول لزوجها: كيف تعيش ابنتنا فى آخر الدنيا في دمياط؟!
- ☐ سعد زغلول لخطيب رتيبة: ادفع أى مبلغ تستطيعه كمهر!
- ☐ سعد يصف ابنته المتبناة بقوله «رزينة ونبيهة ورقيقة».

٤

استولى القلق على «صفية زغلول»!

لقد مضت حوالى ساعة تقريبا منذ جاء الشاب الذى يجلس معه زوجها سعد زغلول ولا تعرف ماذا جرى بينهما!

كان القلق يحاصرها فى غرفتها، ولن يطرد هذا القلق سوى زوجها «سعد زغلول» عندما يخبرها بما جرى فى مقابلته مع الشاب «أمين يوسف»!

وأخيراً انتهت مقابلة «سعد زغلول» للشاب، وصعد إلى الدور العلوى حيث كانت تنتظره زوجته صفية.. وقبل أن تنطق بحرف واحد قال لها سعد:

– مبروك يا صفية!

ومن فرط المفاجأة والدهشة والفرحة لم تستطع صفية الكلام.. لقد ضاع الكلام من فمها، وتاهت الحروف فوق شفتيها!

وكان أكثر ما يحير «صفية زغلول» فى تلك اللحظة هو كيف وافق هكذا وبسرعة على خطبة ابنتهما المتبناة «رتيبة» من هذا الشاب الصغير!

ولملمت صفية دهشتها وحيرتها وراحت تسأل زوجها:

– وهل عرفت كل شىء عنه يا سعد؟

قال سعد وهو يزن كل كلمة وحرف وبجدية كاملة:

– نعم يا صفية، عرفت أنه ابن الشيخ أمين أبو يوسف أحد قواد الثورة فى دمياط أيام عرابى.

اندهشت صفية من إجابة زوجها، لقد كانت إجابته أشبه بمنشور سياسى. وعادت لتقول له مستفهمة:

– إننى لا أسأل عن أبيه.. لكنى أسأل عنه هو؟!

قال سعد بحسم كعادته فى كل أمور حياته:

– إننى أعرف أباه وهذا يكفى؟!

عادت صفية – التى لم تقنعها إجابات زوجها – تسأل، ربما عرفت المزيد من المعلومات عن هذا الشاب وقالت لسعد:

– وهل وافق على أن يعيش معنا فى البيت؟!

– قال سعد بسرعة: لا.. لم يوافق على ذلك!

وتمالكت صفية دهشتها ووجدت نفسها تسأل:

- وأين ستعيش إذن رتيبة بعد زواجها منه؟!

رد سعد ببساطة وبنفس الحسم:

- أنا الذى وافقت على أن تقيم رتيبة معه فى دمياط!

شهقت صفية وصرخت كمن لدغها عقرب وقالت فى حيرة وأسى:

- فى دمياط! أى فى آخر الدنيا! وكيف تقبل أن تفترق رتيبة عنا!

واندهش سعد لكثرة أسئلة زوجته وأراد أن يحسم المناقشة التى طالت فقال:

- إنه أصر على ذلك!

وعلى ما يبدو فإن صفية لم تكن مرتاحة أو موافقة على كل الردود التى سمعتها من «سعد» ووجدت نفسها تسأله سؤالا بدا غريبا ومفاجئا أيضا:

- وهل له ثروة تجعله يهيئ لرتيبة - ابنتنا - حياة فى مستوى الحياة التى تعيشها معنا الآن؟!

- قال سعد وهو يزن حروف كلماته بميزان من الذهب:

- إنه فقير جدا، فقد أبوه كل ما يملك عندما سجنه الإنجليز ونفوه خارج البلاد!

وعند هذا الحد توقفت «صفية زغلول» عن طرح الأسئلة، وأدركت بحكم معرفتها بـ«سعد زغلول» أنها لن تغير من الأمر شيئا ولن تستطيع مناقشة سعد فى حيثيات قراره، وكل ما فى مقدرتها وإمكانها هى الموافقة ولا شىء غير الموافقة!

وفى غضون أيام قليلة تمت خطبة رتيبة إلى الشاب «أمين يوسف»!

وليس هناك أقدر من الكاتب الكبير الأستاذ «مصطفى أمين» لكى يروى قصة زواج والده أمين يوسف من رتيبة..

فى كتابه «من واحد لعشرة» قال «مصطفى أمين»:

وقفت عربة أجرة، يجرها حصانان هزيلان، ونزل منها شاب فى العشرين من عمره، نحيف القامة، متوسط الطول، على رأسه طربوش أحمر طويل، يملأ وجهه شارب كبير غليظ يحاول جاهدا أن يخفى سنه، ودفع الشاب للحوذى أجره مضاعفا، حتى لا يثير مشاجرة فى هذه اللحظة الرهيبة من حياته، فدعا له الحوذى بالتوفيق وأحس أنه فعلا فى حاجة إلى هذا الدعاء.

واستدار الشاب يتأمل بعينين قلقتين حائرتين البيت الفخم الكبير الذى وقفت العربة أمامه، وقطع فى رهبة المسافة إلى الباب الحديدى الشاهق وخفق قلبه من الخوف وقد أحس أنه يخطو إلى عالم جديد مجهول، وتقدم نحوه الحاج أحمد خادم «سعد زغلول»

الخاص تملأ وجهه ابتسامة كبيرة وأطمأن الشاب قليلا عندما رأى الوجه الطيب والابتسامة الرقيقة، فقد أخرجته الابتسامة من الوحشة التى أحس بها.

وقاده الخادم إلى حديقة البيت دون أن يسأله عن اسمه، وكأنه ينتظره، ويتوقع قدومه ويعرف لماذا جاء! ومضى به يصعد درجات السلم الرخامى إلى المكتب الكبير الخاص بالباشا فى السلاملك. وأشار الحاج أحمد إلى مقعد فى الغرفة الكبيرة فجلس الشاب فيه وتركه الحاج أحمد وخرج وأغلق الباب!

حاول الشاب جاهدا أن يخفى اضطرابه وأن يتمالك أعصابه، وراح ينقل عينيه بين أثاث المكتب والصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران، كأنه يستنجد بها أن تخفف وحشته أو تزيل قلقه واضطرابه، وأخرج الشاب منديله ليمسح عرقه، إنه يعرف أنه سيواجه امتحانا صعبا رهيبا، يختلف عن كل الامتحانات التى اجتازها حتى حصل على شهادة الليسانس من مدرسة الحقوق. وصحيح أن صديقه «طاهر اللوزى» أحد موكليه فى مدينة دمياط هو زوج ابنة شقيقة «صفية زغلول» وهو الذى أخبره بأن لـ«سعد زغلول» ابنة متبناة فى سن الزواج، وصحيح أن «طاهر اللوزى» حذره من أن «سعد زغلول» يستقبل كل من يتقدم لخطبة رتيبة بطريقة تختلف عما اعتاده الناس فى مثل هذه المناسبات.

فبدلا من أن يسأل طالب الزواج الأسئلة العادية التى يسألها آباء العرائس، يحول هذا اللقاء إلى امتحان رهيب، فيوجه إلى طالب الزواج عشرات الأسئلة فى السياسة والأدب والاجتماع، ويثير معه عشرات الموضوعات، تماما كما كان يفعل وهو وزير المعارف مع الشبان الذين كان يستقبلهم ليوفد منهم من يختاره لإرساله فى بعثة إلى الخارج!

وعرف أيضا أن الباشا اكتسب من عمله كمستشار فى محكمة الاستئناف خبرة فى التحقيق، فلا يفرق بين المتهم وطالب الزواج، وتعلم فى الأزهر فن الجدل، وهو يكره الذين يوافقونه على كل رأى، ويمقت الذين يعارضونه فى كل رأى!!

وقال له «طاهر اللوزى» إن كثيرين تقدموا لخطبة رتيبة فكانوا يسقطون دائما فى هذا الامتحان العجيب!

وحسب شهادة «مصطفى أمين» فقد كان «سعد زغلول» يرفض أبناء الباشوات، وهو يرفض أبناء أعيان الريف لأنهم غير متعلمين، ولا يريد أن تعيش رتيبة فى عصر الجاهلية، وهو يرفض أبناء المتعلمين من أبناء الريف لأنهم يقيمون فى الريف. وهو يريد لرتيبة أن تتزوج فى القاهرة وتبقى مع زوجها فى بيته الكبير لأنه لم يرزق بأولاد، ثم هو يرفض الموظفين الذين يقيمون فى القاهرة لأنه يعتبر أن الوظيفة سجن!! وهو يرفض

الشباب صغار السن لأنهم بلا تجربة، ولا يعجبه كبار السن لأنه لا يريد لها أن تعيش أرملة.

وهو لا يتوافر فيه أى شرط من الشروط التى يطلبها الباشا، ولكن روح المغامرة فيه هى التى جعلته يقبل أن يواجه هذا الامتحان الرهيب، ولكنه ما كاد يجلس فى قاعة الامتحان حتى أحس بأن ثقته بنفسه تتخلى عنه، ولولا خوفه من أن يكون الحاج أحمد واقفا أمام الباب لفتح الباب وأطلق ساقيه للريح!!

إنه شاب فقير مات أبوه المحامي وهو لا يزال طالبا فى السنة الأولى بمدرسة الحقوق وكان أبوه أكبر محام فى دمياط، وكان الطالب يعيش فى رغد ولكن بعد أن مات أبوه عرف أن ديون أبيه كانت أكبر منه فلم يجد فى البيت مصاريف الجنازة والمأتم فاقترضها، ثم لم يجد مالا يتم به دراسته فاضطر أن يعطى دروسا خصوصية للتلاميذ ليأكل ولينفق على أمه وليصل إلى شهادة الليسانس!

لقد أقام أثناء دراسته فى بيت أحد أقاربه وأحب ابنة قريبه البيك وأحبته وتقدم إلى البيك والدها يطلب يدها ورفضه لأنه فقير ولا يملك ثروة وأنه محام مبتدئ وفوجئ بالفتاة التى أحبها تلقى بنفسها من النافذة احتجاجا على قرار أهلها، وكادت تقتله الصدمة وقرر أن يعيش طول حياته أعزب يبكى حبه، ولكن أصدقاءه أقنعوه بأن يحاول أن ينسى حبه المذبوح، بزواج جديد كما نصحوه بأن ينظر إلى تحت لأن الذين ينظرون إلى فوق تقطع سيوف الآباء رقابهم، ولكنه أصر على أن يصاهر «سعد زغلول» لكن هل من المعقول أن يرفضه قريبه البيك ويقبله الباشا الذى لا يعرفه!

كانت هذه الأفكار والخواطر تتقاذفه، فلم يشعر بأن «سعد زغلول» فتح باب المكتب ودخل الغرفة إلا عندما رآه أمامه، وقفز الشاب معتذرا، فدعاه سعد إلى الجلوس فى مقعد بجوار المكتب وجلس هو إلى مكتبه. وأحس الشاب بالرهبة، فقد توقع أن «سعد زغلول» سيجلس بجواره فى جلسة عائلية، فإذا به يستقبله كأى وزير يستقبل زائرا وكأن الشاب هو أحد أصحاب الحاجات.

ودار بين «سعد زغلول» والشاب حديث طويل فى السياسة ومجريات الأمور الدائرة، ثم لمعت عينا «سعد زغلول» وارتسمت ابتسامة على شفتيه وقام من مقعده واتجه إلى الشاب ووضع يده على كتفه، ودعاه إلى الجلوس بجواره على أريكة جانبية، وقال: يظهر أن المناقشة ستكون حامية.

واحتدمت المناقشة بين الباشا والشاب الصغير، واستمرت حوالى ساعة، وعندما وصل الحوار إلى ثورة عرابى قال الشاب:

– إن الثورة العرابية فشلت لأنها لم تعرف كيف تنظم الشعب!

واهتز «سعد زغلول» لدى سماعه هذه الكلمة فقد كان أحد المشاركين فيها ودفع ثمن هذه المشاركة اضطهادا وسجنا وقال للشاب متسائلا:

– وما الذى تعرفه عن الثورة العرابية؟!

وفوجئ «سعد زغلول» بالشاب يقول له:

– كان أبى الشيخ «أمين أبو يوسف» أحد زعماء المقاومة فى دمياط وسجنه الإنجليز وحكموا عليه بالنفى خمس سنوات وأمضى مدة النفى مع الشيخ «محمد عبده» فى لبنان!

ولمعت عينا «سعد زغلول» وتذكر أيام شبابه وعاد يسأل ثانية:

– هل أنت ابن الشيخ «أمين أبو يوسف»؟!

قال الشاب ببساطة: نعم!

عاد «سعد زغلول» ليقول بلهجة حانية فيها كل الود والمحبة لهذا الشاب:

– إننى أعرف أباك وكنت معجبا بالحركة الشعبية التى قامت فى دمياط وسمعت تفاصيلها من الشيخ «محمد عبده»!

ثم تنهد «سعد زغلول» وأنهى المقابلة قائلا:

– إننى موافق على أن تتزوج رتيبة!

وفوجئ الشاب الصغير بكلام «سعد زغلول» باشا وقال متلعثما:

– ولكننى فقير وأبى مات معدما نتيجة السجن والنفى!

ورد «سعد زغلول»: هذا لا يهم!

عاد الشاب يقول: وأنا أريد أن تقيم زوجتى معى فى دمياط!

رد سعد بسرعة: هذا لا يهم أيضا!

وسكت الشاب ولم يجد أى كلام يعلق به لكنه فوجئ بسؤال من «سعد زغلول»:

– متى تريد أن تتزوج؟!

قال الشاب من وسط فرحته الطاغية: بأسرع ما يمكن!

وابتسم «سعد زغلول» ابتسامة كبيرة سرعان ما تحولت إلى ضحكة صادرة من أعماق قلبه وقال للشاب «أمين يوسف»:

– سأتفق معك فيما بعد على الموعد.. أما المهر فأدفع أى مبلغ تستطيع!

وقال الشاب معلقا على كل ما يسمعه ويجرى أمامه:

– إن كل هذا تم بسرعة.. هل هذا هو الرد النهائى!

قال «سعد زغلول» بحسم وبسرعة: إن ردودى دائما نهائية!

وانصرف الشاب مغادرا بيت «سعد زغلول» وسعادة الدنيا تملأ قلبه وعقله!!

كانت «صفية زغلول» غارقة فى دهشتها وتعجبها من كل ما جرى وتقول معلقة:

«لقد جاء سعد بجميع المعلومات عن والد العريس ولم يجئ بأى معلومات عن العريس، كأن البنت ستتزوج والد العريس وليس العريس نفسه!! وعندما سألت سعد: هل العريس طويل أم قصير؟! نحيف أم بدين؟! أبيض أم أسمر؟! قال لى سعد: إنه لا يذكر فقد انشغل فى الحديث معه عن الانتخابات وثورة عرابى!

وبعد الخطبة انتهزت صفية فرصة لقائها بالعريس واتفقت معه على أن تتردد العروس رتيبة بين القاهرة ودمياط وخاصة أنها علمت أنه يعمل فى مكتبين، مكتب بالمنصورة، ومكتب فى دمياط، حتى لا تبقى العروس وحدها عندما يضطره عمله إلى مغادرة دمياط إلى مختلف مدن القطر المصرى للمرافعة فى محاكمها.

وهكذا وافقت رتيبة على الزواج من الشاب التى لم تر وجهه لأن صديقتها العزيزة «وهيبة» ابنة أخت «صفية زغلول» متزوجة فى دمياط!

ولم تر رتيبة وجه عريسها إلا فى يوم الزفاف نفسه!

وتم عقد القران والزفاف فى بيت «سعد زغلول» وكان سعد شاهد العروس الآنسة رتيبة زغلول على عريسها الاستاذ «محمد أمين يوسف» المحامى.

وكانت «صفية زغلول» هى أم العروس التى تولت عملية شراء جهاز رتيبة وأشرفت على كل صغيرة وكبيرة!!

جرى ذلك كله فى شتاء ١٩١٣.

كانت فرحة صفية بزواج رتيبة فرحة لا حدود لها!!

أما فرحة «سعد زغلول» وسعادته بهذا الزواج فكان فيها الفرح والسعادة بزواج ابنته بالتبنى.. فقد كان سعد يحب رتيبة حبا لا حدود له. وقد كتب فى مذكراته يقارن بينها وبين شقيقها سعيد، وكتب يقول:

«سعيد شاب فيه تواضع، متوسط النباهة لا يحسن الإصغاء لمحدثه ويظهر لشقيقته رتيبة حبا جما وهى تستحق أن يحبها كل من يعرف صفاتها النادرة، وعندى أنها تفضل أخاها فى كثير من الصفات: فى الرزانة والنباهة ودقة الالتفاف ولطف الملاحظة، وتحسن معاشرة زوجها غاية الإحسان».

وكانت تريبة تعامل صفية كأم حقيقية منذ ماتت أمها شقيقة «سعد زغلول» وكانت «صفية زغلول» تعامل رتيبة كابنة حقيقية أنجبتها بالفعل، تخاف عليها، تقلق لقلقها، تفرح لفرحها، تحزن لحزنها!!

ومرت شهور على زواج رتيبة، التى بدأت تلاحظ تغيرات لم تعهدها من قبل، وسارعت تشكو لصفية التى أخذتها فى أحضانها وطمأنتها بأنه لا شىء يدعو للقلق أو الانزعاج!! كانت رتيبة قد أصبحت حاملا!

وعندما أخبرت صفية زوجها بهذا الخبر لم يتمالك نفسه من السعادة والفرح!

كانت فرحة «صفية زغلول» لا حدود لها!!

أخيرا بعد مرور عشرين سنة من زواجها بـ«سعد زغلول» سيشهد البيت الكبير وصول طفل يملأ الدنيا صراخا وبكاءً وضجيجا، صحيح أنه ليس طفلا تنجبه هى لكن طفلا تنجبه رتيبة ابنتها بالتبنى!

صحيح أنها فشلت في أن تكون أما لكنها نجحت أن تصبح جدة ولأول مرة ستسمع كلمة ستى أو جدتى!!

إن كلمة أمى أو ماما أو والدتى لها طعم آخر فوق لسان الأطفال، لكن بالقطع فإن كلمة ستى أو جدتى لها طعم مختلف أيضا!!

□□

وأخيرا حانت لحظة ولادة رتيبة!!

كانت لحظة نادرة ولا تنسى فى حياة صفية وسعد!!

كان زوج رتيبة غائبا خارج القاهرة فلم يشاهد تلك اللحظة التاريخية التى يحلم بها أى زوج فى الدنيا، لحظة أن يتحول من لقب زوج إلى لقب الأب!!

كانت لحظات مرعبة ومؤلمة لم تخطر ببال أحد، وقد وصفها «مصطفى أمين» فيما بعد فقال:

«صرخت رتيبة بصوت عال دوّى كالرعد وهز جدران بيت «سعد زغلول» الهادئ، وقفزت صفية من مقعدها ملتاعة فزعة وراحت تعدو وتجرى فى لهفة إلى غرفة ابنتها رتيبة التى تنتظر مولودها الأول».

كان صراخ رتيبة يمزق أعصاب صفية، انحنت عليها ومسحت رأسها بيدها فى حنو تطمئنها وهى أشد هلعا من الأم التي تصرخ وتتلوى بصوت يفتت الأكباد.

إن صفية رأت قبل ذلك شقيقتها الكبرى زكية وهى تلد ابنها حسين ورأت أختها فهيمة تلد خمس مرات (!!). ولكنها لم تسمع فى كل هذه المرات مثل هذا الصراخ الذى يمزق قلبها كسكين، ولم تحضر ولادة أرعبتها وملأتها حيرة وفزعا كالولادة التى تشهدها الآن.

كانت صفية قد حرمت طوال سنوات زواجها من أن تكون أما ولم تذق عذاب الوضع والولادة. كم تمنت أن تحس بهذا العذاب اللذيذ لتسعد زوجها سعد الذى حرمته متعة أن يكون له أطفال!

وعاشت صفية طوال شهور حمل رتيبة تحلم بأن يجيء اليوم الموعود، يوم ترى طفلا فى بيتها لأول مرة، منذ أكثر من عشرين عاما.

وها هو اليوم قد جاء وجاء معه برعب يملأ قلبها، إن رتيبة لا تلد كما تلد الأمهات!! إنها لا تلد ولكنها تموت!! وهى سترى اليوم حفيدها وتفقد فى نفس اليوم ابنتها! ربما مات الطفل فى بطنها! ربما ماتت الأم والطفل معا!!

إنها تعرف أن رتيبة ورثت من خالها «سعد زغلول» قوة احتماله، ولم ترها تشكو يوما، وكانت قادرة على أن تخفى عذابها تحت ابتسامة.. أن تصبر على بلواها، ولابد أن آلامها اليوم أكبر مما يحتمل البشر، ولهذا أطلقت كل هذا الصراخ والعويل والأنين!

إن شيئا داخل رتيبة يتمزق!!

إنها كلها تتمزق!!

ليست هذه ولادة طبيعية، إنما هو جو جنازة، إن الصراخ المدوى، والعويل الدامى ليس إيذانا بمولد طفل، وإنما هو نعيب يعلن عن موت أم!! وأسرعت صفية تعدو وتقفز درجات سلم الطابق الثانى، واتجهت إلى الطابق الأول تستغيث بزوجها سعد، وتبلغه أن رتيبة على وشك الموت!

واتصل سعد تلفونيا بالدكتور ملتون الطبيب السويسرى المشهور فى القاهرة، وطلب إليه أن يحضر على الفور.

ووصل الدكتور ملتون ودخل الحجرة فى الساعة الأولى بعد ظهر يوم السبت ٢١ فبراير ١٩١٤، وبعد دقائق كان يحمل فى يده مولودا أكبر من الحجم المعتاد، وراح يضرب ظهره بيده فينطلق صراخه وتتلقى «صفية زغلول» الطفل وتدور به فى الغرفة وهى تصيح فى فرح وزهور: ولد.. ولد.. ولد!!

ومضت صفية تقول وهى تلف المولود باللفافات والأربطة:

– معذورة رتيبة إن ضخامة جسم المولود هى السبب فى صراخها وعويلها!!

وإذا بالسيدة الحكيمة التى كانت تساعد الدكتور ملتون تصرخ فى فزع:

– الحقونى.. الحقونى!!

واتجهت صفية فى رعب إلى الفراش الذى ترقد فيه رتيبة وتصورت أنها ماتت أثناء عملية الولادة، وقالت الحكيمة وهى لا تزال محنية على جسم رتيبة:

– فيه واحد تانى!!

وإلى الفصل القادم

٥

سعد يفكر فى الزواج سراً..!

- رتيبة لصفية: أنا أتعس أم فى العالم.
- سعد لصفية: أنا أسعد رجل فى العالم.
- الأطباء يؤكدون لسعد: صفية لن تلد أبداً!
- مصطفى وعلى أمين فى مذكرات سعد زغلول!

٥

انتهت لحظات العذاب وحانت لحظة ولادة «رتيبة» ابنة سعد زغلول المتبناة!!

عاشت «صفية زغلول» كل لحظات الوجع والقلق والألم التى كانت تمر بها رتيبة طوال اللحظات التى سبقت الولادة!!

ولم تصدق «صفية» نفسها وهى تمسك بأول مولود يجىء إلى بيت سعد زغلول وراحت تصيح فى فرح وسعادة: ولد.. ولد!!

وفجأة عادت الحكيمة التى كانت تساعد د. ملتون الطبيب السويسرى المشهور تصرخ مذعورة ومندهشة:

ـ إلحقونى!! إلحقونى!!

كان المعنى الوحيد والتفسير المنطقى لصراخ الحكيمة هو أن الأم «رتيبة» قد ماتت، وهذا بالضبط هو مادار فى خاطر وبال صفية، التى اتجهت مهرولة وبسرعة إلى «فراش رتيبة» لتفاجأ بالحكيمة تقول لها:

ـ فيه واحد تانى!!

وأخرجت الحكيمة مولودا هزيلا خفيفا ضئيلا، حجمه أقل من المعتاد، ويدق قلبه فى وهن شديد!!

وراح الدكتور «ملتون» يضرب بيده ظهر هذا المولود الهزيل فلا ينطق، واستمر يضربه حتى يسمع من فمه صوتاً هزيلاً لا يكاد يسمعه أحد!!

وظهر الذهول الكامل على وجه «صفية زغلول» ولم تجد ما تنطق به سوى قولها:

ـ ولد كمان.. ولد تانى؟!:

كانت ولادة توأم صدمة وأزمة!!

وحسب شهادة الكاتب الكبير «مصطفى أمين» فى مذكراته يقول:

«ما كادت رتيبة تعلم أنها رزقت بولدين توأم حتى أغمى عليها من الفزع، وأسرع الطبيب د. ملتون يسعفها من أثر الصدمة الهائلة!

لم تكن ولادة التوأمين منتشرة فى مصر فى تلك الأيام كما هى منتشرة الآن.

كانت «رتيبة» تحمل همّ تربية مولود واحد! فإذا بها تفاجأ بأنها رزقت بولدين معاً فى وقت واحد!! كيف تربيهما معاً؟! كيف تحملهما معا؟!

إن هذه أول مرة تلد فيها، وهى لا تعرف كيف تعنى بطفل واحد لا بطفلين اثنين فى وقت واحد، وهى قد أعدت ملابس ولوازم طفل!! فماذا تفعل بالطفلين!!

ومضت رتيبة تبكى وتندب سوء حظها وقلة بختها، ولماذا هى وحدها دون نساء العالم ترزق بمولودين معا!

وكانت رتيبة تشهق بالبكاء حزناً وأسى بسبب المصيبة الفادحة التى حلت بها وتركتها «صفية» وخرجت إلى الغرفة المجاورة التى كان يجلس فيها «سعد زغلول» ثم عادت مرة أخرى، وجلست بجوار رتيبة فى فراشها تهدىء من روعها وتقول لها:

- إن سعد قال لى الآن إنه أسعد رجل فى العالم لأنك رزقت بولدين؟!!

وقالت «رتيبة» ودموعها لا تزال تنهمر من عينيها:

- ولكنى أتعس أم فى العالم؟! كيف يمكن أن أربى ولدين فى وقت واحد؟!

قالت صفية بكل بساطة وهدوء لرتيبة:

- إن «سعد» حل هذه المشكلة!!

قالت رتيبة مندهشة:

وكيف ذلك؟!

ردت صفية بنفس هدوئها وبساطتها قائلة:

- إنه يقول إن شاء الله بهذين الولدين نحل مشكلتنا، أنا وخالك نتمنى أن يكون لنا ولد، وهذه أمنيتنا الكبرى، وقد حقق الله أمنيتنا فرزقك بولدين، لنأخذ نحن أحدهما وتأخذى أنت الثانى(!!!)

لم تصدق رتيبة ما تسمعه وعادت تسأل فى سعادة:

- صحيح هل وافق خالى حقا على أن يأخذ أحدهما .. خذى من تريدين منهما!!

قالت صفية لـ رتيبة:

- لقد اقترحت أن أسمى الأول «على» باسم «على بك زكى» وأسمى الثانى «مصطفى» باسم والدى وقد وافق «سعد» على ذلك!! وسوف نتبناه، وسوف يحمل اسم خالك «سعد زغلول» وسيكون اسمه فى شهادة الميلاد مقروناً باسم والده «سعد زغلول» وأمه «صفية زغلول»!!

وأجهشت «رتيبة» بالبكاء ووجدت نفسها تقول بدهشة بالغة:

- إنك تسخرين منى!! إنك تكذبين علىّ بهذا الاقتراح، لتخفى عنى المصيبة!!

ردت «صفية» فى لهجة حانية وبودة وبكلمات تفيض حناناً:

- أقسم لك برأس والدى أن سعد يريد أن يتبنى مصطفى، وقد عرض الفكرة علىّ فرحبت بها من كل قلبى، إنك تسعدين خالك إذا تنازلت عن «مصطفى» له!!

وردت رتيبة على كلام صفية بقولها:

- إننى مدينة لخالى «سعد» بحياتى، إنه هو الذى ربانى وأنا طفلة يتيمة، كما تبنانى مع أخى «سعيد» ولو طلب حياتى لأعطيتها له، إننى لا أظن أن فى الدنيا أباً خيراً من خالى «سعد» ولا يوجد فى الدنيا «أم» خير منك!!

وفجأة تذكرت «صفية» شيئا هاما لم يحسب أحد حسابه ووجدت نفسها تسأل:

- وهل سيوافق زوجك على أن نأخذ مصطفى؟!

ردت رتيبة فى عتاب رقيق قائلة:

- يوافق؟! إنه سيرقص من الفرح والفخر!!

وفى تلك اللحظة بدأت مشكلة لم تكن فى الحسبان!!

ولم يكن صحيحا على الإطلاق أن الأب «محمد أمين يوسف» سيرقص من الفرح والفخر عندما سيقال له هذا الكلام!!

□□

لم يكن الأب موجوداً فى مدينة القاهرة عندما وضعت زوجته «رتيبة» ابنيها التوأمين على ومصطفى!!

كان الأب غائباً فى دمياط فقط أجمع الأطباء على أن «رتيبة» سوف تلد بعد موعد الوضع الفعلى بأسبوع على الأقل!!

وكان الأب الأستاذ «أمين يوسف» يترافع فى محكمة دمياط فى قضية غرامية كانت تهز المدينة الصغيرة هزاً عنيفاً.

وكانت أول قضية «حب» فى محكمة دمياط، وهى قضية قسمت المدينة قسمين رجال المدينة فى ناحية ونساؤها فى ناحية أخرى، الرجال يؤيدون الجانى وهو شاب من أغنيائها المعروفين، والنساء ينتصرن للمجنى عليها وهى ابنة أحد أثرياء المدينة.. التى أحبها الثرى الدمياطى وبادلته الحب، ووعدها بالزواج ثم أنكر وعده!!

وكان أمين يوسف هو محامى المجنى عليها!!

واحتار «سعد زغلول» كيف يبلغ أمين يوسف بأنه رزق بتوأمين، واعتقد أنه سينزعج كما انزعجت الأم الصغيرة، وجلس وكتب برقية يقول فيها:

«نهنئكم».. حرمكم أنجبت مولوداً ذكراً .. والإمضاء سعد زغلول

وضحك سعد زغلول وقال لـ صفية بعد أن كتب كلمات البرقية:

- وهكذا يعرف أمين المصيبة بالتدريج!! وعندما يعود إلى القاهرة من دمياط نخبره بأمر المولود الثانى!!

عندما وصلت البرقية إلى «أمين يوسف» كان يسمع الحكم لمصلحة موكلته الحسناء ويستلم منها ثلثمائة «جنيه ذهب» مؤخر أتعاب المرافعة فى هذه القضية ويتلقى التهانى من الرجال الذين كسبهم بعد أن سمعوا مرافعته!!

وتفاءل «أمين يوسف» بأن يُزف إليه نبأ ولادة مولوده الأول فى نفس اللحظة التى ينتقل فيها من محام صغير إلى محام معروف مشهور!!

واستقل أول قطار وعاد إلى القاهرة، وما كاد يدخل بيت «سعد زغلول» حتى أحضرت له صفية زغلول.. مولوداً واحداً ، وسُر به سروراً عظيماً.

كان المولود سميناً جداً، ممتلئا صحة وعافية، وبعد أن اطمأن الأب على صحة زوجته، عاد يطل على المولود، وفوجىء به هزيلا، شاحباً، ضعيفاً!!

وأصيب الأب بالذعر، واعتقد أن مولوده أصيب فجأة بنزيف حاد، جعله يفقد نصف وزنه فى خلال دقائق، وأسرع الأب يعدو إلى الشارع باحثاً عن الدكتور «طلعت» باشا الطبيب المشهور لينقذ مولوده البكر المهدد بالموت!!

وأسرع «بهى الدين بركات باشا» يعدو خلفه ويعيده إلى البيت ويخبره بأنه رزق بولدين لا بولد واحد، أحدهما قوى بدين، والآخر ضعيف هزيل!!

ولم يحتمل الأب الصدمة فأغمى عليه! إنه لم يسمع قبل ذلك أن أما رزقت بولدين فى بطن واحدة!!

وأبلغته رتيبة باقتراح «سعد وصفية» أن يسمى الولد الأول «على» والولد الثانى «مصطفى» فرحب بالاقتراح!!

ولكن ما كادت رتيبة تخبر زوجها باقتراح «سعد» أن يتبنى «مصطفى» حتى غضب الأب وثار ورفض الاقتراح بعنف وقال:

- لا يمكن أن أبيع ابنى!!

قالت رتيبة وهى تحاول تهدئة ثورته الجامحة:

- إن المسألة ليست مسألة بيع وشراء، إننا كنا نريد من الله ولداً واحداً وأعطانا ولدين، وقد صدمت أنت كما صدمت أنا بالنبأ. جاء خالى وطلب أن يتبنى «مصطفى» لأنه محروم من نعمة الأولاد، فلماذا لا نسعده بأن نعطيه الولد الضعيف الهزيل!!

قال الأب بحسم وحزم لزوجته:

- أنا لا يمكن أن أعطى ابنى لأحد!!

قالت رتيبة فى خضوع:

- إنه ليس أحداً «إنه خالى وأبى الذى تبنانى وربانى أنا وأخى وأنا يتيمة الأبوين [illegible] ما أفعله أن أرد له جميله وأسعده فى شيخوخته ووحدته!!

قال الأب مدافعاً:

- يمكنك أن تعطيه ما تملكين ولكن ابنى لا يمكن أن أنزل عنه لأحد!!

وانتهى النقاش عند هذا الحد وانتصر منطق الأب، وانهزم منطق «الأم»

□□

وعرف «سعد زغلول» بتفاصيل كل ما جرى بين رتيبة وزوجها وتألم وحزن كثيراً لموقف الأب ورفضه القاطع لفكرته فى تبنى أحد ولديه!!

وحاولت «صفية» - دون أن يعرف «زوجها سعد» - أن تتدخل وحاولت إقناع زوج رتيبة لكنه رد عليها بقسوة وعنف وحدة أيضا، وغضبت صفية ليس لرفضه فقط، ولكن للطريقة القاسية التى تحدث بها معها وأبدى رفضه!!

وبكت رتيبة لرفض زوجها أن يتبنى خالها مولودها الضعيف الهزيل!!

وحسب تأكيد «مصطفى أمين» فإن هذه الأزمة لم تمر ببساطة على بيت «سعد زغلول» بل جرحته جرحاً غائراً، لقد عاش «سعد» بضع ساعات يتصور أنه أصبح «أباً» بالفعل!!

وعاش «سعد» حلم أنه أصبح له ولد يحمل اسمه أو أنه سيحمله بين يديه .. وسيحبو فوق ركبتيه، سيسلى به شيخوخته، سيطربه صراخه، سيملأ صوته الصغير البيت الهادىء الساكن الوقور.

وهكذا عندما تلقى «سعد» رفض أمين يوسف.. عبس وجهه واكفهر، وتحولت عيناه الضاحكتان إلى عينين جامدتين حزينتين. أحس كأنه طعن فى قلبه الذى نبض لأول مرة نبضة الأبوة بسكين زوج ابنته المتبناة!!

أو كما قال مرة: «أحسست كأننى رزقت بولد وحيد ثم مات بعد بضع ساعات!!

أيستكثر عليه «أمين يوسف» أن يعطيه المولود الذى لم يُرده أو يتوقعه؟! ماذا سيفعل هذا الأب الشاب بمولودين اثنين؟!إن أمامه سنوات كثيرة يرزق بعدد من الأولاد والبنات. ولكنه هو .. إنه لا أمل له فى أن يرزق بالولد!! لقد طاف بزوجته (صفية) أوربا، وعرضها على أكبر أطبائها فأجمعوا على أنها لا يمكن أن تلد!!

ومضت الأسئلة كالسكاكين تنهش صدر وعقل «سعد زغلول»:

«أيضن عليه «أمين يوسف» بمولود يخفف عنه وحدته، يضىء شمعة حياته التى بدأت تخبو؟ أيكون هذا جزاءه بعد أن منح «رتيبة» و«سعيد» ولدى أخته الوحيدتين كل حبه وكل عطفه وكل حنانه، حتى نسيا ذل اليتم وهوان فقد الأب والأم فى سنوات طفولتهما الأولى؟!

وعاش «سعد زغلول» فى تلك الأيام لحظات قاسية من الحزن والهم والغم، وحاولت «رتيبة» و«صفية» أن تخففا وتسريا عنه، وأن تزيلا كآبته، وجاء الأب «أمين يوسف» يعرض اقتراحاً على سعد زغلول .. وهو أن يبقى الطفلان فى كنفه دائما وإن حملا اسم أبيهما!!

ورفض سعد زغلول هذا الاقتراح بشدة فى أول الأمر، ثم عاد وقبله ووافق عليه ، وحاول جاهداً أن ينسى أو يتناسى اقتراحه السابق والمرفوض بشدة، ولكنه كان يعود بين وقت وآخر ويتذكره فيزداد حزنه.

وفى أيام أخرى كان سعد يجد متعة فى ملاعبة الطفلين الصغيرين، يداعبهما ويحملهما ويدرس تصرفاتهما ويسأل عنهما إذا غابا، ويبحث عنهما إذا اختفيا، وفى أحيان أخرى تعود إليه رغبته فى أن يكون «أباً» وضيقه بأنه حرم من أن يتبنى أحد الطفلين، فيطلب إلى «صفية» أن تبعد الطفلين حتى لا يتذكر أنه فقد أحدهما، ويفضل أن يعتكف وحيداً فى عزبته بمسجد وصيف «طوال الصيف» ويطلب إلى صفية أن تعطى رتيبة نفقات المصيف لتصحب الطفلين الصغيرين إلى أى مصيف، بدلا من أن يمضوا الصيف معه، حتى لا يتذكر فى كل يوم أنه حرم من أن يكون أبا لأحدهما، وتنفذ «صفية» أمر زوجها!!

ولا تكاد «رتيبة» تحزم حقائبها لتصحب طفليها إلى مصيف بعيد حتى يعود «سعد» ويصدر أمره بإلغاء أمره الأول، وبإحضار الطفلين وأمهما إلى مسجد وصيف من جديد!!

ويمضى «سعد» مع الطفلين وقت راحته، فيتناول إفطاره معهما، وغداءه ، وعشاءه، ويصحبهما على حمارين للتجول فى مزارعه بمسجد وصيف، ويتولى تعليمهما الكتابة كما يتولى امتحانهما فى دروسهما.

ولكن كل هذا لم يستطع أن يقضى على رغبة «سعد» فى أن يكون له ولد من لحمه ودمه!!

بل كان «لسعد» ملاحظات وآراء وانطباعات فى كيفية تربية الأولاد وكيفية تنشئتهم!!

وكان من رأى «سعد زغلول» وحسب كلامه فى مذكراته (١٠ سبتمبر ١٩١٨) إنه «من سوء طالع الأولاد فى عائلة أن يوجد بين الكبار من أفرادها منافسة أو خلاف، فإن كل واحد من المخالفين يجتهد أن يودع فى ذهن الأولاد ما يخالف ما يودعه الآخر ولا تكون نتيجة ذلك ـ فى الأغلب ـ إلا فساد خلق الأطفال»!

وهذا من جهل الأمهات وميلهن إلى بعض أطفالهن دون البعض الآخر وعدم قدرتهن على ضبط أميالهن «ميولهن» وكتمانها على أطفالهن، مما يقوى هذا الفساد، ولا تجد عائلة فى الأمة المصرية خالية من هذه الأسباب كلها أو بعضها، ولذلك كان فساد الأخلاق عاماً فيها.

وما لم يصلح شأن المرأة إصلاحاً حقيقياً، لا يمكن أن تنهض هذه الأمة من سقوطها الأدبى، ومادام الأجنبى صاحب السلطان فيها من المحال أن يحصل هذا الإصلاح».

وفى مذكرات «سعد زغلول» بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩١٦ كتب يقول:

«لـ رتيبة بنت أختى ولدان توأمان ، أحدهما يدعى «مصطفى» والثانى «على» ولا يتجاوز عمرهما الآن سنتين ونصفاً، وهما يحبان بعضهما، ويلعبان معاً، وإذا غاب الواحد بحث الآخر عنه!

ومصطفى ضعيف البنية، ولكنه رقيق المزاج، وكل منهما سريع التأثر ولكن مصطفى أسرع، وفيه حسن التفات، ورقة قلب وحنان.

وقد ربتهما والدتهما على النظافة، ولكن لشدة حبها الأموى عودتهما أن تطيع شهواتهما إذا بكيا، فتجد الواحد منهما يطلب الشىء، فإذا منع بكى بكاء مراً، وإذا نهى عن أمر كان يميل إليه بكى أيضاً كذلك، ولكن بكاء «مصطفى» يؤثر فيها أكثر لضعفه، فتسارع إليه.

وربما أعود إلى الكلام عنهما بعد ذلك فى فرصة أخرى».

ويحرص «سعد زغلول» على تسجيل واقعة طريفة خاصة بالتوأمين، فيكتب فى مذكراته بتاريخ ٣١ أغسطس ١٩١٨:

«غداً تأتى رتيبة مع أخيها ونجليها (على ومصطفى أمين) وأظهرت للست عدم رغبتى فى طهارة (ختان) نجليها عندنا، ورأيت الأوفق أن يكون ذلك عندها، وقلت إنى مستعد لأن أساعد الأقارب من بعد، لا من قرب، فقد جربت قربهم فوجدت فيه شقائى».. ويعلق «مصطفى أمين» فيما بعد على هذه السطور من مذكرات «سعد زغلول» فيقول:

«ويظهر أنه وقعت أزمة بين «سعد» و«صفية» بسبب طهور الولدين، فقد كان سعد لا يطيق أن يرى طفلا متألما، ولهذا كان يرى وجوب طهور الولدين بعيداً عنه، ومع ذلك انتصرت «صفية» بعد ذلك بثلاثة أعوام وتم طهور الولدين فى الطابق الأعلى ببيت الأمة ورفض سعد أن يدخل غرفتهما التى لازماها بضعة أيام بعد الطهور»..

وفى مذكرات سعد (٢٩ سبتمبر ١٩١٨)يذكر بضع ملاحظات حول تربية «مصطفى وعلى أمين» فيقول عن ابنته بالتبنى رتيبة والدة الطفلين...

«وهى تربى ابنيها تربية حسنة من جهة الثقافة والأدب والصحة وتحسن معاشرة زوجها غاية الإحسان ولا عيب فى هذه التربية إلا أنها أعلى من حالة قرينها، وتتطلب نفقات ربما لا يتسع لها حاله وتعودهما على عادات من الترف والنعيم ربما يصعب عليهما فى المستقبل ألا يجدا ما يوفر لهما أسبابها، ومع ذلك فالمستقبل بيد الله».

ويعلق «مصطفى أمين» على ملاحظات جده «سعد زغلول» فيقول: «لم تكن حياة الولدين فيها الترف والنعيم اللذين يتحدث عنهما جدهما «سعد زغلول» كانت حياتهما بسيطة متواضعة.. يمشيان على أقدامهما إلى المدرسة، لم يركبا سيارة ولا عربة حنطور. تصر أمهما على أن يركبا الترام فى يوم الأجازة فى الدرجة الثانية، فإذا دخلا السينما مرة فى الأسبوع أصرت على أن تشترى لهما مقعدين فى الدرجة الثانية.

وكان مصروفهما خمسة مليمات فى اليوم الواحد، وكانت ملابسهما متواضعة من محلات بلاتشى - بذلتان فى الصيف وبذلتان فى الشتاء وحذاء واحد طول العام. ولكنهما كانا يقيمان فى بيت «سعد زغلول» زعيم الأمة وهو بيت كبير يشبه القصر. فيه الخدم وفيه السكرتيرون، وكان سعد يخشى على الولدين أن يركبهما الغرور وألا يستطيعا بجهدهما أن يعيشا فى هذا المستوى، ولهذا كان يصر دائما على ضرورة تقشفهما، وتعودهما على حياة البسطاء، فقد رفض اقتراح «صفية زغلول» بأن تجىء لهما بمربية أجنبية كما تفعل شقيقاتها ورفض الاستعانة بمربية مصرية.. وأصر على أن تتولى أمهما بنفسها تربية الولدين، ورفض أن يدخلا مدرسة الفرير، وأصر على أن يدخلا مدرسة مصرية أميرية.

ولم يستطع .. سعد زغلول أبداً أن ينسى موقف زوج ابنته حتى وفاته!!

وفى عز مجد «سعد زغلول» وتزعمه لثورة ١٩ كان هذا الموضوع يلح على خاطره فيزيد من أحزانه وشجونه!!

ولعل أكثر المرات التى أحس فيها «سعد» بالحزن والأسى كانت بعد قيام ثورة ١٩١٩ ونجاحها.

كانت الأسرة كلها تتناول طعام الغداء فى بيت الأمة، كان الجالسون هم صفية زغلول ورتيبة وزوجها والطفلان على ومصطفى حين توقف «سعد» فجأة عن تناول الطعام وقال فى صوت حزين وهو ينظر ناحية زوج ابنته «رتيبة»:

- إن «أمين» عز عليه أن أكون أباً «لمصطفى»، ولكن الله عوضنى عن هذا الحرمان.. فبدلا من أن أكون أبا لولد واحد أصبحت أبا لأربعة عشر مليونا من المصريين، وأصبحت «صفية» أم المصريين كلهم!!

ووسط دهشة كل أفراد الأسرة مضى «سعد زغلول » يقول:
ـ لقد جاءنى اليوم أحد الأطباء يحمل صور ولديه التوأمين وقال لى إنه مستعد أن يتنازل لى عن ولديه التوأمين!! ودهشت أن يعرض علىّ شخص غريب أن أتبنى ولديه التوأمين معاً، بينما أبى علىّ زوج ابنتى أن أتبنى أحد توأميه، إننى رفضت عرض الطبيب شاكراً، ولكن لشد ما آلمنى هذا العرض!!
واصفر وجه «أمين يوسف» ووضع رأسه فى طبق طعامه!! وامتلأت عينا «رتيبة» بالدموع، وقالت «صفية» فى ابتسامة مغتصبة:
ـ كان أمين فى ذلك الوقت شاباً.. وهى هفوة من هفوات الشباب!!
ويعترف «على أمين» قائلا: هذه القصة سمعناها من أمى بعد ذلك بعدة سنين ومصمص مصطفى شفتيه حسرة وسأل والدى:
ـ كيف ترفض أن يتبنانى سعد زغلول؟!
وسكت والدى لحظة ثم قال:
ـ عندما تصبح والداً ستعرف سر رفضى!!»
ولم تسكت رتيبة وعادت تقول لزوجها:
ـ ولكنك كسرت قلبه .. إن قلبه لايزال مكسوراً حتى الآن!!
ورد الأب بقوله: إننى فعلت ما يجب أن يفعله كل أب، ولو أن التاريخ أعاد نفسه لفعلت الشىء نفسه من جديد!!
قالت الأم مصرة: كان يمكنك أن ترفض بطريقة أخرى.. دون أن تجرحه هذا الجرح الذى لم يلتئم حتى الآن!!
ورد الأب: إن الحقيقة تجرح مهما أخفيناها فى ورق مفضض!! لقد كنت على ثقة أنه إذا تبنى «سعد زغلول» ابنى مصطفى، فإن ابنى كان سيحصل على تربية أرقى، وسيعيش منعماً مترفاً وسيحمل اسمه تاريخياً، ولكن كل هذا لا يعوض حنان الأب الحقيقى، وحنان الأم الحقيقية!!
قالت رتيبة بصبر: ولكنه لم يطلب منا ألا نرى ابننا، إننا نقيم معه طوال الوقت، كل ما طلبه هو الاسم!!
إننى تمتعت بحنان خالى «سعد» وحب زوجته صفية كأنهما أبى وأمى، ولم يشعرانى قط بأننى فقدت الأب والأم، مع أننى كنت أعرف أننى فقدتهما ولم يكن «مصطفى» سيعرف أن أخاه «على» هو شقيقه وتوأمه، بسبب الشبه العجيب بينهما ولن يفقد حنان الأخوة وحبها، لقد خلفت فعلتك فى نفس «سعد» جرحاً لا يندمل. إنك كسرت قلب خالى، الرجل الذى يعلن الملايين اليوم له استعدادهم للتضحية بحياتهم فداء له!!

وصرخ الأب ينهى هذه المناقشة قائلا:

- كيف أقبل أن يحمل ابنى اسم رجل آخر، حتى ولو كان هذا الرجل زعيمنا؟!

□□

وكان «سعد زغلول» يعزى نفسه قائلا:

- إن كثيراً من العظماء لم يرزقهم الله أولاداً لحكمة يعلمها!!

وبتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٩١٧ كتب «سعد زغلول» فى مذكراته يقول:

«أتمنى الآن لو يكون لى ولد، وأن أبنى بواحدة (أى أتزوج واحدة) من الفلاحين أو غيرهم، ويشغل هذا الفكر بالى، ولكن تحقيق هذه الأمنية صعب، لأنى أريد أن يكون ذلك سراً.. وذلك من المستحيل تقريباً.. فالأفضل ترك هذا الفكر من أصله». لكن «سعد» انشغل بما هو أكثر خطورة من الزواج ثانية.

وإلى الفصل القادم



سعد زغلول فى شبابه

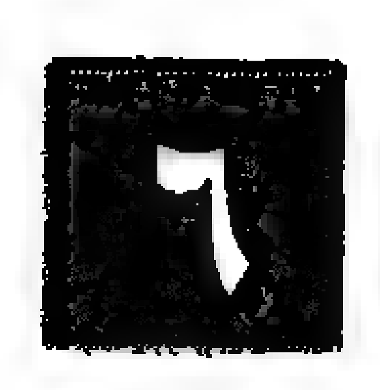


سعد زغلول فى بداية عمله بالمحاماة



«صفية» تطلب الطلاق!

- سعد يشغل نفسه بمذاكرة الجغرافيا والفلسفة!
- صفية تأخذ كل نقودها من سعد زغلول!
- سعد يصف منيرة المهدية: رشيقة القد، مليحة الوجه!
- صفية تقاطع أختها تضامناً مع سعد زغلول!



«الحلو ما يكملش!!»

أما الحلو الذى لم يكتمل فى حياة «صفية زغلول» فهو إدمان «سعد زغلول» للقمار!!

كان «القمار» هو خطيئة «سعد زغلول» التى لم تستطع «زوجته صفية» أن تغفرها له، أو تتناساها أو تتعامل معها ببساطة!!

ولم تكن «صفية زغلول» هى أول ولا آخر زوجة - فى تلك الأيام - تعانى من هواية القمار القاتلة التى أدمنها «سعد»!!

كان أغلب الكبار والوزراء والأسماء اللامعة فى ذلك الوقت يلعبون القمار قتلا للوقت والتسلية ودفعاً للملل، وكانت الزوجات هن أول من يدفع الثمن: غضباً وقلقاً ومشاجرات وخسارة أيضاً!!

وعندما أصبح «أحمد فؤاد» سلطانا على مصر كان أول قرار أصدره أن تتولى الدولة تسديد ديونه، وكانت «ديون القمار» على رأس هذه الديون!!

وحاول «سعد زغلول» عشرات المرات أن يقلع عن عادة لعب القمار، حتى لا يغضب «صفية» التى كانت تكره وتمقت القمار، وحتى لا تتزايد خسائره وديونه!!

وفجأة حدثت صدمة شديدة لم يتوقعها أو يحسب لها «سعد» حساباً!!

ذات يوم فوجىء «سعد زغلول» بزوجته «صفية» تطلب منه «الطلاق»!!

كان ذلك فى يناير ١٩١٧، وكان قد مضى حوالى ٢١ سنة على زواج «سعد زغلول» من «صفية» !!

لم يكن سبب الطلاق الذى تريده صفية يتعلق باكتشافها امرأة أخرى فى حياة «سعد» بل كان إدمان سعد للقمار هو السبب الوحيد!!

ولم يكن خافياً على أحد ذلك الأمر، ولم يخجل «سعد زغلول» من تسجيل ذلك فى مذكراته، حيث يقول بتاريخ ٢٠ يناير ١٩١٧:

- «توجهت أمس إلى النادى، وبقيت فيه إلى الساعة ٢ بعد نصف الليل وخسرت مبلغ ٣١٠ جنيهات وعدت فوجدت زوجتى يقظة فرنت سلامى ببرود(!!)

وخلعت ملابسى وهى بجانبى وذهبت إلى محل الراحة (يقصد الحمام)ثم تمضمضت ودخلت السرير، ودخلت بعد مخدعها، وكانت (صفية) مضطربة تصفرّ تارة، وتخضر أخرى، وبعد أن أضطجعت نهضت جالسة وقالت:



- أريد أن أعرف إلى أى طريق أنت مسوق؟! قد نفد صبرى، وفرغ تحملى، وأكلتنى الآلام وتراكمت علىّ التعاسة، وكنت أحن صدر كان يعطف عليّ، وأحكم رجل كان يمدنى فى الشدائد بنصائحه وآرائه وذلك هو أبى فقدته ولم يبق لى إلا أنت ولكنك تعمل على إذابتى ولا تلاحظ صحتى! فكم وجدتنى فى قلق واضطراب من هذه الحالة، ولم يرق قلبك لتألمى ولا رثيت لحالى!! تسهر الليالى فى إتعابى، وتمضى أوقاتك فى تعذيبى، فقل لى إذن قولا صريحاً..

- إذا كانت رذيلة اللعب تمكنت من قلبك وتملكت نفسك وأصبحت لا تقوى على الإقلاع عنها فلا مندوحة عن فراقنا، لأنى رغم ما أشعر به من الحب لك، لا أستطيع أن أراك حقيراً فى نظرى، مغلوباً لمثل هذه الشهوة التى قضت على الكثير من قبلك، ولابد أن يكون فى استسلامك لها ما ينفرك منى، فأنت تميل إليها».

كانت «صفية» غاضبة بلا حدود، وثائرة على تلك العادة التى تمكنت من «سعد زغلول». ومن جانبه لم ينكر «سعد » أنه حاول مرات كثيرة الإقلاع عن اللعب لكنه كان يفشل.

وفى ٨ مايو ١٩١٧ يعترف فى مذكراته قائلا:

«لأنى أتردد هذه الأيام على النادى فأنا لا أريد أن أفكر فى عدم استطاعتى ترك اللعب، ولكن بما أنى ملتزم كان علىّ أن أترك الرذيلة، إن زوجتى تعانى كثيراً من جراء ذلك حتى أنها لا تكاد تنام وهى دائما غاضبة.»

ويسجل أيضا فى (ديسمبر ١٩١٧ قوله «خسرت مالا طائلا وصحة عزيزة وصيتاً بعيداً وراحة منزلية، وفوت علىّ كثيراً من الواجبات لأهل بيتى وذوى قربتى وأصدقائى.»

وفى كل مرة كان «سعد زغلول» يخسر فيها النقود بسبب لعب القمار كان يعنف نفسه تعنيفاً شديداً، ويقسو فى لومه أيضاً وتزداد هذه القسوة واللوم إذا كانت خسائره مما يخص أموال زوجته «صفية».

ومن أقسى المواقف التى مر بها سعد زغلول فى حياته عندما أخبره «محمود صدقى باشا» عديله (زوج أخت صفية) أنه ذاهب لشراء عقد من اللؤلؤ لحرمه ، وهذا العقد خاص بحرم يوسف باشا قطاوى (من أغنى أغنياء اليهود وسيصبح وزيرا فيما بعد) وكان ثمن العقد حوالى أربعة آلاف جنيه لكنه يطمع فى شرائه بثلاثة آلاف جنيه فقط.

كان ذلك الحديث قد جرى أمام صفية زغلول، ويقول «سعد» فى مذكراته:

«رأيت حرمى وقد امتقع لونها عند سماع هذا الخبر وتغير صوتها، وكنت أقرأ على وجهها علامات الاستياء القاتل من مقارنة حالها بحال أختها، وشعورها بقصورها عنها فى ميدان الثروة واليسار، وكان الكلام فى هذا الموضوع كنبال تنغرس فى فؤادى، فحركت علىّ تلك الآلام، ومنعتنى طيب المنام»!

«ولما انصرف محمود باشا وجرى ذكر العُقد المذكور قلت: غريب أمر أختك!! هى تبحث الآن عن اللآلى تتحلى بها، وكانت بالأمس تقول وتكرر بأنها نوت أن تبيع كل ما عندها من حلى ومصاغ ولا تترك شيئاً وراءها، ثم ها هى قد بلغت من السن عتياً، وذهب ما كان فيها من حُسن وجمال، ومهما تحلت بأفخر الحلى وأثمن الجواهر، فلا تعيد شيئاً من جمالها، ولا تستلفت أنظار إلا المستخفين بعقلها والمسوئين لفعلها!!

فقالت (أى صفية) بعد أن سمعت بعض ذلك أو كله: دعها تتمتع وتقر بالحياة عيناً!!

فأيد لى هذا القول ما قرأته على وجهها من آيات الأسف، وكان أشد إيلاماً لى مما سبق، فخرجت من الأودة وأخذت أرعى النجوم وأبحث عن النجمة القطبية والدب الأكبر فى السماء ثم صعدت إلى النوم، وبعد أن نمت قليلاً قلقت كثيراً».

وعلى ما يبدو فقد ظل «سعد زغلول» ساهراً يؤنب نفسه طويلاً ويلومها إذ كتب معلقا على كل ذلك يقول متسائلاً:

«وهل يصح أن يهنأ لى عيش بعد أن قبضت مال قرينتى ولعبت به حتى أضعته؟! وجعلتها أقل من إخوتها مالاً وأكثرهن حزناً؟! تعساً لى وسحقاً!! وتبّت يدى ثم تبت إذا هى بعد الآن امتدت إلى مالها وويلا لى من الحياة وسقماً إذا أنا لم أعوضها مافقدت، ولم أرد عليها ما أخذت، وما هو إلا أن أترك اللعب فلا يمضى عام حتى يتجمع فى يدى المال الكثير، فإن لم يف أكملته من أملاكى والله المعين».

كان ذلك هو ما كتبه «سعد زغلول» حرفياً فى يوم ٣١ مايو ١٩١٨ .. و..

وفى منتصف سنة ١٩١٨ انشغل «سعد زغلول» بهواية جديدة ملأت عليه حياته واستولت على كل وقته.

لم تغضب «صفية» بل ملأتها السعادة والسرور!!

فقد قرر «سعد زغلول» أن يشغل وقته بالمذاكرة والدروس وكأنه تلميذ صغير، وسجل فى مذكراته هذه الحكاية.

فى ٢ يونيو ١٩١٨ كتب يقول:

«أشتغل الآن بالقراءة فى كتب الجغرافية والفلسفة والاجتماع، وخصصت لكلٍ زمانا وأرى فى هذا التخصيص بُعداً عن الملل ولذة للعقل، فأتريض ساعتين: فى الصباح

ساعة وفى المساء أخرى، وأنام ساعتين فى النهار وثمانى بالليل والباقى للمطالعة والأكل والسمر».

وفى ٧ يونيو ١٩١٨ يضيف:

«لم يحدث شىء يستحق الإثبات سوى أنى أحضرت معى كتباً عن العلوم الرياضية وأخذت فى قراءة بعضها للاستفادة، وأرانى مائلا بكليتى للدرس والمطالعة وهى تساعدنى مساعدة ثمينة».

وفي ١٦ يونيو ١٩١٨ يكمل:

«امضيت الأيام الماضية كلها فى الدروس، خصوصاً درس الحساب فقد استغرق كل أوقاتى، وأجد فى الدرس «لذاذة» ولكن قوة الحافظة (الحفظ) ضعفت عندى فأجد فى درسه شيئاً من الصعوبة ولكنى سأتغلب بعون ا لله عليها».

وفى ٤ يوليو ١٩١٨ ينتقد نفسه قائلاً:

«والله إننى كلما وجدت نفسى عاجزاً عن إدراك مايدرسه صبيان المكاتب الآن، كلما دهشت أنى كنت وزيراً للمعارف فى هذه البلاد وكلما تضاءلت أمام نفسى وتملكنى الحياء. ولكنى سأواصل الجهد حتى أصل إلى درجة راضية وإن لم تكن راقية».

ثم يشير «سعد زغلول» إلى رضاء وفرح «صفية» زوجته بهذا التغير الذى طرأ على حياته فيقول:

«أرى «حرمى» مسرورة من حالتى وإن كنت لا أوفى حقها من المؤانسة والمجالسة، فلا أجلس معها إلا على المائدة مرة فى كل أربع وعشرين ساعة لأنها صائمة رمضان، ولا تدوم المرة أكثرمن عشرين دقيقة، ومع ذلك أراها مسرورة، لا لأنها تحب البعد عنى، بل لأنها ترى فى هذا الاشتغال لذة لى، وبُعداً عن الميل إلى اللعب.

وما أنا فى هذا بمنصف لأن من واجبى أن أقابل هذا الشعور منها بما يناسبه من رعاية جانبها ومؤانستها، ولو بعض الأحيان، لأنها إن كانت وحدها كانت مؤانستها ضرورية لازمة لإزالة الوحشة من نفسها، وإن كان معها غيرها كان ذلك على الأقل دفعاً لما يتوهمه الأجنبى من وجود شىء من الجفاء بيننا.

إذا كنت أظلم نفسى باللعب وأظلم من يحبنى بالإعراض عنه، فمن لا أظلم؟ ومن أخدم؟!

اتق الله فى نفسك وأهلك، وقسم وقتك بين الأنس والعمل».

وفى مذكراته بتاريخ ٥ يناير ١٩١٧ يقول «سعد زغلول»:

نمت أمس باكراً، وأصبحت اليوم نشطاً منتعشاً، ولقد تعهدت تعهداً وثيقاً بأن لا أبقى خارج المنزل إلا إلى الساعة ٨، وأن آخذ نفسى بهذا التعهد، وملزمها الوفاء به

لأن فيه راحتى، وراحة زوجتى التى تتألم كثيراً من سهرى!! وتكاد تموت إذا غبت عن العشاء ولذلك حُرم على أن أعمل على أذاها، وأن أتلذذ بعذابها، على أنه لا لذة فى البقاء زمناً طويلا خارج البيت خصوصاً لمن كان فى سنى وصحتى.

فاللهم أعنّى على العمل بما يضمن راحتى وأهلى، إنه سميع الدعاء» .

وقبل حوالى أسبوع بالضبط من تسجيل هذه الخواطر، كان «سعد زغلول» قد عاد من مسجد وصيف عند الفجر فيقول:

«ورأيت حرمى بعد عودتى فى الساعة ٢ تنتظرنى ، فقالت: خضيتنى وغضبت، وغضبت ثم اصطلح الحال»..

□□

لقد كان حب «صفية زغلول» لزوجها سعد حباً لا حدود له، ولم تتزعزع مكانة هذا الحب أبداً، وعاشت «صفية» تتمنى من كل قلبها أن يكف «سعد» عن لعب القمار!!

ومن أطرف ما جرى فى أواخر يوليو ١٩١٨ عندما نشرت جريدة المقطم خبراً يقول إن حكمدار بوليس القاهرة أرسل منشوراً لرؤساء جميع النوادى يحرم عليها لعب الورق بجميع أنواعه.

كان هذا القرار مصدر فرح وسعادة لـ صفية زغلول، كما كان مصدر حزن وغضب لـ سعد زغلول، وحرص «سعد» على تسجيل ذلك فى مذكراته (٢٩ يوليو) فيقول:

«ارتاحت حرمى لهذا المنع غاية الارتياح، ولكنى قرأت اليوم أن هذا المنع خاص بالنوادى التى تأسست على اللعب وللعب، لا التى تأسست لأغراض أخرى فارتحت ولكن لم يسر ذلك حرمى».

وهكذا لم تدم فرحة صفية زغلول!!

لقد عاشت «صفية» طوال عمرها تطيع «سعد» طاعة عمياء ، تحب ما يحب ، وتكره ما يكره، وكانت منحازة إلى كل ماهو «سعدى»!!

بعيون «سعد زغلول» كانت صفية ترى الدنيا والناس!!

وبقلب «سعد زغلول» كانت صفية تحب الدنيا والناس أو تكرههم!!

أما إذا تغير رأى «سعد» فى خصومه، واضطرته ظروف السياسة إلى التعامل والتعاون مع هؤلاء الخصوم، فإن «صفية» كانت تظل كما كانت على رأيها فى هؤلاء الخصوم!!

كان «عبدالخالق ثروت باشا» أعنف خصوم سعد زغلول، وتحول ما بينهما من أخوة وكفاح ونضال إلى عداوة وخصومة، ووصل الأمر إلى أن ظن سعد زغلول أن «ثروت باشا» كان السبب وراء نفى الإنجليز له!!

وظلت «صفية زغلول» تكره «عبدالخالق ثروت»، لكن الظروف تغيرت ، ولم يتغير رأى «صفية»!!

وذات يوم فوجئت «صفية زغلول» بأن سعد زغلول زوجها يستقبل «عبدالخالق ثروت»، بل إنه حدد له الموعد، وثارت صفية على استقبال «سعد لثروت» وانضمت «رتيبة» (والدة مصطفى وعلى أمين» فى هذه الثورة، ورفضتا البقاء فى المنزل إذا جاء ثروت!!

وفشل «سعد زغلول» فى إقناع «صفية ورتيبة» بأن مصلحة البلد تضطره أحيانا إلى نسيان خصومة وعداوة البعض . وأصرت صفية على رأيها وغادرته بالفعل، ولم تعد إليه إلا بعد أن اتصل بها سعد زغلول وأخبرها أن لقاءه بثروت انتهى وأنه غادر المنزل فعلا!!

ويعلق «مصطفى أمين» على هذه الواقعة بقوله:

«لقد نسى سعد بسرعة كل إساءة لحقته على يد ثروت، ولكن .. صفية .. لم تنس ذلك، وكان «سعد» يداعب صفية ويقول لها وهو يضحك:

- «كلما زهقت منك، دعوت ثروت باشا ليجيء لزيارتى .. وبذلك تخرجين من البيت!!»

وحدث نفس الشيء مع «عدلى يكن باشا» بل وصل الأمر بالمظاهرات أنها كانت تهتف: «الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلى»!! بل إن «سعد زغلول» وصف «عدلى باشا» وإخوانه بأنهم برادع الإنجليز!!

وعندما جاء «عدلى باشا يكن» للمرة الأولى لمقابلة سعد زغلول، حضرت صفية زغلول الجزء الأول من اللقاء، ولم يجر حديث فى السياسة أثناء وجودها، فقد كان حديث مجاملات وتحيات، وبعد أن خرج عدلى من عند سعد دخلت أم المصريين إلى غرفة سعد وقالت له:

- اسمع يا سعد أ نا لا أشعر بالاطمئنان لهذا الرجل!

وسألها سعد مندهشاً: ماذا قال؟!

قالت: لم يقل شيئاً ولكن قلبى غير مطمئن له!!

كان حب «صفية زغلول» لشقيقتها «زكية» حبا لا مثيل له!!

لكن إذا تعارض حب صفية لأختها مع حبها واحترامها وطاعتها لسعد زغلول، فقد كان سعد ورأيه هو الذى يطاع!! •

كتب «مصطفى أمين » يقول:

«إن سعد زغلول الثائر المجدد الذى دعا إلى إنشاء الجامعة، والذى أيد قاسم أمين فى سفور المرأة والذى حارب التقاليد الرجعية، يعيش فى بيته بعقلية قريته: فلاحاً

أصيلاً يقبض على أسرته بيد قوية ويسيطر عليها ويلزمها بالتمسك بتقاليد الفلاحين التى ورثها سواء أكان أفراد الأسرة هؤلاء كباراً أم صغاراً، يحملون أعلى الشهادات أو أكبر الألقاب.. إنهم أمامه جميعاً أولاد صغار.

ولقد تأثرت صفية زغلول بتعاليمه، فقد كان لصفية أخت كبرى تحبها حباً يقرب من العبادة وكانت هذه الأخت (زكية هانم) متزوجة من الدكتور «محمود صدقى باشا» محافظ القاهرة وعندما قامت ثورة ١٩ قال محمود صدقى باشا فى نادى محمد على إنه يعتقد أن الشعب المصرى لا يستحق الاستقلال وإن سعد زغلول سيفشل فى ثورته!!

ودهشت «صفية زغلول» لهذا التصريح الغريب .. كيف يصدر مثل هذا الكلام من زوج شقيقتها الكبرى ضد الثورة التى يقودها سعد زغلول!!

واتصلت صفية بشقيقتها الكبرى وسألتها عن الرواية التى سمعتها نقلا عن زوجها؟!

وقالت الشقيقة إن الشعب المصرى لا يستحق الاستقلال إلا بعد عشرين سنة!!!

وإذا بصفية زغلول تنقطع عن زيارة أختها الكبرى وعن مقابلتها وعن التحدث إليها.

وبقيت هذه القطيعة عدة سنوات، بغير أن يطلب سعد زغلول من زوجته أن تقاطع شقيقتها .. بل لقد ألح عليها بعد ذلك فى أن تزيل ما بينها وبين شقيقتها وقال لها:

أنا سامحتها فى إساءتها لى !

قالت: صفية: «ولكن الشعب المصرى لم يسامحها!!»

وهناك موقف آخر رواه «سعد زغلول» فى مذكراته وجرى قبل حوالى ستة شهور من ثورة ١٩ .. تفاصيل الموقف حكاه «سعد زغلول» فيقول:

«قامت مناقشة مع «زكية هانم» فى أمر الجمعية الخيرية الإسلامية وفى أهلية مصر لحكم نفسها، فطعنت على الأولى بكلام فارغ جداً، ولم ترد أن تسمع دفاعاً عنها ولكنى - أى سعد - لم أتركها حتى أسمعتها مالم تجد له جواباً سوى قولها:

- إنى أكره هذه الجمعية طبعاً!!

وكانت كمن تخبطه الشيطان من المس، لا تعى ما تقول، ولا تفهم ما يقال، ولقد صبرت عليها أجمل صبر .. ولم ترد أن تقبل مع المسألة الثانية (يقصد أهلية مصرلحكم نفسها) نقضاً لرأيها ولا أفكارها!! وبعد أن رأيت عدم الفائدة تحول الحديث إلى موضوع آخر...

وكان تعليق «سعد زغلول» على هذا الحوار مع زكية هانم.. شقيقة صفية تعليقاً ساخراً وقاسياً وحاداً فيقول:

«إنى ألوم نفسى أشد اللوم على مناقشة الجاهل، ومنازعة الأحمق، ومحاورة المعجب وقد كانت حاضرة مدام صبرى نزيلتها وسمعت المناقشة ولكن لصممها لم تعها كلها ولم تشترك برأى، وألوم نفسى على المناقشة مطلقاً وعلى الأخص مع الذين لا يفهمون ولا يعرفون أمتهم ويجهلون..

□□

لكن على العكس تماما كانت علاقة «سعد زغلول» بحماته والدة «صفية» فقد كان يحبها ويحترمها، ويقلق عليها إذا مرضت أو رقدت!!

ويقول «سعد زغلول» فى مذكراته بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩١٣:

«مرضت حرم مصطفى باشا فهمى»، ومرضها ابتدأ بانحراف فى العقل، يخشى من أن يصير جنوناً».

وبتاريخ ٢ أكتوبر يسجل «سعد زغلول» تطوراً جديداً على مرض حماته فيقول:

«اشتد المرض أمس مساء على مدام مصطفى (فهمى باشا) وتأخرت ابنتها (صفية) عندها، فذهبت إليها فى نحو الساعة الحادية عشرة، ووجدتها أصيبت بمغص ثم قيئوها وشربوها، فخرج منها شىء يشبه الدم وارتاحت بعد ذلك فعدت».

ثم يعود «سعد زغلول» ليكتب بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩١٣:

«فى منتصف ليلة الجمعة ١٩ ديسمبر توفيت حماتنا الست «أصاقيش هانم» حرم عطوفة مصطفى باشا فهمى.. وقد كانت مريضة من نحو أربعة أشهر مرضاً سبب لها كثيراً من الآلام ولعائلتها كثيراً من الأتعاب ولقرينها كثيراً من الهموم .. وقد كانت طيبة "...ب، شفوقة كريمة، تجمع الكثير من صفات الرجال.

وكان لها منزلة خاصة بين سيدات مصر، ولذلك وقع نعيها موقع الحزن والأسى من أغلبهن، وكانت وفاتها فى منزل «محمود صدقى باشا» زوج ابنتها الذى كانت انتقلت إليه لرطوبة منزلها.

وكنا نجتمع كل يوم على مائدته حيث يأتى الباشا (مصطفى فهمى) من الهرم فى نحو الساعة «ثم ينصرف فى نحو الساعة ٣ ، وكان من عادته أن يصعد إليها عند عودته فيمكث لديها إلى قرب الغداء، ثم ينزل نتغدى معاً ثم بعد قليل يصعد، ونصعد معه إلى قرب الساعة ٣ ثم يخرج، وأخرج معه فى العربة إلى منزلى انزل فيه، ويعود هو إلى الأهرام.»

وكان من أغرب وأعجب ما أوصت به «حماة سعد زغلول» حسب ما جاء فى مذكراته هو أن يبيت أولادها فى المقبرة ثلاث ليال!!

كانت صحة «صفية زغلول» هى أكثر ما يشغل بال سعد زغلول سواء كان قريباً

منها أو بعيداً عنها!!

لم يكن «سعد» يحتمل أن يراها تشكو أو تتألم أو تئن!!

كتب «سعد زغلول» فى مذكراته:

«علمت من الخادم أن الحرم (أى زوجته) تريد استدعاء الحكيم «فرنو موش» فكلفته أن يستدعيه لمرض فى العين ألم بها، ثم دخلت عندها، فوجدتها تتألم أشد الألم، وحضر الحكيم، وقرر أنه الرمد وعالجها ثم انصرف.»

وفى اليوم التالى (٢٠ سبتمبر ١٩١٥) يكتب «سعد»

- «اشتد مرض العيون بالحرم أمس ولكنه خف اليوم ولم تنم البارحة، لطف الله بها!!»

وكان سعد زغلول قد غادر القاهرة ووصل إلى عزبة مسجد وصيف لمتابعة ومباشرة محصول القطن، ولم يصحب معه «صفية» زوجته!!

وفجأة مرضت صفية زغلول وارسلت إليه خطاباً حمله خادمه الحاج أحمد عثمان. ويكتب «سعد زغلول» هذه الواقعة فى مذكراته بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩١٦ فيقول:

«كنت جالساً أقرأ الجرائد، وإذا بالحاج أحمد عثمان - تابعى - قد دخل علىّ وبيده البوستة فدهشت لقدومه على غير انتظار!! ثم ناولنى خطاباً من حرمى يعلمنى بأنها مريضة مرضاً خفيفاً ويطلب منى ألا أقلق.

وأخبرنى أحمد بأن المرض اعتراها أمس، وفتشوا على طبيب فلم يجدوا، وكان بها حرارة صاعدة نوعاً.

فعدت فى القطار الذى يصل إلى مصر الساعة ٥ ، ووجدتها (أى صفية) نائمة على السرير، ولكن حالتها حسنة، وقد انخفضت الحرارة نوعاً بعد أن بلغت درجة الأربعين وفهمت من الطبيب أنها نوبة برد وتزول.

وامتدحت صدقى وزوجته (زكية شقيقة صفية) لأنهما اعتنيا بها اعتناء شديداً وقد أهاجت هذه الحادثة فىّ كثيراً من الأوهام، وبعثت فى وهمى كثيراً من الخيالات لا أقدر الآن على تصويرها.»

وكأى زوجين قد يحدث أحيانا بعض سوء التفاهم على الأمور المادية اليومية. ويشير «سعد زغلول» فى مذكراته (٦ أكتوبرسنة ١٩١٣) إشارة تتعلق بزوجته فيقول:

«طلبت منى الست كل نقودها ومقدارها خمسون جنيها، على طريقة دلت أنها غير مرتاحة لقطع مرتبها وخاطبتها فى ذلك، فنفت عدم الرضا نفياً أثبت ما فهمت!!

ولذلك عزمت على أن أدفع لها الكل، وأحفظ ذلك فى نفسى..

وقد حصل عندى من مجموع هذه الأحوال شىء من الانفعال أو الانقباض، ولكن

أعالجه الآن بتذكر الآخرة وفناء الدنيا..»!!

كانت «صفية» تعتقد وتؤمن بأن «سعد» رجل نادر لن يتكرر!

وكان حبها واحترامها وخضوعها له من الأمور العادية والبديهية تماما، وربما يتساءل أحدهم: ولكن لماذا كل هذا الحب؟!

يقول «مورتون هول» السفير الأمريكى فى مصر عن «سعد زغلول» وحسب ما جاء فى كتابه «مصر.. ماضيها وحاضرها ومستقبلها»:

«أن زوجته الرؤوم المهذبة وسائر من لازموه فى بيته شهود على أنه كان زوجاً دائم الحب والعطف والرحمة، وقد كان على هذا صديقاً صادقاً وفياً لا يسهل عليه أن يصدق أن أخاً وثق به وائتمنه ينقلب إلى نقيض الثقة والأمانة.»

وعندما أصدر «قاسم أمين» كتابه (المرأة الجديدة) سنة ١٩٠٠ كتب يقول فى الإهداء:

إلى صديقى سعد زغلول

فيك وجدت قلباً يحب وعقلا يفكر وإرادة تعمل.

أنت مثلت إلىّ المودة فى أكمل أشكالها، فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها.

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته.

ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالا ونساء.»

وكان تعليق «عباس محمود العقاد» على سطور إهداء قاسم أمين لـ سعد زغلول بالغة الدلالة والذكاء فهو يقول:

«إن القلب الذى يجد فيه رجل كـ قاسم أمين هذه الصداقة الحلوة لهو ولا شك قلب منطو على رحمة ومودة تفوقان ما يرى على صاحبه من شدة ومهابة، وإن كانت المهابة يستحقها منه ألوف، والمحبة لا يستحقها منه إلا أفراد أفذاذا!!

أما السيدة الجليلة أم المصريين فما الذى يلجئها إلى محبة سعد إلا أنه يستحق المحبة!! لا هى فقيرة فأغناها، ولا هى خاملة فرفع نسبها، ولا هى جاهلة فتجهل ما ينبغى لها من المعاملة، ولا هى أم فيقال إن الأواصر البنوية هى التى تلجئها إلى قبول مالا يقبل من الأزواج، فلو لم يكن سعد أهلا للحب الخالص والمودة الكريمة لما استحق منها فى حياته وبعد مماته ذلك الولاء النبيل الذى يقل مثله بين زوجات مدينات لأزواجهن بكل شرف ونعمة.»

كان «سعد زغلول» فى حالة انشغال دائم. وكانت حجرة مكتبه هى مكانه المفضل

للتفكير والقراءة وتدبر الأمور على كافة أشكالها.

وعندما كانت «صفية زغلول» تستقبل فى بيتها صديقاتها والمقربات منها، لم يكن سعد زغلول يخرج لملاقاتهن ولاحظت إحدى صديقات صفية هذا الأمر، وتذكرت الشائعة التى انتشرت لفترة أن «سعد زغلول» تزوج من أخرى فسألت هذه السيدة صفية بفضول شديد:

- هل صحيح أن لزوجك سعد باشا بيت آخر وقرينة أخرى كما يقال؟!

وبكل جدية ترد صفية زغلول:

نعم له زوجة أخرى ولكنها فى هذا البيت!! انظرن، سأريكن إياها وأسمعكن أسرار «سعد» معها فى هذه اللحظة!!

وتزداد دهشة السيدة ويتملكها حب الفضول والاستطلاع من جواب «صفية» وتنهض الصديقات لرؤية «ضرة» صفية، وتكون المفاجأة فى جلوس «سعد» منكباً على مكتبه بين أوراقه وكتبه يقرأ بصوت جهير على عادة الأزهريين، وإلى جانبه سرير أعد للنوم إذا تأخر به الدرس إلى هزيع الليل الأخير.

وتسأل «صفية» صديقاتها:

- أسمعتن؟!

- نعم ولكن أين الزوجة؟!

وترد «صفية»: الزوجة هى هذه الأوراق، وهى الضرة التى سمعتن بها؟!

وحسب ما يقول «العقاد» فقد ورثت «صفية» روح الفكاهة والسخرية عن زوجها!!

وكان «سعد زغلول» من حين لآخر يختلس الوقت ليروح عن نفسه وعقله، وكان يميل إلى سماع الأغانى من جيل عبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى، كما كان يقرأ الشعر ويحفظه خاصة «المتنبى» و«المعرى» ..

وذات يوم قرر «سعد زغلول» أن يذهب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية تقوم ببطولتها الفنانة المطربة الكبيرة منيرة المهدية، وحرص على كتابة ما شاهده فى مذكراته بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ فيقول:

«دعانى أمس إسماعيل صدقى إلى تياترو «برانتانيا» لحضور تمثيل رواية كارمن.. بواسطة جوقة منيرة المهدية، ودعا معى عدلى باشا وثروت باشا.

وقد كان التياترو على سعته ، غاصاً بالمتفرجين، والألواج مملوءة جداً ولكن أغلبهم كانوا من الطبقة الوسطى والدنيا.

ومنيرة المهدية فنانة فى الثلاثين من عمرها، خمرية اللون رشيقة القد، مليحة الوجه،

خفيفة الروح، رخيمة الصوت وطويلة النفس، وتمثيلها لا بأس به كما لا بأس ببعض أفراد الممثلين معها.

وقد رأيت التمثيل تقدم عن ذى قبل كثيراً، ولكن الشعب لم يتهذب بعد، ولم يترب فيه ذوق هذه المشاهد، فهو يصفق لما يجب السكوت عنده، ويسكت لما يجب له التصفيق، ويضحك عندما يلزم البكاء ويسكت بعضه بعضاً فيكون الإسكات أدعى للجلبة من التشويش.

وقد لبثت إلى ما قبل الفصل الأخير وانصرفت مع عدلى (يكن) وبقى صدقى وثروت بعد أن خرجا معنا، بحجة أنهما يريدان السير على الأقدام، ولكن يظهر من حالتهما أنهما كانا يريدان أمراً آخر.

ولقد تحدث الناس بوليمة صنعها زوج «منيرة» المذكورة لثروت باشا، وبعض القضاة والمحامين، وانتقدوا الوزير انتقاداً مراً. ولقد قيل إلى ثروت: إن سرى باشا يقول إن منيرة هذه ليست حميدة السيرة فأكفهر وجهه واحتقن وعلاه الكدر وقال: على ذلك سيرفض الإذن فى التمثيل فى الأوبرا السلطانية.»

وسرت شائعات عن احتمال تولى «سعد» لرئاسة الوزارة، وكتب يقول فى مذكراته بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩١٧:

إن الوزارة من المناصب السامية، والسعى إليها فى ذاته ليس بعيب، ولكنى مع ذلك لم أسع ولن أسعى أما إذا عرضت علىّ وكانت شروطها مقبولة، فلا أفهم سبباً لرفضها، وما يضير إخوانى من وجودى فيها؟! إنهم يحق لهم أن يتضرروا إذا كانوا يشكون فى ذمتى ولا يثقون باخلاصى.»

ولم يكن «سعد زغلول» حتى ذلك الوقت يظن أن شيئاً ما ينتظره ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه!!

وإلى الفصل القادم



السلطان يخطف ابنة صديقة صفية!

- □ اللورد كرومر يصمم على منح سعد منصباً وزارياً!
- □ سعد يناقش «صفية» فى أمر اشتراكه فى الوزارة!
- □ صفية تنصح سعد بعدم قبوله الوزارة!
- □ نازلى تصدم صفية وتوافق على الزواج!



كانت مصر تتصور أنها بعيدة تماماً عن أغرب حادث اغتيال سياسى جرت وقائعة على حدود دولتين أوربيتين: النمسا والصرب!!

بدأت الحكاية يوم ٢٨ يوليو ١٩١٤ عندما اغتيل ولى عهد النمسا الأرشيدوق «فرنسوا فردينند» وزوجته على يد أحد الصربيين!!

وتكهرب الجو بين حلفاء الدولتين بسرعة لافتة للانتباه وتداعت الحوادث،!!

ففى نفس اليوم وقبل أن تجف دماء ولى العهد النمساوى كانت النمسا قد أعلنت الحرب على الصرب!! وتضامنا مع الصرب أعلنت روسيا الحرب على النمسا!! وتضامناً مع النمسا أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا(!!) وتضامنا مع روسيا أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا والنمسا!!

وبعد ستة أيام كانت بريطانيا تدخل الحرب إلى جانب روسيا والصرب، وفرنسا ضد ألمانيا والنمسا!!

وفجأة وجدت مصر نفسها فى قلب المعمعة، ووجدت نفسها تدفع ثمن فواتير هذه الحرب التى باتت تعرف باسم «الحرب العالمية الأولى» التى امتدت لأربع سنوات!!

دفعت مصر ثمن الحرب ابتداء من إعلان الأحكام العرفية وإعلان الحماية البريطانية إلى عزل وخلع الخديو عباس حلمى الثانى الذى كان غائبا عن مصر وقت نشوب الحرب ثم تعيين الأمير «حسين كامل» سلطانا على مصر!!

فى ذلك الوقت كان «سعد زغلول»: يتولى منصب وكيل الجمعية التشريعية.

ويقول السير رونالد جراهام مستشار وزارة الداخلية المصرية فى تقرير أرسله للخارجية البريطانية يتناول دور سعد زغلول.

«هذه الجمعية ستكون عاملا هاماً فى المستقبل فى نجاح أو حتى وجود أى وزارة مصرية، وكان سعد باشا هو الشخصية المسيطرة على جلسات الجمعية إذ تتوافر لديه كافة مقومات الخطيب السياسى، وكانت خطبه تهز الجمعية، وكان أكثر من ند لجميع الوزراء الذين لم يظهر منهم أى استعداد برلمانى .. وأصبحت المعارضة تحت سيطرة سعد زغلول باشا بالكامل.»

كان اسم سعد زغلول يتألق ويلمع ويجذب إليه أنظار كافة الوطنيين فى ذلك الوقت وحسب تقرير المعتمد البريطانى قوله:

«جذبت قدرات سعد زغلول بعض اهتمام اللورد كرومر الذى صمم على تجربة منح سعد زغلول منصباً وزاريا!!»

وفجأة قرر القائم بأعمال المعتمد البريطانى تعطيل الجمعية التشريعية!!

وقبل تشكيل حسين رشدى باشا لوزارته الثانية فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ كان للسلطان حسين كامل اقتراح بإدخال «سعد زغلول» الوزارة على أساس أن مجموع مواقفه كوزير أو كوكيل منتخب للجمعية التشريعية توفر رداء شعبياً مناسباً تتقدم به أول وزارة فى ظل الحماية إلى الشعب المصرى لكن وزير الخارجية البريطانية «السير أدوارد جراى» قال فى حسم وغضب:

- «لا يجب أن يدخل سعد زغلول الوزارة على وجه التأكيد»!!

وبعد استقالة إسماعيل صدقى باشا من وزارة الأوقاف فى مايو ١٩١٥ اقترح رئيس الوزراء أن يشغل «سعد زغلول» هذا المنصب، وكان رأى المعتمد البريطانى « هناك بعض المخاطر فى تعيين سعد نتيجة لشعبيته ومركزه لدى الجماهير» وقال اللورد كتشنر وزير الحربية: لا لتعيين سعد زغلول!!

□□

وفجأة توفى السلطان حسين كامل فى ٩ أكتوبر ١٩١٧، واعتذر الأمير كمال الدين حسين نجله الوحيد عن عدم قبول العرش!! وهكذا أصبح الأمير «أحمد فؤاد» سلطان مصر!!

«وكان أول قرار يصدره السلطان الجديد أن تسدد الدولة كل ديونه!!

وفى نوفمبر ١٩١٧ سرت شائعة مؤداها أن «سعد زغلول» مرشح للوزارة!!

ويعلق «سعد زغلول» على هذا الأمر بقوله فى مذكراته بتاريخ ١٣ نوفمبر:

«وقد جربت الوزارة فما رأيت فى طيها خيراً، بل قلت راحتى، وكثر تعبى، وتقدم مرضى ولازمنى كثير من الهموم، وتردد على كثير من الأوهام، فما كان يهنأ لى بال فى سفر ولا حضر، ولا يصفو لى عيش فى إقبال أو إدبار»

وسرعان ما يشرك سعد زغلول زوجته صفية فى أمر هذا الترشيح للوزارة والذى كان متحمساً له «رئيس الوزراء» حسين رشدى باشا، فيقول فى مذكراته بتاريخ ٢٠ نوفمبر:

دارت بينى وبين حرمى مناقشة فى موضوع مايتناقله الناس من ترشيحى للوزارة، حيث رأيتها - (أى صفية زغلول) لا تستحسن هذا الترشيح لسقوط منزلة الوزارة عند

الناس وتلوث الوزراء بسوء السيرة عند الناس، ولكونها تخشى تغير الأحوال وأن لحقني شيء من الأذى.

ولقد قلت لها: إنه لا يضرني أن أكون وردة بين الأشواك، أو نقطة بيضاء في ذلك السواد بل هو أنفع لي، ولا خوف من تبدل الأحوال، وإني في الوزارة أقدر على كثير من النفع ولكن في غيرها لا أنفع إلا نفسي!!

ومازلت بها حتى مالت، ولكن ميلها لم يكن تاماً فهي تعود إلى النفور كلما خليت وشأنها.»

• وعلى ما يبدو فإن المنطق الذي تحدثت به صفية زغلول مع زوجها - وهي ابنة رئيس وزراء سابق ظل يشغل هذا المنصب حوالي ١٣ سنة - قد جعله يوافق على كلامها مما دعاه للاعتراف في نفس المذكرات إلى القول:

«ولقد أصبح ميلي إلى هذا المنصب خفيفاً، بسبب ما أجده من ذلك النفور حتى في أقرب الناس إليّ وأحبهم لخيري (صفية) وبسبب كونه يلزمني بالعمل مع قوم لا تتفق مبادئهم مع مبادئي، ولا ميلي مع ميولهم، ويضطرني إلى معاملة أناس لا أثق بهم ولا يثقون بي، ولا أركن إليهم ولا يركنون إلي.

فالأحسن أن لا يتعرض الكريم لمثل هذه الضعة، ولا عزيز النفس لمثل هذه الإهانات.»

وبعد ثلاثة أيام عاد «سعد زغلول» يقول في مذكراته:

«إن الوزارة من المناصب السامية، والسعي إليها في ذاته ليس بعيب، ولكني مع ذلك لم أسع ولن أسعى أما إذا عرضت علي وكا نت شروطها مقبولة فلا أفهم سبباً لرفضها.»

وبعد فترة قررت الحكومة تحديد أسعار القطن وعم الغضب والتذمر كل فئات الناس، ويقول سعد زغلول معلقاً على ذلك (في ١٧ مارس ١٩١٨):

«قالت لي حرمي أول أمس: احمد الله على أنك لم تكن اليوم في الحكومة، وإلا كنت في هم وغم وحيرة، فإما أن توافق على هذا القرار فتجلب سخط الأمة، وتستنزل لعناتها عليك وإما أن تعارض فيه فتعرض نفسك لغضب الأقوياء وانتقامهم منك!! فالحمد لله على الانزواء وعلى أن نكون مظلومين لا ظالمين.»

□□

كان «سعد زغلول» بمثابة أكبر لغز سياسي يعجز الإنجليز عن حله!!

كان والد زوجته أكبر نصير للإنجليز، وجاء زوج ابنته «سعد » ليصبح أكبر عدو للإنجليز!!

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان سعد زغلول «وصفبة» خارج مصر يمضيان الصيف فى «فيشى» حيث المياه المعدنية التى تعود أن يذهب إليها كل عام. وسرعان ما غادر «فيشى» ووصل إلى مدينة مرسيليا، ليستقل الباخرة «لوتس» عائداً إلى مدينة الإسكندرية فوصل إليها قبل حوالى شهرين فقط من إعلان الحماية البريطانية على مصر!

احتارت بريطانيا كيف تتعامل مع «سعد زغلول»!!

يقول «عباس محمود العقاد» فى محاولة لتفسير هذه الحيرة السياسية:

«لم يسهل على السلطات البريطانية عند إعلان أحكامها العسكرية أن تبت فيما تعامل به «سعداً» أثناء الحرب العظمى: أتعتبره صديقاً؟! إنه ليس بصديق، وبينه وبين عميد الاحتلال وصاحب الكلمة النافذة فى وزارة الحربية البريطانية إذ ذاك ما بينهما من صراع عنيف!

أم تعتبره عدواً تسمح مقتضيات الحرب باعتقاله والحجر على مقامه وانتقاله! ولكن هل من المصلحة السياسية أن يسجل الإنجليز على أنفسهم أن الإجراء الذى اتخذوه فى مصر يضطرهم إلى اعتقال رجل كـ «سعد زغلول»؟! أو اعتقال وكيل الهيئة النيابية وخلع الأمير فى وقت واحد؟! وهل من المصلحة أن يغضبوا السلطان الجديد وهم يعلمون أنه لا يجد المعونة بين المصريين إن لم يجدها فى الكبراء الذين كان بينهم وبين الخديو محاذرة أو جفاء؟!

وبعد قليل من التردد آثرت السلطات الإنجليزية أن تفتح بينها وبينه باب المسالمة والحيدة، وأن تراقبه على البعد لتقيد عليه حركاته وسكناته وتنتظر ما يكون فلا هو بصديق ولا عدو، ولكنه رجل يحسن انتظار صداقته ولا يحسن دفعه إلى العداء.»

وأخيراً انتهت الحرب العالمية الأولى فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ بانتصار ساحق وتاريخى لبريطانيا وحلفائها.

وانتعشت آمال المصريين فى الحصول على الاستقلال طبقاً لمبادىء الرئيس الأمريكى ولسون.. الذى أعلن عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ومن بينها الشعوب العربية الخاضعة لسيادة تركيا.

ثم جاء تصريح حكومتى بريطانيا وفرنسا فى نوفمبر ١٩١٨ وجاء فيه «إن الغرض الذى تهدف إليه بريطانيا وفرنسا من مواصلة الحرب فى الشرق الأوسط هو تحرير الشعوب تحريراً نهائياً.»

وكتب اللورد ملنر يقول لحكومته فى تقرير سرى:

«نشطت الحركة الوطنية فى مصر واشتدت عزيمة أهلها بعد نشر التصريح البريطانى الفرنسى.»

فى ذلك الوقت كان «سعد زغلول» هو الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية (الهيئة الرسمية شبه النيابية، وزعيم المعارضة) واتفق «سعد» مع زميليه عبد العزيز فهمى باشا وعلى شعراوى باشا على أن يطلبوا من دار الحماية البريطانية تحديد موعد لمقابلة السير ونجت .. المندوب السامى البريطانى للتحدث إليه فى أمر السفر إلى لندن لعرض مطالب البلاد على الحكومة الإنجليزية، وجرى ذلك كله يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨ وهو نفس يوم إعلان الهدنة!!

وبعد ٤٨ ساعة كان قد تحدد الاجتماع ـ أخطر اجتماع فى تاريخ مصر الحديث ـ وفى تمام الساعة ١١ صباح ١٣ نوفمبر ذهب سعد زغلول وزميلاه إلى دار الحماية، وبدأ السير «ونجت» حديثه فقال لـ سعد وزميليه:

ـ إن الصلح قد اقترب موعده وإن مصر سينالها خير كثير وإن الله مع الصابرين، وإن المصريين هم أقل الأمم تألماً من أضرار الحرب وإنهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالا طائلة وإن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت السبب فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم.»

وقال سعد زغلول:

«إن الهندنة قد عقدت والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ماهو الخير الذى تريده إنجلترا لهم.»

فقال ونجت:

ـ يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم فإن المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة!!

رد سعد زغلول: إن هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد منها!

قال «ونجت»: أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر!

فقال سعد باشا: لا أستطيع الموافقة على ذلك فإنى إن وافقت أنكرت صفتى!!

وقال على شعراوى باشا: إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليزصداقة الحر للحر لا العبد للحر!!

فقال السير ونجت: إذن أنتم تطلبون الاستقلال!

فقال سعد باشا: ونحن أهل له، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقى الأمم المستقلة!!

وفى نهاية اللقاء الذى استمر حوالى ساعة قال السير «ونجت» لـ سعد وزميليه:

- «قد سمعت قولكم، وإنى أعتبر محادثتنا غير رسمية بل بصفة حبية، فإنى لا أعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد، وعلى كل فأنى شاكر زيارتكم وأحب لكم الخير.»!

□□

فى نفس الوقت كان السلطان «أحمد فؤاد» مشغولاً بقضية أخرى تماما، كان مشغولاً بالبحث عن «عروسة» له، ووقع اختياره على فتاة مصرية كان سعد زغلول يعتبرها كابنته!!

كانت مصر كلها تتحدث عن شائعات قرب زواج السلطان «أحمد فؤاد»!!

عاد «سعد زغلول» إلى بيته حزيناً ومهموماً وغاضباً!!

فوجئت «صفية» بحالة «سعد زغلول»، إنها لأول مرة تراه فى هذه الحالة من الحزن العميق، والغضب المكتوم!!

كان وجهه مقطبا.. عيناه حانقتين، حاجباه أشعثين، شفته العليا الغليظة التى تختفى تحت شاربه الأبيض تضغط بغيظ وحنق على شفته السفلى!!

كانت الكآبة تملأ وجه سعد زغلول بالكامل!!

فى تلك اللحظة أدركت «صفية» وأيقنت أن «سعد» لن يتناول طعام الغداء معهم كما اعتاد كل يوم، وبحكم سنوات طويلة عاشتها مع سعد.. فقد كانت تعلم أنه لا يستطيع أن يأكل أى شيء إذا كان مهموماً ومغموماً أو مكتئباً!!

حول مائدة الطعام كانت تجلس «صفية» وإلى يمينها المقعد الخالى المخصص لـ سعد ثم ابنتها رتيبة ثم «سعيد زغلول» (ابنهما بالتبنى أيضاً) ويجلس على مقعدين مرتفعين نسبيا على يسار مقعد سعد: مصطفى وعلى أمين!!

وقبل دقائق من وصول «سعد» أحس أحد الطفلين بالجوع، وعندما مد يده ليأخذ قطعة من الجبن، عنفته أمه رتيبة ووبخته قائلة:

- عيب، يجب أن تنتظر جدك حتى يأتى ونأكل جميعا معاً!!

وبكى الطفل بشدة، وتألمت «صفية زغلول» وهى ترى دموعه وقالت تلوم رتيبة ابنتها:

- حرام يارتيبة إن الولد جائع، وخالك تأخر اليوم عن موعده!!

ولم يكن من عادات سعد زغلول أبداً أن يتأخر عن موعد الغداء مع أسرته!!

□□

وجاء السفرجى يحمل الطعام، وتقدم به أولا إلى «سعد زغلول» هكذا كانت التقاليد فى ذلك الوقت، لكن السفرجى فوجىء بـ سعد وهو يشير إليه بتقديم الطعام إلى «صفية»..

فوجئت «صفية» وكتمت دهشتها لكنها لاحظت أن ضيق سعد يتزايد، وكآبته تملأ وجهه وهموم الدنيا كلها تطل من عينيه، وبكل رقة وحنان سألته:

ـ مالك ياسعد؟! هل أنت مريض؟!

رد سعد: ياريت بل هناك مصيبة أكبر من المرض؟!

دهشت «صفية» من الإجابة وعادت تسأل بقلق أكبر..

ـ خير ياسعد مصيبة إيه؟!

رد سعد وهو متجهم الوجه:

ـ السلطان فؤاد سيتزوج «نازلى»!!

ولم تستطع «صفية» أن تخفى دهشتها وانفعالاتها، وربما فرحت وارتاحت وهدأ بالها، فلأول وهلة ظنت أن السلطان فؤاد سيتزوج «الأميرة نازلى فاضل غريمتها السابقة فى حب سعد زغلول، لكنها سرعان ما أدركت أن الأميرة «نازلى فاضل» كانت قد توفيت منذ بضع سنوات!!

وعادت صفية لتسأل «سعد» بدهشة:

ـ «نازلى» مين التى سيتزوجها «السلطان فؤاد» ياسعد؟!

سكت «سعد» قليلا وطال صمته، وخرجت زفرة حارة من صدره وقال:

ـ نازلى خطيبة «سعيد زغلول» ابننا؟!

لم تملك «صفية» نفسها من الذهول وصدمة المفاجأة وصرخت قائلة:

ـ مش معقول!! مش معقول!!

لكن «سعد زغلول» عاد يؤكد لها قائلا:

ـ هذا ما حدث ياصفية!!

ورغم تأكيد «سعد» لم تكن «صفية» تريد أن تصدق ما تسمعه وقالت لـ سعد متسائلة وبدهشة لا نهاية لها:

ـ هل أنت متأكد ياسعد مما تقوله الآن!

رد سعد وقد بدأ صبره الطويل ينفد:

ـ نعم ياصفية «السلطان فؤاد» سيتزوج نازلى بنت «عبدالرحيم باشا صبرى» والتى يريد سعيد ابننا خطبتها؟!وسكتت «صفية» من هول الصدمة!!

□□

كانت «صفية» مذهولة تماما، وعندما أفاقت من الصدمة راحت تستعيد شريط المواقف والقصص وحكاياتها مع «نازلى»!!

إن الفتاة «نازلى» لم تكن مجرد ابنة صديقتها السيدة «توفيقة هانم زوجة عبدالرحيم باشا صبرى»!! بل كانت بمثابة ابنة لها!! وخاصة بعد وفاة أمها «توفيقة» هانم!!

وحرص «سعد زغلول» على تسجيل حادث وفاة والدة «نازلى» فى مذكراته، فكتب يقول بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩١٥:

«نعت أخبار الإسكندرية وفاة المرحومة السيدة «توفيقة» حرم «عبدالرحيم باشا صبرى» بعد داء أعيا الأطباء وقد شق نعيها خصوصاً على حرمى، فإنها كانت لها صديقة صادقة، وهى تبكى الآن وتذرف الدمع مدراراً على ما بها من ضعف فى الصحة والعيون.»

منذ طفولتها عاشت «نازلى» فى بيت سعد زغلول.. وكانت كل أسرة «سعد باشا» تعاملها كابنة مدللة، أما رتيبة فقد اعتبرتها بمثابة شقيقة لها، وسرعان ما وقع «سعيد» شقيقها فى حب نازلى وأراد الزواج منها!!

وعندما كانت نازلى تشارك أسرة «سعد» طعام الغداء، ويروى سعد فضائح السلطان أحمد فؤاد .. كانت نازلى تقول: مسكينة من تتزوج ذلك الرجل الصايع!!

وكان سعد زغلول يبتسم، فقد كانت نازلى تنطق بالحقيقة التى تعلم بها كل مصر، وعلى مدى سنوات ولد ونما الحب البرىء الطاهر بين «سعيد» و«نازلى»، وفاتح «سعيد» شقيقته برغبته فى الزواج من نازلى، وطلب منها أن تقوم بإبلاغ «صفية زغلول» برغبته. وكان رأى «نازلى» عندما سألتها «صفية زغلول» هو قولها: سوف أكون أسعد فتاة فى العالم إذا تزوجت «سعيد»!!

وهكذا طلبت «صفية زغلول» من سعد زوجها الموافقة على زواج «سعيد» من «نازلى» وملأ الفرح قلب سعد زغلول، الذى بادر وذهب لمقابلة صديق عمره عبدالرحيم باشا صبرى لطلب يد ابنته نازلى «لسعيد» ابن شقيقته وابنه بالتبنى. ورحب الأب بالفكرة وطلب مهلة لسؤال نازلى فى الأمر!!

وطالت المدة .. أسابيع.. وشهوراً.. وذات مساء دعا «سعد» صديقه «عبدالرحيم باشا صبرى» لمشاهدة إحدى الروايات فى مسرح الأوبرا، وأثناء فترة الاستراحة سأل سعد:

- إنك حتى الآن لم تبلغنى نبأ موافقة ابنتك نازلى على الزواج من «سعيد»؟!

ارتبك عبدالرحيم باشا صبرى وأجابه إجابات عائمة غير منطقية واندهش سعد زغلول فقد أدرك أن الشائعات التى تدور فى مجالس وأندية القاهرة لها أساس وظل من الصحة.

وفى مذكرات «سعد زغلول» كتب يقول:

«شاع فى الدوائر النسائية أن عظمته (أى السلطان) سيتأهل بكريمة عبدالرحيم باشا صبرى (نازلى) مدير المنوفية، كما روتها الأميرة عزيزة عن صاحبة السمو السلطانة «فوقية» كريمة السلطان (ابنته من زوجته الأولى الأميرة شويكار).

وذهبت إلى النادى فى الساعة ٧ وجرى ذكر إشاعة زواج السلطان بكريمة عبدالرحيم، فكذب عدلى يكن ويحيى هذه الإشاعة. وقال عدلى لا ينبغى لجماعة اليهود أن يتلاعبوا بأسرار السلطان لأنهم إذا كانوا أصدقاء له من غير تكليف فارتقاؤه إلى عرش السلطنة يلزمهم بكثير من التحفظ فى شأنه!!

وقال لى عدلى ضمن ما قال إن زواج السلطان أمر حكومى فلا ينبغى مباشرته من غير أن يكون للحكومة شأن فيه.»

كان «سعد زغلول» يتصور أن الحكاية كلها ليست أكثر من شائعة يقف وراءها اليهود!! وأن نازلى لا يمكن أبداً أن تقبل بهذا الزواج، إنه يعرفها تمام المعرفة ويعرف أخلاقها جيداً.

وكانت صفية زغلول مؤمنة بأن نازلى لا يمكن أن توافق على هذا القرار، بل لا يمكن أن تخطو خطوة واحدة فى حياتها - وخاصة بعد وفاة أمها - قبل أن تستأذنها وأن تحوز رضاها بالكامل!!

وتذكرت «صفية زغلول» ماحدث ذات يوم فى بيتها عندما أمسكت إحدى السيدات العجائز بكف «نازلى» وتأملتها طويلاً ثم قالت لها: ستكونين ملكة ذات يوم!!

وشهقت «نازلى» قائلة: مستحيل!!

لكن المستحيل حدث بالفعل!!

وأحست «صفية زغلول» بصدمة عظيمة وعنيفة وأحست بأن السلطان خطف نازلى ابنتها!! هذه الفتاة الجميلة اليتيمة التى طلبت أمها منها وهى على فراش الموت أن تعامل «نازلى» كابنتها تماماً!!

□□

وفى تلك الأيام تذكر سعد زغلول شيئاً هاماً لم يلتفت له، وأشار إليه فى مذكراته عندما فاتحه أمين يحيى أحد أعوان السلطان بأن تعمل «صفية» زوجة سعد «تشريفاتية» - أى وصيفة - بسراى السلطان وعاد فكرر عليه العرض فى اليوم التالى!!

واستشاط سعد زغلول غضبا وثورة وقال لصديقه:

- قل للسلطان إن سعد زغلول ينصحك أن تتزوج فوراً!!

وفهم السلطان عبارة «سعد زغلول» على أنها نصيحة غالية من سعد له، وأن بقاءه أعزب ـ ومطلقاً سابقاً ـ يمكن أن يكون ثغرة للهجوم عليه!!

وهكذا جرى السلطان إلى لارى جراهام قرينة صديقه المستشار البريطانى لوزارة الداخلية وطلب إليها أن تبحث له عن عروس فوراً!!

ووقع اختيار الليدى جراهام على «نازلى»!!

وعندما عرف السلطان أن «نازلى» ستتم خطبتها قريبا إلى «سعيد زغلول» ابن سعد زغلول بالتبنى قرر أن يعجل بالزواج!!

وحتى ذلك الوقت كانت المسألة كلها تدور فى فلك وحيز الشائعات، وأخيراً تأكد سعد زغلول أن المسألة جد!! وكتب فى مذكراته بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩١٩:

«زارنى رشدى باشا مع ابنته الصغيرة ولم يلبث إلا قليلا، ولم يتكلم إلا أقل..

قال: إنه سأل عظمة السلطان عن الشائع عن زواجه بكريمة عبدالرحيم صبرى فقال إن شاء الله، فسأله عما إذا كان أمهرها باثنى عشر ألف جنيه وأهداها عقداً بستة آلاف فقال إن شاء الله، فقال: أجيب بذلك من سأل؟! قال: افعل!!

ثم قال: ولم يرد لدار الحماية إلى الآن خبر عن السفر، ثم انصرف»!!

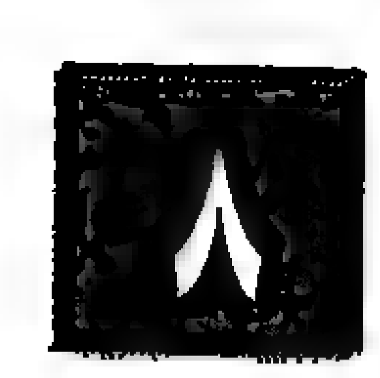
وفى نفس اليوم أيضا كتب سعد زغلول يقول:

«إنى أعجب لنفسى ولمن حولى فنطلب الاستقلال ونعرض أنفسنا للخطر ومصالحنا للعطل وأوقاتنا للضياع، وقومنا الذين نشتغل لاستقلالهم، منهم من يستهجن أعمالنا، ويستخف بنبئنا، ومنهم من يرمينا بالخيانة والتواطؤ مع الأعداء، ومنهم من يتجسس علينا وينسب إلينا أموراً لم تخطر لنا على بال، ومنهم المنصرفون عنا، الغافلون عما نعمل! فما هذا الضلال». كان منزل «سعد زغلول» قد أصبح بمثابة سوق عكاظ يأتيه يوميا عشرات ومئات الأسماء الكبيرة للبحث فى شئون الوطن ومابعد انتهاء الحرب العظمى، وكانت المناقشات ساخنة وغاضبة ومتوترة إلى الحد الذى جعل سعد زغلول يقول منفعلاً:

ـ أنا لا أسمح بمثل هذا الكلام ولا ينبغى لكم أن تتزحموا علينا بمثله وتشتمونى فى بيتى !!

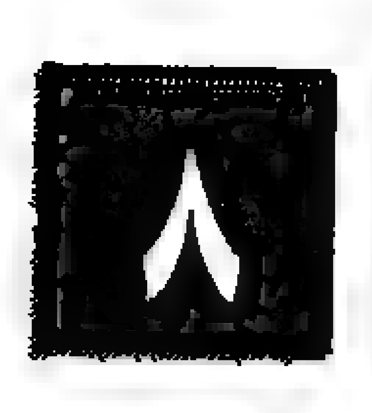
وبقى .. محمد زكى مستمراً فى حدته وشدته ومحمد باشا محمود يستعطفه، فلم يهدأ وقال: «إن هذا ليس بيتك بل بيت الأمة ثم انصرف غاضباً.»!!

وإلى الفصل القادم



أغرب برقية من «صفية» إلى «سعد»!

- سر سخرية الرقيب الإنجليزى من برقية صفية!
- رسائل سعد الغرامية إلى زوجته صفية!
- على باشا شعراوى يعنف زوجته متسائلا:
  «هل يرضيك أن تولول النساء: يا لهوتى»!



كانت مصر كلها غاضبة!!

السلطان والإنجليز، سعد زغلول والمصريون، الفقراء والأغنياء، ناس القمة وناس القاع!!

كان الكل فى انتظار «شئ ما» لا يدرى عنه شيئاً أو متي يجيء وكيف؟!

وكان سعد زغلول يردد فى تلك الأيام جملة واحدة، يستعيدها عشرات المرات، وكانت صفية زغلول تندهش عندما تسمع هذه الجملة الغامضة:

- لابد لنا من قارعة!!

كانت الأيام الأولي من شهر مارس سنة ١٩١٩ تحمل كل بذور العاصفة والغضب، استقالت وزارة حسين رشدى باشا فى اول مارس..

وحاولت السلطة البريطانية تشكيل وزارة جديدة، لكن الرأى العام - ومن ورائه زعامة سعد زغلول - أحبط هذه المحاولة.

وطلب سعد زغلول مقابلة السلطان أحمد فؤاد ولم يتمكن من مقابلته فترك له عريضة شديدة اللهجة وأرفق بها ترجمة فرنسية حتى لا تفوت كلمة أو معنى مما جاء بها على أحمد فؤاد الذى كان يجيد الفرنسية أكثر من إجادته العربية!!

واستشاط السلطان أحمد فؤاد غضباً من سطور احتجاج سعد زغلول!

أما المعتمد البريطانى فى مصر، فقد ترجم غضبه وغيظه فى شكل تقرير طويل بعث به إلى وزير خارجيته لورد كيرزون وقال فيه:

«إن استقالة رشدى باشا كانت صدمة شديدة لسعد زغلول الذى كان يعتقد أنه وأصدقاءه سيسمح لهم على وجه اليقين بالسفر إلى أوروبا للدعوة إلى الاستقلال. اتخذ سعد إجراء محددا.لتهديد السلطان ، ووقف تعاونه الحالى معنا، إن السلطان فؤاد قد اهتز للأسلوب الذى صيغ به احتجاج سعد زغلول الذى يعتبر فى الحقيقة إهانة للسلطان وأمته. وقد قيل لى إن لغة الاحتجاج لا تبرر رفع الدعوى امام المحاكم المصرية ضد سعد زغلول. إن السبيل الواضح أمامنا هو نفى سعد زغلول خارج مصر، ويفضل إن يكون ذلك فى الهند أو سيلان، إن سعد زغلول لم يعد منذ وقت طويل يصغى لجانب العقل . لهذا فإنى أطلب إلقاء القبض عليه وإبعاده فوراً».

وقرأ وزير الخارجية البريطانى هذا التقرير ثم اتصل برئيس وزرائه جورج لويد وكانت نتيجة هذه المشاورات والاتصال، أن بعث وزير الخارجية ببرقية إلى سير شيتهام فى القاهرة يقول له بالحرف الواحد:

- «خولناك السلطة للاتفاق مع القائد العام على إلقاء القبض على سعد وإبعاده فوراً إلى مالطة، وقد صدرت التعليمات إلى حاكم مالطة للاتفاق مع القائد العام فى هذا الشأن».

ولم يكن سعد زغلول بطبيعة الحال يدرى بكل مايجرى حوله، لكنه منذ مقابلة المندوب السامى البريطانى فى ١٨ نوفمبر ١٩١٨ توقع أن يتم القبض عليه واعتقاله بعد ساعات. ولذلك كان من الغريب أن يطلب من زوجته صفية قبل خروجه أن تعد حقيبته التى سيأخذها معه إلى السجن، وأوصاها أن تضع فيها مصحفاً وبيجامة وطاقية وموسى للحلاقة وكثيراً من الجوز «عين الجمل» الذى كان يأكله بدلا من الخبز!!

وبالفعل أعدت صفية الحقيبة .. منذ هذا اليوم!!

وكان سعد فى غاية الضيق من هذا الوضع وكان يردد دائما: لابد من قارعة.. أتراهم لا يأتون؟! هذا لا ينفع.. إما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا، وإلا فهم يتركوننا نموت فى مواضعنا.

وفى تمام الساعة الخامسة بعد ظهر ٨ مارس ١٩١٩ وعندما ذهبت السلطات العسكرية البريطانية لاعتقال سعد زغلول، وحاصرت بيت الأمة والمنطقة المحيطة بالمنزل، وصعد الضابط البريطانى إلى مكتب سعد زغلول يقول له: لدىّ أمر من القائد العام للقوات البريطانية بالقبض عليك!!

ابتسم سعد وقال ساخراً: لقد جئت متأخراً إننى انتظرك منذ وقت طويل!!

وكانت آخر كلمة قالها سعد قبل مغادرته بيت الأمة: «تشجعوا» قالها بالفرنسية وكررها عده مرات!!

وهكذا تم اعتقال سعد زغلول ومعه إسماعيل صدقى باشا ثم حمد الباسل باشا ومحمد محمود باشا وأمضوا ليلتهم فى ثكنة قصر النيل، وفى اليوم التالى ٩ مارس تم نقلهم بقطار الساعة الحادية عشرة صباحاً، ثم نقلتهم الباخرة إلى جزيرة مالطة التى وصلوها بعد ثلاثة أيام!!

□□

كانت صفية زغلول تزور شقيقتها الكبرى زكية عندما تم اعتقال زوجها سعد !!

لم تكن صفية وحدها فى تلك الزيارة، بل كانت معها رتيبة، وعادت صفية ورتيبة إلى بيت الأمة لتجداه غارقاً فى ظلام ليس له مثيل، مما أثار الريبة فى داخلهما.

وقفت العربة التى يجرها حصانان أمام بيت الأمة ونزلت منها صفية وزكية ورتيبة وعند الباب وجدن التوأمين مصطفى وعلى أمين يبكيان ويصرخان من الفزع فقد شاهدا عساكر وضباط الإنجليز وهم يأخذون جدهم ولا يفهمون شيئا!!

تلفتت صفية حولها ولم تجد غير الحاج أحمد خادم سعد الخاص لتسأله ماذا حدث؟!

قال لها: لقد قبض الإنجليز على الباشا!!

وكان اول مافعلته صفية أن قامت بالاتصال بعلى شعراوى باشا تبلغه أن مكتب زوجها مفتوح له ولزملائه فى غياب سعد كما كان فى حضوره.

وتقول السيدة هدى شعراوى [زوجة علي شعراوى] فى مذكراتها:

حدث فى يوم الاعتقال - ٨ مارس ١٩١٩ أن أرسلت قرينة سعد باشا إلى زوجى على شعراوى باشا تبلغه ان مكتب سعد مفتوح له ولزملائه فى غيابه كما كان فى حضوره وترجوه أن يقبل دعوتها للعشاء فى ذلك المساء، وأن يعقدوا جلستهم الأولى فى مكان انعقادها المألوف كى لا يطرأ على سير الدعوة أدنى تغيير بعد ذلك الحادث الذى أريد به القضاء عليه.

وقد قرر الأعضاء أن يلبوا رجاءها وان يشكروها عليه، وإن كانوا قد اعتذروا عن حضور العشاء لانشغالهم باعداد الخطة التى تلائم الموقف الجديد.

وفوجئت صفية زغلول فى نفس اليوم بحضور عشرات السيدات إلى بيت الأمة وكان أغلبهن متشحات بالسواد وكأنهم جئن للتعزية فى ميت، الوجوه كالحة، والعيون دامعة.

وصرخت صفية فيهن قائلة: لسنا فى مأتم.. إننا فى ثورة!!

وسكت النساء الجالسات مشدوهات تماما، وقالت زوجة أحد الوزراء وكانت صديقة حميمة لصفية:

- إن الباشا زوجى قال لى: إن رشدى باشا - رئيس الوزراء المستقيل - حذر سعد باشا من هذا المصير وطلب إليه التروى وياليته سمع الكلام!!

وقالت سيدة أخرى : أن سعد باشا أخطأ لأنه اعتمد على الشعب، فالشعب مسكين!!

وعند هذا الحد انتفضت صفية من مكانها وتركت ضيوفها من النساء وذهبت إلى غرفة رتيبة وقالت لها فى عصبية وغضب:

- اذهبى أنت يارتيبة - واجلسى معهن ، لأننى لو بقيت معهن فسوف أطردهن من البيت!!

وذهبت صفية إلى غرفتها، وجلست بجوار النافذة تنظر إلى الشارع الذى كان ساكنا وساكتا وصامتا صمت القبور!!

وبعد فترة وصل على شعراوى باشا وأخبرها أن الوفد أرسل احتجاجات إلى رئيس وزراء بريطانيا ورئيس امريكا ورئيس مؤتمر الصلح فى باريس!!

قالت صفية: ساخرة: إن التلغرافات وحدها لا تجدى!!

وعاد شعرواى باشا يقول لها: أن كل أعضاء الوفد بكوا عندما علموا بالقبض على سعد باشا!!

ردت صفية: الدموع وحدها لا تكفى لتحرير الأمم!

رد شعراوى فى هدوء: إن سياسة الوفد هى المقاومة بالطرق المشروعة!

قالت صفية بغضب : وهل القبض على سعد وزملائه عمل مشروع؟!! إن الرد على العمل غير المشروع يكون أيضا بالوسائل غير المشروعة!!

ثم توالى باقى كبار رجال الوفد إلى بيت الأمة، جاء عبد العزيز باشا فهمى، وجورج بك خياط وآخرون، لكن صفية زغلول ولدهشتها وجدت أن حواراتهم وكلامهم كان بمثابة أسف لا غضب، مصمصة شفاه لا ثورة!!

كان الوقت يمضى بطيئا متثاقلا، وصفية تنتظر أن يثور الشعب ويتمرد ولكن لم يحدث شئ من ذلك كله، وفجأة أقبل الحاج أحمد وأخبرها بأن الدكتور أحمد ماهر يريد مقابلتها فوراً. عندما قال له إن الهانم على العشاء قال د. أحمد ماهر إنه يريد رؤيتها فوراً ولا وقت للانتظار.

نهضت صفية من على مائدة الطعام وهى تقول بسخرية : ربما جاء هو الآخر ليعزينى!!

وهمس أحمد ماهر فى أذنها بكلمات لم يسمعها أحد لكنها جعلتها تفرح وتضحك، فقد قال لها أحمد ماهر: غداً سيتحرك الشعب كله من أجل سعد باشا!!

وبعد حوالى نصف ساعة سمعت صفية صوت سيارة تقف أمام بيت الأمة ، ثم راح جرس الباب يرن بشكل مزعج ومتواصل، وقفزت صفية من فراشها ، وتصورت أن سعد قد عاد بعد أن افرجوا عنه.

وذهب عم أدم البواب ليفتح الباب، ودخل أحد الضباط الانجليز ومعه مترجم وطلب مقابلة صفية لأمر هام، وقابلته صفية وهى مندهشة، لكن الضابط أخبرها أن سعد الآن معتقل فى احد المعسكرات، وأنه يحتاج لملابس ثقيلة لأنه سيسافر فى رحلة قد تطول بعض الشئ . وكل المسموح له أن يصحب خادما معه!!

حاولت صفية أن تعرف من هذا الضابط إلى أين سيسافر سعد لكنها فشلت وعادت تسأله: إن الملابس التى يحتاجها الباشا لمدة ايام غير الملابس التى يحتاجها لمدة شهر غير التى يحتاجها لمدة عام!!

ابتسم الضابط لذكاء صفية وقال: يكفى ملابس لمدة شهر!!

وأرسلت صفية تستدعى محمد التوتنجى الذى يعمل خادما خاصاً لوالدها مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء وسافر معه خارج مصر أكثر من ١٧ مرة وكان يجيد الإنجليزية والفرنسية لكى يكون فى صحبة زوجها سعد!!

□□

وانتصف الليل وذهب الجميع لكى يناموا، وكانت صفية على أحر من الجمر لكى تنتهى ساعات الليل الطويل ويأتى الصباح!!

□□

ومنذ صباح ٩ مارس ١٩١٩ عمت الثورة كل مصر، المظاهرات فى كل مكان تندد بالإنجليز وتطالب بعودة سعد زغلول ورفاقه!! وقاد الطلبة - طلبة مدرسة الحقوق - بداية الثورة.

واجتمع رجال الوفد برئاسة.. على شعراوى باشا بصفته وكيل الوفد وأرسلوا كتاباً إلى السلطان أحمد فؤاد يعترضون فيه على تصرف السلطة الإنجليزية، ويطلبون منه أن يقف إلى جانب المصريين فى هذه الأزمة.

لم تكن مصر تنام فى تلك الأيام.. فالمظاهرات تعم البلاد، وشارك فيها كل الطوائف من الطلبة إلى الموظفين إلى أبناء وشيوخ الأزهر.. وسقط مئات الجرحى واستشهد صبى مجهول برصاص الإنجليز فحمله الطلبة الثائرون إلى بيت الأمة حيث نزلت صفية زغلول واحتضنت جثة الغلام وقبلته فى جبهته، وبعدها امتلأت الشوارع بالثورة وهى تحمل جثة الغلام المجهول وهى تهتف : يسقط الإنجليز!! الموت للإنجليز!! الموت للإنجليز!!

وساد الظلام كل مصر بعد أن تحطمت فوانيس النور، وأغلقت المسارح والسينما!!

واستدعت صفية زغلول محمود فهمى النقراشى باشا وطلبت منه توصيل رسالة إلى سعد زغلول فى ثكنة قصر النيل، وكانت رسالة صفية عبارة عن ثلاث كلمات فقط تدعو للدهشة والاستغراب، كانت الكلمات هي «أقبلك مليون قبلة»!!

واندهش النقراشى باشا من هذه الجملة، ولعله سأل نفسه: وهل هذا وقت القبلات؟ لكنه بالقطع لم يكن يعرف أن سعد زغلول كان قد اتفق مع صفية على شفرة تستعملها معه بعد القبض عليه مباشرة. فإذا لم تتحرك البلاد بعد القبض عليه لا ترسل له

شيئا!! وإذا تحركت ترسل له قبلة وإذا ثار البلد ترسل إليه مائة قبلة، وبقدر حرارة الثورة تكون حرارة القبلات وعددها!! وطلب سعد منها أن تقوم بتوصيل الرسالة إلى النقراشى الذى سيقوم بتسليمها إليه بطريقته الخاصة!!

وهكذا كتبت صفية رسالتها لكن للأسف لم يستطع تسلمها وبالتالى لم يعرف حتى مغادرته مصر بأن الثورة اشتعلت!!

وبعد سفر سعد زغلول علمت صفية بأن رسالتها لم تصل لسعد فأرسلت برقية إليه فى مالطة تقول «مليون قبلة.. صحتنا جيدة»!!

ولأن بريد سعد كان يخضع لرقابة مشددة، فقد شك الرقيب الإنجليزى فى مضمون هذه البرقية لامرأة عجوز ومغزى أن ترسل لزوجها العجوز مليون قبلة فى منفاه، وهكذا أخفى الرقيب البرقية عن سعد زغلول!!

□□

وفى يوم الجمعة ١٤ مارس ١٩١٩ سقطت أول شهيدة مصرية وكان اسمها حميدة خليل من حى الجمالية - أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة - وسقط معها حوالى ١٦ شهيداً من الرجال.

وفى ١٦ مارس، بدأت مظاهرة السيدات والآنسات فسرن فى حشمة ووقار من كرام العائلات، وأعددن احتجاجاً مكتوباً ليقدمنه إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر، وجاء فيه:

«يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية يحتججن على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة لا لذنب ارتكبته سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها.»

وخرج أهل القاهرة - كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى - لمشاهدة هذا الموكب البهيج الذى لم يسبق له نظير وأخذوا يرددون هتافاتهن، ومرت المتظاهرات بدور القنصليات ومعتمدى الدول الاجنبية لتقديم الاحتجاج المكتوب، ولكن الجنود الإنجليز لم يدعوا هذا الموكب البرىء يسير فى طريقه، فحينما وصلت المتظاهرات إلى شارع سعد زغلول يردن الوصول إلى «بيت الأمة» ضربوا نطاقا حولهن ومنعوهن من السير وسددوا إليهن بنادقهم وحرابهم مهددين، وبقيت السيدات هكذا لمدة ساعتين فلم يرهبهن هذا التهديد، بل تقدمت واحدة منهن - هدى شعراوى - وهي تحمل العلم إلى جندى كان قد وجه بندقيته إليها ومن معها وقالت له بالأنجليزية:

- نحن لا نهاب الموت.. أطلق بندقيتك إلى صدرى لتجعلوا فى مصر مسز «كافل» ثانية!!

ومسز كافل هى الممرضة الإنجليزية المشهورة التى أسرها الألمان فى الحرب العالمية الأولى واتهموها بالجاسوسية وأعدموها رمياً بالرصاص وكان لمقتلها ضجة كبيرة، فى العالم ، فخجل الجندى وتنحى للسيدات عن الطريق!!

وكتبت السيدات احتجاجاً ثانياً على هذه المعاملة الغاشمة وتم تسليمه لمعتمدى الدول الأجنبية ووقع على هذا الاحتجاج السيدات والآنسات الآتيه أسماؤهن: حرم حسين رشدى باشا حرم سعد زغلول باشا، هدى شعراوى حرم على شعراوى باشا وأكثر من مائة اسم من الأسماء الهامة.

كانت هذه المظاهرة حديث المدينة والقرية، وخرج شاعر النيل حافظ إبراهيم عن صمته ليكتب واحدة من أجمل قصائدة مجد فيها شعورهن وشجاعتهن وقال:

خرج الغوانى يحتججن ورحت أرقب جمعهنه!!

فإذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه

فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدجنه!!

وفيما بعد كتبت هدى شعراوى تعلق على هذه المظاهرة التى شاركت فيها فتقول:

«بينما كنت أتأهب لمغادرة منزلى فى ذلك اليوم للاشتراك فى المظاهرة بادرنى زوجي بالسؤال : إلى أين تذهبين والرصاص يدوى ويتساقط فى أنحاء المدينة؟!

فأجبته: للقيام بالمظاهرة التى قررتها اللجنة!!

فأراد أن يمنعنى فقلت له:

- هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط، وليس للنساء نصيب فيها؟!

فأجاب: هل يرضيك إذا تحرش بكن الإنجليز، أن تفزع بعض النساء ويولولن «يالهوتى»؟!

فقلت له: إن النساء لسن أقل منكم شجاعة أيها الرجال ولا غيرة قومية!!

□□

وبعد ساعات قليلة من اعتقال أعضاء الوفد، قام البوليس بتفتيش «بيت الأمة»!!

كان سعد زغلول زعيم الوفد والأمة خارج بيت الأمة، كان خارج مصر كلها!!

كان البوليس أول من يعلم أن صاحب البيت غائب من البيت، ومع ذلك وصلت قوات البوليس إلى بيت سعد زغلول!!

لم تكن صفية زغلول وحدها فى بيت الأمة بل كان معها ويقف إلى جوارها زملاء وأصدقاء وخلصاء زوجها سعد زغلول باشا.

كان واحد من هؤلاء هو سعد فخرى عبد النور الذى شاهد ماجرى ورواه فى مذكراته يقول:

كانت صاحبة العصمة أم المصريين موجودة وكنا بجوارها، فأراد الضابط أخذ أوراق من شكمجية كانت أم المصريين تحتفظ بها فمنعته من ذلك.

وقالت إن هذه الأوراق هى خطابات من والدى (مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء ومن زوجى إلىّ، إلا أن الضابط أصر على أخذها!! فأصرت أم المصريين على منعه من ذلك!!

فاتصل الضابط تليفونياً بمستر «أبلت» مساعد الحكمدار وأبلغه ماحصل فطلب منه أن يتركها مادامت أم المصريين تقول إنها خطابات من والدها ومن زوجها إليها!!

فخجل الضابط ـ وكان مأمور قسم السيدة زينب ـ من موقفه وانصرف.

ولم تكن صفية زغلول كاذبة فيما قالته للضابط الإنجليزى بشأن الخطابات الخاصة التى كانت تحتفظ بها!!

كانت هذه الخطابات بالفعل هى خطابات غرامية وعاطفية كان يكتبها لها زوجها الزعيم سعد زغلول!!

لم يصدق أحد أن داخل هذا الصندوق تحتفظ السيدة صفية زغلول بأجمل وأعذب وأرق خطابات غرام كتبها سعد زغلول لها، وكان بداخله منشورات الثورة أو على الأقل أسماء لها علاقة بالثورة!!

وكانت صفية زغلول صادقة وهى تحتضن هذا الصندوق وتصرخ فى وجه الضابط وكان الشرر يتطاير من عينيها قائلة:

ـ لن أدعكم تمسون هذا الصندوق!! لقد تركتكم تلوثون غرفة نومى بأقدامكم، لكني لن اسمح لكم بأن تلوثوا بأيديكم هذا الصندوق، إن فيه خطابات زوجى لى، ولن اسمح ليد أن تمتد إليها وأنا على قيد الحياة..

ويعترف الكاتب الكبير مصطفى أمين بأن صفية زغلول كانت تقول بأن زوجها تعود أن يكتب لها خطابا غرامياً فى كل مرة يتناول فيها طعامه خارج البيت!! وكان يحرص دائما على أن يعوضها عن غيابه عنها بكلمات رقيقة تنبض بالدفء والحب والحنان!!

واستمر سعد زغلول يكتب لصفية خطابات الغرام إلى مابعد سن الستين، فقد كان يؤمن بأن العمر لا يمكن أن يطفئ الحب.

ولم تلبث صفية زغلول أن أتخذت قراراً غريباً ومدهشاً ومحيراً بشأن كل هذه الخطابات العذبة الرقيقة!!

لقد قررت أن تحرقها وتتخلص منها إلى الأبد!!

يقول مصطفى أمين:

كانت أصابعها ترتعش وهى تخرج كل خطاب من المظروف وتقرأه على مهل، وتبلله بدموعها ، ثم تلقى به فى النار.

كانت صفية تخشى أن تقع هذه الخطابات فى أيد لا تعرف قيمة حبها وحب سعد فقررت أن تحرقها واحداً واحداً..

كانت لا تحرق ورقاً بل تحرق نبضات قلبها وهى تلقى بالخطابات فى النار، وفقد الأدب العربى أرق رسائل حب كتبها زوج إلى زوجته.!!

ولم يكن ذلك الزوج مجرد رجل عابر، ولا كانت تلك الزوجة مجرد امرأة عادية!!

كان الزوج هو الزعيم سعد زغلول!!

وكانت الزوجة هى أم المصريين !!

□□

كان كل يوم يمر كانت الثورة تزداد اشتعالا ضد الإنجليز، وتحول بيت الأمة إلى ملتقى كل الناس وكبار رجال الوفد، وفى إحدى المرات أحاطت الجماهير ببيت الأمة تصرخ وتطالب بالثأر من عساكر الإنجليز، وخرج عبد العزيز فهمى باشا يخطب فيهم، وكان من ابلغ وأعظم خطباء مصر، لكنه كان من مدرسة المعتدلين، فطالب الجماهير الساخطة بالصبر وأن تترك رجال الوفد يعملون بالطرق المشروعة، لكن الجماهير هتفت مزمجرة تقاطعه:

ـ الثورة.. الثورة.. الثورة!

وحسب مايقول الكاتب الكبير مصطفى أمين فى مذكراته: غضب عبد العزيز فهمى وخلع طربوشة ورماه على الأرض وهو يقول: ملعون أبوكم!!

ولكن لحسن الحظ أن صوته ضاع فى دوى الرعد الذى ينادى بالثورة!!

وكان منظره وهو فى ثورته يبعث على الضحك فى هذا الموقف الرهيب، وكانت صفية زغلول تطل من النافذة وترقبه وهو يخطب، ثم وهو يلقى طربوشه على الأرض غاضباً وظلت تضحك ربع ساعة بغير انقطاع، وكانت هذه هى المرة الأولى التى ضحكت فيها منذ نفى سعد زغلول!

ولم تكن صفية تحب عبد العزيز فهى باشا.. فقد كانت تعلم أن سعد عارض فى ضمه إلى الوفد، وقبل دخوله تحت إلحاح لطفى السيد!!

وفى اليوم التالى لوصول اللورد اللنبى إلى القاهرة (٢٥ مارس ١٩١٩) فوجئت «صفية زغلول» بحسين رشدى باشا رئيس الوزراء المستقبل يقترح عليها أن تذيع بيانا للشعب تدعوه للهدوء والسكينة والمحافظة على القوانين!!

وقالت «صفية» إن هذه وثيقة خضوع واستسلام ترفض أن توقعها، وانضم إليها فى هذا الرأى «عبدالرحمن فهمى» و«أحمد ماهر» والنقراشى.. وجميع أعضاء الجهاز السرى للثورة ثم فوجئت «صفية» بأن «رشدى» باشا أقنع عبدالعزيز فهمى «بإصدار هذا البيان وأن «عبدالعزيز فهمى» أقنع أعضاء الوفد بتوقيعه. وكان البيان واضحاً فى أنه تصفية كاملة للثورة!

وغضب الثوار احتجاجاً على هذا البيان الغريب، وقالت «صفية» إنها تؤيدهم فى أن هذا البيان فضيحة كبرى!!

وقالت «صفية» إنها ستطرد أعضاء الوفد ـ الذين وقعوا البيان ـ من بيت الأمة، وإن الذى كتب هذا البيان يستحق أن يضرب بالرصاص!!

وسمع «عبدالعزيز فهمى» هذا الكلام فثار، فقد كان هو كاتب البيان ـ وكان يرى أنه فى مصلحة البلاد فهدد بالاستقالة من الوفد وأنه لن يضع قدمه فى بيت سعد زغلول!!

وقيل له إن صفية لم تكن تعرف أنه هو الذى كتب البيان عندما طالبت بقتل كاتب البيان ورضى «عبدالعزيز فهمى» بأن يعدل عن استقالته ويعود إلى العمل وهو يضرب كفاً بكف ويقول:

والله عال ..الحركة أصبحت حركة عيال ونسوان!!

□□

وما لم يكن يعرفه «عبدالعزيز باشا فهمى» فى ذلك الوقت أن «صفية زغلول» صرحت لهدى شعراوى بأن كتابة البرقيات والاحتجاجات لا تكفى ويجب أن تخرج النساء إلى الشارع متظاهرات هاتفات بسقوط الاحتلال، واتصلت «هدى شعراوى» بزوجها «على شعراوى باشا» تعرض عليه الفكرة فذهل لكنه لم يستطع أن يقاوم الفكرة وخاصة بعد أن أخبرته بأن هذا رأى صفية زغلول وحرم محمد محمود باشا، فوعد بأن يعرض الفكرة على أعضاء الوفد ويبلغها بالنتيجة!!

وما كاد «على شعراوى» باشا يعرض الفكرة فى اجتماع الوفد حتى هاج وماج كل الأعضاء ورفضوا خروج النساء فى مظاهرة واعتبروا ذلك، وقاحة وقلة حياء!!

وكان من رأى الأقلية أنها مع تقديرها للوطنية التى أملت هذه الفكرة الجريئة، إلا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء إلى الشوارع!!

وكان تعليق «عبدالعزيز فهمى باشا» عندما سمع كل ذلك هو قوله:

أننى أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم تقترح خروج النساء للشوارع!!

وتضايق على شعراوى باشا من حديث عبدالعزيز فهمى باشا عن صفية زغلول من انها العاقلة الوحيدة، فمعنى ذلك أن زوجته - هو - المجنونة!! وقال إنه حاول أن يقنع زوجته بالعدول عن المظاهرة وأبلغته بأن صفية هانم هى صاحبة الفكرة.

وقال عبدالعزيز فهمى إنه سيتصل بصفية هانم ويبلغها قرار الوفد بأسلوب رقيق وقال لها:

- نحن نخشى بهدلة السيدات، ولو كان «سعد باشا» موجوداً لرفض أن تخرج السيدات الفضليات إلى الشوارع!!

وقالت صفية: أبداً إن من رأى سعد أن ثورة لا تشترك فيها المرأة المصرية لا يمكن أن تنجح!!

وفشلت كل المحاولات لإقناع «أم المصريين» بعدم قيام المظاهرة!!

وتذكرت «صفية زغلول» مادار بينها وبين «سعد زغلول» قبل قيام الثورة عندما قال لها:

ياصفية لقد قررت أن أضع رأسى على كفى اليمنى!!

فقالت صفية: وضع «ياسعد» رأسى على كفك اليسرى!!

□□

وحاول اللورد اللنبى منذ مجيئه تهدئة النفوس بلا جدوى، وتشهد القاهرة لأول مرة فى تاريخها حدثا لم تعرفه من قبل وهو إضراب موظفى الحكومة فى ٣ أبريل ١٩١٩، وبدت القاهرة كلها فى إضراب عام، وطلب اللنبى من شيخ الجامع الأزهر إغلاق المسجد ومنع الصلاة لكن الشيخ «محمد أبوالفضل الجيزاوى» رفض الطلب وتحداه، وارتكبت السلطات البريطانية عشرات المجازر والمذابح ضد الأهالى .. وكان الحل الوحيد أمام بريطانيا هو الإفراج عن سعد زغلول وصحبه!!

وإلى الفصل القادم



الهانم والزعيم



سعد لزوجته: أرجوك ما تبهدلنيش

- ملك بريطانيا يهنئ الملك فؤاد بزواجه!
- الخارجية البريطانية تصف كلام صفية بأنه بيان من نار!
- لجنة النساء الوفديات تختار صفية رئيسة شرف اللجنة!
- سفر صفية ومشاجرة بين سعد وعلوبة باشا!!

٩

فوجئت بريطانيا العظمى بثورة الناس فى مصر!!

كانت بريطانيا مندهشة لهذا الانقلاب المثير الذى جعل الشعب المصرى يخرج عن صمته وصبره وينطلق غاضباً، ساخطاً، ضد كل ماهو إنجليزى!!

ومنذ اعتقال «سعد زغلول» ورفاقه ونفيهم إلى مالطة فى مارس ١٩١٩، لم تنم مصر ليلة واحدة فى سلام..

وتفاقمت الحوادث، واستدعت بريطانيا السير ونجت لتقف منه على آخر تطورات الأحداث الدامية.. ولم يعد الرجل ثانية إلى مصر، وتم تعيين «الجنرال اللنبى» ليكون المندوب السامى البريطانى باعتباره أكثر قسوة وغلظة وشراسة، وكان الظن أنه هو الذى سيخمد ثورة المصريين!!

وهكذا جاء «اللنبى» إلى مصر يوم الثلاثاء ٢٥ مارس والذى لم يكن يعوزه الخبث والمكر واللؤم والخداع، وكان أحد تصريح له بعد ٢٤ ساعة من حضوره وقال فيه:

«لقد تعطف جلالة الملك بتعيينى نائباً عن جلالته فى مصر، ورغبتى وواجبى يقضيان علىّ بأن أساعد على إعادة السلام والأمن والراحة إلى البلاد ولى أغراض ثلاثة هى:

* أولاً : أن أضع حداً ونهاية للاضطرابات الحالية.
* ثانيا : أن أعمل تحريات دقيقة فى جميع الأسباب التى حملت أهل البلاد على الشكاوى.
* ثالثاً : أن أزيل كل الشكاوى التى تستوجب العدالة إزالتها.

وإن فى استطاعتكم أنتم أن تقودوا الشعب المصرى، والواجب يقضى عليكم أن تعملوا معى لمصلحة بلادكم، ولست أظن أن أحداً منكم يحجم عن مساعدتى بكل ما فى طاقته لإدراك الأغراض التى أسعى عليها، وإنى مستعد أن ألقى اتكالى عليكم لتبدأوا بالعمل حالا بقصد تهدئة الخواطر المتهيجة الآن.

وبعد إعادة الأمن إلى البلاد فإن لى ملء الثقة بأنكم تعتمدون علىّ بأن أنظر بلا محاباة فى جميع أسباب الشكاوى، وبأن أوصى بإجراء كل مايلزم لسعادة الشعب المصرى وراحته».

وقرأ كل الناس فى كل مكان بيان اللنبى وكما نشرته صحف ٢٧ مارس، وعلى الفور كان تعليقهم أن اللنبى كاذب فى كل مايقول!!

واستمرت الثورة فى كل مكان وتزايد إضراب جميع الفئات والطوائف فى المجتمع.

وعندما نشرت جريدة التايمز الإنجليزية تفاصيل مايجرى فى مصر فى عدد ٢ أبريل كان تعليق «سعد زغلول» هو بالنص:

«مهما كانت طبيعة الحوادث التى حصلت فى مصر بعد قيامنا فإنها جاءت قارعة شديدة فوق ما كان يقدر المقدرون، وعكست القصد على حزب الاستعمار، فألفتت العالم كله إلى أن هناك أمة مظلومة تطلب الإنصاف».

وفى ٤ أبريل كتب «اللنبى» إلى وزير خارجيته برقية سرية جاء فيها:

«إن السلطان يريد أن يبذل كل مافى وسعه لمساعدتى. إن السلطان يقترح إصدار منشور من شأن إصداره فيما أظن أن يحسن الموقف مؤقتاً، ولكن مالم تقدم حكومة صاحبة الجلالة بعض التنازلات فإن الحال ستعود إلى ماكانت عليه من سوء».

ثم أصدر السلطان «أحمد فؤاد» منشوراً إلى الأمة قال فى نهايته:

«إنى أطالب أبنائى المصريين بما لى من حق الأبوة عليهم أن يتواصوا بعدم الاستمرار على المظاهرات التى كانت عواقبها غير محمودة فى بعض الجهات وأن يخلدوا إلى الراحة والسكون وانصراف كل إلى عمله، وهذه هى يد المساعدة التى أطلبها منهم».

وفى اليوم التالى مباشرة - ٧ أبريل أعلن «اللنبى» قراره بالإفراج عن «سعد زغلول» وصحبه ويكون لهم حق السفر!!

وشهدت مصر من أقصاها إلى أقصاها مظاهرات فرح وابتهاج ليس لها نظير أو مثيل!!

وكلف السلطان أحمد فؤاد «حسين رشدى» بتشكيل وزارته الرابعة فى ٩ أبريل، ووافق رشدى باشا بهدف إيجاد أمل فى حل يرضى الأمة.

وأخيراً تقرر سفر الوفد المصرى إلى مالطة حيث التقوا بـ سعد زغلول وزملائه ثم أبحروا إلى باريس لبدء المفاوضات.

كانت مصر تغلى، واستقالت وزارة رشدى فى ٢١ أبريل، وتألفت وزارة «محمد سعيد باشا» فى ٢١ مايو ١٩١٩ التى قوبلت بمظاهرات غاضبة وعارمة فى كل مكان!!

وفجأة عرفت مصر كلها بما أدهشها وأثار غضبها فى نفس الوقت، فقد تزوج السلطان أحمد فؤاد من نازلى ابنة عبدالرحيم باشا صبرى!!

وخيبت نازلى كل توقعات وآمال سعد زغلول و صفية زغلول وتم زواجها بالفعل من السلطان أحمد فؤاد يوم ٢٤ مايو سنة ١٩١٩.

وصدر بلاغ كريم عن القصر السلطانى جاء فيه:

«نظر حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الأول سلطان مصر المعظم بعين الحكمة الدينية العالية إلى وجوب التمسك بما أوصى به الدين الحنيف من أمر الزواج والاهتمام به عملاً بسنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ورأى وفقه الله وأسعد أيامه إنجاز ماعقد عليه عزمه الشريف نحو ذلك وتم عقد القران السلطانى بقصر السلطان على سليلة بيوتات المجد والشرف حضرة صاحبة العظمة السلطانية نازلى، وقد تولى مولانا السلطان أيده الله قبول العقد بنفسه ولنفسه إجلالا لحكمة الشريعة المطهرة حيث كان الوكيل عن عظمة السلطانة حضرة صاحب المعالى والدها الماجد «عبدالرحيم باشا صبرى» وزير الزراعة حالياً.

جعله الله قرانا سعيداً محفوفاً باليمن والبركات عائداً على البلاد بالخير والسعادة وبجاه سيد العرب والعجم القائل «إنى مباه بكم الأمم يوم القيامة» صلى الله عليه وسلم».

ويعلق «أحمد شفيق باشا» فى حولياته السياسية على هذا الزواج فيقول:

«وكان جو البلاد مكفهراً والأحكام العرفية مطبقة على البلاد وخاصة المدن الكبرى، وكان السهر ممنوعاً والاجتماع محظوراً، واعتقال الناس مضطرداً، وكان اليوم السابق يوم إضراب عام فى كل مدن القطر، وكان احتجاجاً على تكليف عظمة السلطان لدولة محمد سعيد باشا بتأليف وزارة جديدة، وكان هذا خرقاً للاتفاق الذى تم على ألا تقوم حكومة فى ظل الأحكام العسكرية والاحتلال».

وسارع «جورج الخامس» ملك بريطانيا بإرسال برقية تهنئة للسلطان أحمد فؤاد قال فيها:

«أرجو من عظمتكم أن تتفضلوا بقبول صادق تهانى وأحسن أمانى لمناسبة زواج عظمتكم وأدعو الله أن يكون هذا القران الميمون مبشراً بعودة النظام والاطمئنان فى مصر وطالع سعد لخير البلاد ومستقبلها».

وكان من الطبيعى أن يشكر السلطان فؤاد الملك جورج الخامس ويرسل له قائلاً:

«أرجو من جلالتكم أن تتفضلوا بقبول فائق تشكراتى للتمنيات والتهانى اللطيفة التى تفضلتم بتوجيهها إلىّ لمناسبة قرانى ولما أعربتم عنه من أمانى الخير والسعادة لمستقبل مصر».

كان اللافت للنظر أن نساء مصر لم يكنّ مشغولات أو مهتمات بأمر ذلك الزواج كانت النساء مشغولات تماماً بأمر آخر!

وفى الخميس ٨ يناير ١٩٢٠ تم إجراء انتخابات لجنة الوفد المركزية للسيدات وفازت هدى شعراوى (حرم شعراوى باشا) بأعلى الأصوات، وكانت ١٣٩ صوتاً!

وسرعان ما أصبحت هدى هانم شعراوى هى الرئيسة للجنة، وفى الاجتماع الثالث للجنة الوفد المركزية للسيدات فى ٣٠ يناير ١٩٢٠ تناولت عدة مسائل كان من بينها:

١ ـ عرض إرسال شكر لمعالى سعد باشا رداً على رسالته البرقية فوافق الجميع.

٢ ـ اقتراح بجعل حرم سعد باشا رئيسة شرف وممثلة للجنة فى باريس وإفادتها بذلك مع شكرها على برقيتها، فصدق على ذلك بالإجماع.

وفى مذكرات «هدى شعراوى» إشارة لهذه البرقيات فتقول:

أرسلت صفية هانم زغلول برقية من باريس بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٢٠ تقول فيها:

«مدام شعراوى باشا.

معكم قلبيا، تأثرت تأثراً عميقاً. أرجو أن تعدونى ضمن الشقيقات المصريات اللاتى أعطينكن التفويض للتكلم باسمهن. كانت ساعة مباركة تلك التى وجدتنا مستعدات للمطالبة باستقلال بلادنا رغم كل المخاطر التى تحيط بها.

ماكنا لنستطيع أن نعيش فى مصر وهى محتلة بعد ما ضحى أولادنا الأبرياء بأرواحهم لأجل أن تكون حرة إلى الأبد».

وأرسلت برقية منى رداً على هذه البرقية بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٢٠ هذا هو نصها:

مدام زغلول باشا:

٤٢ شارع جورج الخامس – باريس.

«إننا فخورات بانضمامك إلى لجنتنا، ونرجوك قبول انتخابك رئيسة شرف وبفضلك ستكون مجهوداتنا أكثر توفيقاً، واثقات من النجاح النهائى».

ويقول «محمد علوبة باشا»

«عندما قررنا السفر إلى لندرة (لندن) فى ١٩٢٠ للمفاوضة سأل «حمد الباسل» سعداً بحضورنا عما إذا كانت السيدة حرمه ستسافر أيضاً إلى (لندرة) فأجابه بجواب غير طبيعى ولا منتظر إذ قال له:

– وما شأنك والسيدة حرمى.. إنها سفاهة!!

وعز ذلك على حمد الباسل فقال له من فوره:

- هل أنا سفيه؟ أنت السفيه!

وأخذ سعد ولم يحر جوابا لأنه هو المخطىء!!».

وعقب اعتقال السلطات الإنجليزية لسعد زغلول ورفاقه، تناسى خصوم «سعد» كل عداوات الأمس وقرروا أن يقفوا صفاً واحداً، وكان أخطر ماقرره خصوم سعد فى بيان صدر بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٢١ هو أن تبقى الرياسة لمعالى سعد زغلول باشا فلا ينتخب رئيس جديد للوفد، إنما ينتخب سكرتير يمضى أوراقه إلا إذا رأى الوفد أن يوقع جميع الأعضاء.

وأن تعقد أول جلسة باكر (٢٨ ديسمبر) فى محل اجتماع الوفد بمنزل معالى سعد زغلول باشا.

ويروى محمد على علوبة باشا (عضو الوفد ثم مؤسس حزب الأحرار الدستوريين) واقعه هامة يقول فيها:

«وفى اليوم التالى ذهبنا جميعاً إلى منزل سعد، ودخلناه وسط هتاف الجموع المحتشدة خارجه، وما أن جلسنا بإحدى حجراته حتى ارتأى «واصف بطرس غالى» أن يقابل السيدة حرم سعد.

وبعد دقائق عاد إلينا واقتربت السيدة حرم سعد من باب حجرتنا وحيتنا ببضع كلمات فرددنا تحيتها وواسيناها وأفهمناها أننا سنواصل الجهاد. ثم انصرفت وتبعها «واصف غالى» الذى أصبح من ألصق التابعين لـ سعد ، ثم رجع إلينا يخبرنا أن السيدة «حرم سعد» تريد أن يعرض عليها كل قرار يصدره الوفد لتقره قبل إعلانه(!!).

وحمل إلينا «واصف غالى» هذا الطلب العجيب، ولمحنا منه موافقته عليه فاشمأززنا وأدركنا أن هذا النفر من أتباع سعد لم يقدروا وقوفنا معهم رغم ما ارتكبوه نحونا فى الماضى، فهم يريدون الآن إذا صدر قرار من الوفد بأكمله أن يبحثوه فيما بينهم، وبين السيدة حرم سعد زغلول وجعلوا لها حق الفيتو، وهى سيدة محترمة لكنها بعيدة كل البعد عن السياسة، وتقضى علينا الرجولة أن نحتقر هذا المسلك، فأظهرنا لهم ذلك.

وخرجنا مصرين على قطع الصلة نهائياً بهؤلاء النفر، خرجنا جميعاً عدا حمد الباسل الذى ارتأى الانضمام إليهم.»

وذات يوم أصدر القائد العام البريطانى أمراً عجيباً، وهو يقضى بالسجن خمس سنوات على كل من يذكر اسم سعد أو ينشره فى جريدة، أو يردده فى مكان عام أو يشير إليه فى منشور!! وكان الإنجليز يتوهمون أنهم إذا منعوا اسم سعد فسوف ينساه المصريون.

وخطرت لـ صفية زغلول فكرة عجيبة، فقد أحضرت ختما من الكاوتشوك كتبت عليه «يحيا سعد وأصبحت تطبع هذه الكلمة على كل ورقة من أوراق البنكنوت!! واشتركت السيدات فى هذه العملية وأصبحت مئات الألوف من الجنيهات والخمسين قرشاً عبارة عن منشور يحمل كلمة يحيا سعد، وإذا بالمصريين جميعاً يكتبون على كل ورقة بنكنوت فى جيوبهم كلمة يحيا سعد!

وفوجىء الإنجليز بأن كل مصرى فى جيبه ورقة مكتوباً عليها يحيا سعد وصدر الأمر بطبع ورق بنكنوت جديد، ولكن هذه العملية احتاجت إلى عدة شهور!!

ويكمل مصطفى أمين قائلاً:

وفجأة خرجت المطربة «منيرة المهدية» بأغنية من نظم الأستاذ محمد يونس القاضى يحتال فيها على تذكير الشعب بـ سعد، تذكير الذين لايملكون فى جيوبهم «ورق بنكنوت» وكانت الأغنية تقول: «يابلح زغلول.. ياحليوة يابلح!! يابلح زغلول!! عليك بنادى!! فى كل وادى، وأقول يابلح! يابلح زغلول!!».

□□

وكانت «صفية زغلول» هى أول من فكر فى تصميم علم للثورة مؤلف من الهلال والصليب وقد صنعت هذا العلم بيدها فى بيتها، واشتركت فى صنعه معها عدد من السيدات بينهن زوجتا «سينوت حنا» و«مرقص حنا» وكان العلم مصنوعاً من الحرير، ولم يلبث أن أصبح بعد ذلك العلم الوحيد الذى ترفعه كل المظاهرات فى الثورة!

وكانت صفية زغلول مهتمة اهتماماً عجيباً بوحدة الصليب والهلال.. وكانت تقول إن وصية سعد الوحيدة إليها يوم نفيه هى وجوب المحافظة على وحدة المسلمين والأقباط.

وذات يوم علمت «صفية» بخبر أزعجها، ففى الوقت الذى أضرب فيه جميع الوزراء المصريين، عين الإنجليز وزيراً قبطياً هو يوسف وهبة باشا رئيساً للوزارة!

وجنّت «صفية» وقالت إن الإنجليز قصدوا بهذه العملية أن يقسموا الأمة ويفرقوا بين الأقباط والمسلمين، وأرسلت تستدعى «عبدالرحمن فهمى بك» سكرتير لجنة الوفد المركزية وقالت له:

- إن قبول قبطى تأليف الوزارة مصيبة!!

وقال لها عبدالرحمن فهمى فى اليوم التالى إن طالبا فى مدرسة الطب ألقى قنبلتين على يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء، وأن المهم أن هذا الطالب قبطى اسمه عريان يوسف سعد!!

وقالت صفية إننى أريد أن أقبل هذا الشاب!!

قال عبدالرحمن فهمى لقد قبضوا عليه!!

قالت منزعجة : لا تدعوهم يقتلونه.. حاولوا أن تخطفوه!!

وبذلت محاولة لخطف الطالب القبطى لكنها فشلت، وحكمت المحكمة العسكرية البريطانية بإعدام عريان سعد لكنها اضطرت تحت ضغط الرأى العام لاستبدال حكم الإعدام إلى السجن المؤبد!!

□□

وفى بعض المواقف الأخرى لم تكن «صفية زغلول» تملك كل هذا القدر من ثبات الأعصاب ورباطة الجأش.

حدث أثناء اجتماع فى بيت الأمة بين صفية زغلول وعبدالرحمن فهمى وأحمد ماهر والنقراشى وبعض أعضاء الجهاز السرى للثورة، أن صفية راحت تخطب فيهم بعبارات نارية، وتدعو لاستمرار الثورة وتحدى الإنجليز فى كل مكان، وفى الاستهانة بالموت أمام المدافع والرصاص.

وفجأة صرخت صفية وقفزت واقفة فوق المقعد، وقد ارتسمت عليها كل علامات الخوف والفزع والرعب وصاحت تقول:

– الحقونى .. الحقونى!!

وذهل الثوار الموجودون من صرخات صفية، وتلفتوا حولهم فلم يروا شيئاً.

لكن صفية أشارت بيد مرتعشة إلى الأرض، وتلفتوا جميعاً حيث تشير ليجدوا، صرصاراً!!

وغرقوا جميعاً فى الضحك والابتسام، فالمرأة التى لاتخاف الموت وأساطيل الإنجليز ورصاصهم تخاف من رؤية صرصار!!

وتزايد الغضب.. وفى ٧ ديسمبر ١٩٢١ دعا سعد زغلول الأمة لمواصلة الجهاد وختم نداءه بقوله «فلنثق إذن بقلوب كلها اطمئنان، ونفوس ملؤها استبشار، وشعارنا الاستقلال التام أو الموت الزؤام». ودعا لاجتماع كبير تحدد له يوم ٢٣ ديسمبر، لكن السلطات البريطانية أنذرته بعدم إلقاء خطب أو الكتابة فى الصحف أو المشاركة الفعلية فى الشئون السياسية وأمرته بمغادرة القاهرة والإقامة فى الريف، ولم يبال «سعد زغلول» بذلك كله ورد بكتاب بعث به إلى الجنرال «كليتون» مستشار وزارة الداخلية برفض كل ما جاء فى الإنذار البريطانى وقال فى ختامه:

«وسأبقى فى مركزى مخلصاً لواجبى وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفراداً وجماعات، فإننا جميعاً مستعدون للقاء ما تأتى به بجنان ثابت وضمير هادىء».

وكان غريباً أن يصدر الجنرال اللنبى أمراً عسكريا يوجب على البنوك والأفراد الامتناع عن صرف أى مبلغ مودع باسم سعد أو باسم الوفد أو أحد أعضائه إلا بإذن كتابى منه!!

وهكذا فى صباح الجمعة الموافق ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ تم اعتقال سعد زغلول وصحبه!!

□□

أما عن مشهد وتفاصيل اعتقال سعد زغلول للمرة الثانية فقد رواها الأستاذ عباس العقاد على النحو التالى وحسب ما جاء فى كتابه سعد زغلول سيرة وتحية:

قضى سعد سهرته إلى منتصف الليل يتحدث إلى زائريه ويؤكد لهم إيمانه بغلبة الحق على الباطل واستعداده للقاء كل ما تضمره له القوة من إرهاب أو انتقام وكان يتبسط فى أحاديثه كعادته فى بعض الأحيان حين تحدق به الخطوب. ثم صعد سعد إلى حجرته لينام عند منتصف الليل، وأصبح الصباح فى اليوم التالى غائما مطيراً قارس الهواء، واستيقظت السيدة الجليلة قرينة سعد قبيل الساعة السابعة فأيقظته، وسألته هل يريد أن ينهض من فراشه؟! فقال إنه يفضل الاستراحة هنيهة ولا موجب للاستعجال!!

ولم تحن الساعة الثامنة حتى جاءتها الخادمة تنبئها أن ضابطين إنجليزيين يقفان عند باب الحرم وأن الجند يحيطون بالبيت من كل جانب، فأسرعت إلى سعد وهى تقول فى لهجة التهكم التى تعودت أن تسمعها من زوجها فى أمثال هذه الساعات: إن الذين تنتظرهم قد جاءوك!!

وذهبت إلى غرفتها ترتدى ثيابها وتتهيأ لمصاحبته إلى حيث ينوون أن يأخذوه كما اتفقا منذ تلقى الإنذار وأرسل جوابه عليه، فوجدت عند أعلى السلم وعند أسفله جنديين شاهرين سلاحهما يحميان الطريق، ونزلت إلى الحديقة فوجدت فيها بضعة عشر جنديا ثم تقدم إليها إنجليزى فى الملابس المدنية يسألها بالفرنسية: أين سعد باشا؟!

فقالت إنه يلبس وينزل وسأكون أنا فى صحبته حيث سار!!

فقال : لا أدرى هل تسمح القيادة العليا أو لا تسمح؟!

فطلبت إليه أن يسأل رؤساءه، وذهب ضابط يرافقه إلى التليفون ثم عاد يقول:

- ليس فى وسعنا أن نجيبك إلى طلبك (وعاد يسأل وهو متأفف) لقد أبطأ سعد باشا فلماذا لم ينزل إلى الآن؟!

ولم ينتظر غير لمحة واندفع إلى السلم ومعه ضابط آخر إلى حجرة الرئيس ففتحاها عليه وأرادا أن يأخذاه قبل أن يفرغ من لبس ثيابه فأبى فى غضب واشمئزاز، وكان

عند الضابطين من الأدب ما يكفى لاحترام هذا الشعور المعقول، فتمهلا قليلاً حتى فرغ من ارتداء ثيابه ونزل إلى الحديقة فأحاط به الجند وبالسيدة التى سارت إلى جانبه لتركب معه السيارة العسكرية حيث كانت واقفة على الباب. فلما بلغته أنبأها الضابط أنه لا يستطيع السماح لها بالركوب، فأصرت على أن تركب، وهمّ بعض الجند أن يمنعها بالقوة، فالتفت إليها سعد وهو يقول:

ـ ياصفية، أرجوك ماتبهدلنيش!!

فقالت : لا عاش من يبهدلك ياسعد!!

وثابت إلى عزيمتها المعهودة فى لمحة عين، ووقفت حيث هى لا يبدو عليها جزع ولا بكاء بل التفتت إلى الباكين من حولها تزجرهم وتوصيهم بالجلد والسكون».

وبعد أيام من نفى سعد ورفاقه أصدرت أم المصريين بياناً غاضبا قالت فيه:

«لما رأيت الجنود يطوفون بالبيت ويملأون الحديقة وينتزعون سعداً كان أول شعور قام بنفسى أن أتبعه خطوة بخطوة أينما شاءت القوة أن تذهب به، فلما رأيتكم تقتلون تحول إليكم فجأة كل حبى وإحساسى وشعرت فى أعماق قلبى بأننى غير مستطيعة أن أترككم فى مثل هذا الوقت العصيب وبأن من واجبى أن أقاسمكم حظاً شاءته الأقدار لكم.

ولئن كانت خدمتى لـ سعد لازمة، وهو محتاج إليها الآن حاجة قصوى، فأنا أعلم أنه عن مسلكى راض، وبهذا التضحية مغتبط، لأنه ضحى من أجل الوطن بكل شىء بسكينة وارتياح.

«أبنائى البررة.. لقد أثبتم أنكم مستعدون لبذل دمائكم فداء للوطن، حتى لو لم يكن فى ذلك البذل إلا أن تثبتوا للعدو أنكم بواسل تفضلون الموت على أن تعيشوا عبيداً أذلاء».

وحسب ما جاء فى مذكرات السيدة «سيزا نبراوى» التى عاصرت وشهدت وقائع تلك الفترة تقول:

«وكان لهذا البيان فعل السحر فى الشعب المصرى، فأرسل اللورد اللنبى إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول:

ـ مدام زغلول باشا نشرت بيانا من نار، هذه المرأة أقوى من ألف رجل، أرى أن وجودها فى مصر خطر. أرى السماح لها بالسفر مع زوجها.

وجاء رد وزارة الخارجية البريطانية بالسماح لأم المصريين بالسفر فوراً إلى زوجها، فقالت أم المصريين: «لا.. سعد ذهب وأنا هنا مكانه».!!

وتدهورت الحالة الصحية لـ سعد زغلول أثناء وجوده فى جزيرة سيشل!!

وكانت أخبار صحة سعد زغلول المتدهورة تصل إلى مسامع صفية زغلول فيمتلئ قلبها بالحزن والأسى!!

كتب سعد زغلول يقول لأحد أصدقائه:

«وصلنا إلى سيشل ولا أحدثك عن حرارتها ورطوبتها وقد مرضت فى الجزيرة ومكثت مع إخوانى ونحن ممنوعون من الكلام وخاصة عن الصحة أو الطقس فلا ينبغى لنا أن نقول بأن صحتنا غير جيدة ولا يصح لنا أن نقول إن هواء سيشل غير مناسب لأن الكلام بذلك ضد النظام العام.

ولا أخفى عليكم أنى تألمت أشد الألم يوم علمت أنهم هاجموا منزلى وفتشوا «حرمى» ولكنى لم ألبث أن زال الألم من نفسى عندما علمت أن شريكتى فى الحياة لم تتألم وأنها تلقت هذه المعاملة الغاشمة بالصبر الجميل.»

وفى تلك الأيام تعرضت صفية زغلول لقصة غريبة ومثيرة، روى تفاصيل ما جرى لأم المصريين الكاتب الكبير مصطفى أمين فكتب يقول:

«وفى ذات يوم جاءت سيدة إنجليزية إلى البيت وطلبت مقابلة «صفية» وقالت إنها قادمة من جزيرة سيشل وتريد أن تخبرها عن الحالة هناك. وأسرعت صفية إلى استقبالها، وإذا بالسيدة الإنجليزية تنبئها بأن سعد على وشك الموت!! إن صحته فى انهيار مستمر!! وأن الجو فى سيشل أشبه بالجو فى جهنم. إن البيضة إذا وضعت فى الشمس تسلق بغير حاجة إلى إشعال وقود.

وأفاضت السيدة فى وصف العذاب الذى يتعرض له سعد فى منفاه.. وسكتت السيدة ورأت الدموع فى عينى صفية فقالت لها:

ـ ماذا تقولين؟! إننى أفضل أن يموت سعد وهو زعيم الثورة على أن يعيش وقد تخلى عن الشعب الذى وثق به، ومات شبابه وهم يهتفون باسمه!!

وعرف بعد ذلك أن هذه السيدة لم تكن غير رجل من المخابرات البريطانية تنكر على هيئة امرأة ليقوم بهذه المهمة، ونشر بعد ذلك أن هذه السيدة هى الجاسوس البريطانى المشهور.. لورانس!!»

وكانت صحة «سعد زغلول» فى سيشل تزداد تدهوراً يوماً بعد يوم، وبعد الكشف الطبى عليه فى ٢٣ يوليو ١٩٢٢ اكتشف الطبيب ارتفاع نسبة السكر لديه، وأن قلبه يعانى ضعفاً شديداً، ومن ثم اقترح الطبيب ضرورة نقله من سيشل!!

وتم تبادل برقيات بين المسئولين البريطانيين الذين وافقوا على قرار بنقل «سعد زغلول» إلى مستعمرة جبل طارق!!

ولم تكن كل تلك الأخبار والتطورات غائبة أو خافية عن «صفية زغلول»!!

وكان قلقها على صحة وحياة سعد زغلول يتزايد ساعة بعد ساعة وقررت أن تسافر إلى سيشل لتكون بجوار سعد زغلول.. واتصلت صفية زغلول بالمندوب السامى البريطانى وأبلغته برغبتها الشديدة فى السفر إلى سيشل لتكون بجوار سعد زغلول.

وفى يوم ١٠ أغسطس ١٩٢٢ تلقت السيدة «صفية زغلول» خطابا من دار المندوب السامى البريطانى، وجاءت سطوره على النحو التالى:

«حضرة السيدة حرم سعد باشا زغلول

كلفنى فخامة المندوب السامى بإخبارك بورود خطابك الذى تطلبين منه فيه تسهيل سفرك إلى سيشل، ويخبرك اللورد أن حكومة جلالة ملك بريطانيا تبحث فى الوقت الحاضر فى (أصوبية) - صواب - نقل معالى «سعد زغلول باشا» إلى مكان يكون فيه الجو أكثر ملاءمة لحالة صحته، ولذا يرى أن تؤجلى سفرك لميعاد آخر.

ويأمل فخامته أن يتمكن بعد بضعة أسابيع أن يعطيك معلومات أدق عن القرار الذى تتخذه حكومته، وكلفنى أن أؤكد لك أنه يكون حينذاك مستعداً أن يسهل كل الطرق لالتحاقك بزوجك.

وأرجو أن تتفضلى بقبول احتراماتى.

(السكرتير الأول بالنيابة)

وفى ذلك الوقت تلقت «صفية زغلول» تلغرافاً من سعد زغلول يشير إلى احتمال نقله من «جزيرة سيشل» إلى مكان آخر!!

ولم يحدد سعد زغلول اسم هذا المكان لزوجته، وفى نفس الوقت جرت بعض الأمور التى أثارت انزعاج وقلق وخوف «صفية زغلول» على حياة زوجها!!

وحسب شهادة «فخرى عبدالنور» قوله:

«ولوحظ أن زوجات أعضاء الوفد الذين حكم عليهم بالإعدام يتلقين تلغرافاً من سيشل موقعاً من كل المنفيين ماعدا سعد باشا، فقلق الجميع لذلك وتساءلوا عن السبب فى عدم توقيع سعد باشا لهذا التلغراف ولم يعرفوا على أى وجه يصرفونه (أى يفسرونه) ولما رأت صاحبة العصمة أم المصريين هذا التلغراف، أسرعت بإرسال تلغراف إلى اللورد اللنبى تطلب فيه أن يعرفها بما يعرفه من أخبار سعد باشا وتقول إنها لم تتلق منذ يوم ٨ أغسطس خبراً عنه.

فأرسل إليها اللورد اللنبى رداً تلغرافيا قال فيه:

«إن الأخبار التى لديه إلى الآن لا تدع مجالا للقلق على صحته».

ثم وعدها (اللنبى) بأن يكتب لها خطاباً فى هذا الشأن.

وظلت صفية زغلول على هذا القلق حتى صباح يوم ٤ سبتمبر ١٩٢٢ حيث تلقت كتاباً من السكرتير الأول بدار الحماية بالإسكندرية مؤرخاً فى ٢ سبتمبر نصه:

«أتشرف بأن أذكر هنا الخطاب نمرة ١٤٠٨٦ المؤرخ فى ٩ أغسطس سنة ١٩٢٢ وهو الذى أبلغك المندوب السامى فيه أن الحكومة البريطانية تنظر فى مسألة نقل زوجك صاحب المعالى سعد باشا زغلول من جزر سيشل إلى مكان آخر يكون الجو فيه أوفق لصحته.

وقد كلفنى اللورد اللنبى أن أخبرك بأنه تقرر فى لندن غادر زوجك جزر سيشل يوم ١٦ أغسطس وقد وصل أخيراً إلى جبل طارق حيث أعد له منزل ومع زوجك خادمة وطاهية.

هذا ولك الحرية فى أن تلحقي بزوجك إن كنت تريدين، فإذا أردت اللحاق فاللورد اللنبى يرجو منك أن تخبريه بالوقت الذي تحبين أن تسافرى فيه كي يبلغ ذلك حكومة جبل طارق».

وأخيراً تلقت صفية زغلول برقية من سعد زغلول يدعوها فيها للسفر إليه!!

وعلى الفور كتبت صفية إلى المندوب السامى البريطانى برقية تقول فيها:

«سبق أن تشرفت بإخبار فخامتكم أن حالتى الصحية تمنعنى مؤقتاً من اللحاق بزوجى فى جبل طارق، وأفيد فخامتكم الآن أنى لا أزال إلى اليوم منحرفة الصحة، ولكنى رغم هذا المرض لا يسعنى إلا التعجيل بالسفر فقد ورد فى مساء الأمس من زوجى تلغراف مقلق كثيراً يدعونى فيه للسفر إليه ولذا فإنى أرجو من فخامتكم أن يصل إلىّ التصريح بسفرى ومعى سعيد بك زغلول أحد أفراد العائلة، وسيدة لمرافقتى وخادمة وأرجو أن يشمل جواز التصريح لى ولمن سيسافرون معى بالعودة إلى القطر المصرى».

صفية زغلول

كانت برقية صفية زغلول للمندوب السامى بتاريخ ٢١ سبتمبر، وفى اليوم التالى تلقت هذه البرقية من المندوب السامى الذى كان موجوداً فى مدينة الإسكندرية.

باكوس فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٢.

«حرم زغلول باشا

القلم المختص بإدارة الأمن العام ستعطى إليه التعليمات اللازمة غداً صباحاً وهو سيتخابر مع قلم جوازات السفر.» *«اللنبى»*

وكتب مصطفى أمين يصف مشهد سفر «أم المصريين» فقال:

«لم يبق فى القاهرة طفل ولا رجل ولا شيخ ولا امرأة إلا وخرج إلى الشارع ليحيى أم المصريين التى ستسافر لتشارك زوجها فى منفاه. خرج سكان القرى على الخط الحديدى من القاهرة إلى بورسعيد، النساء يزغردن لها والرجال يزفونها بالطبول والمزامير، القطار نفسه كان مغطى بالأجساد البشرية التى تسلقت فوق ظهره ترفع الأعلام. وكان الناس يلقون بأنفسهم أمام القطار ليوقفوه ويحمّلوا صفية رسائلهم إلى سعد.

وكان بعض الفلاحين يستحلفونها أن تعنى به وأن تسهر على راحته، وأن تعود به سالماً.

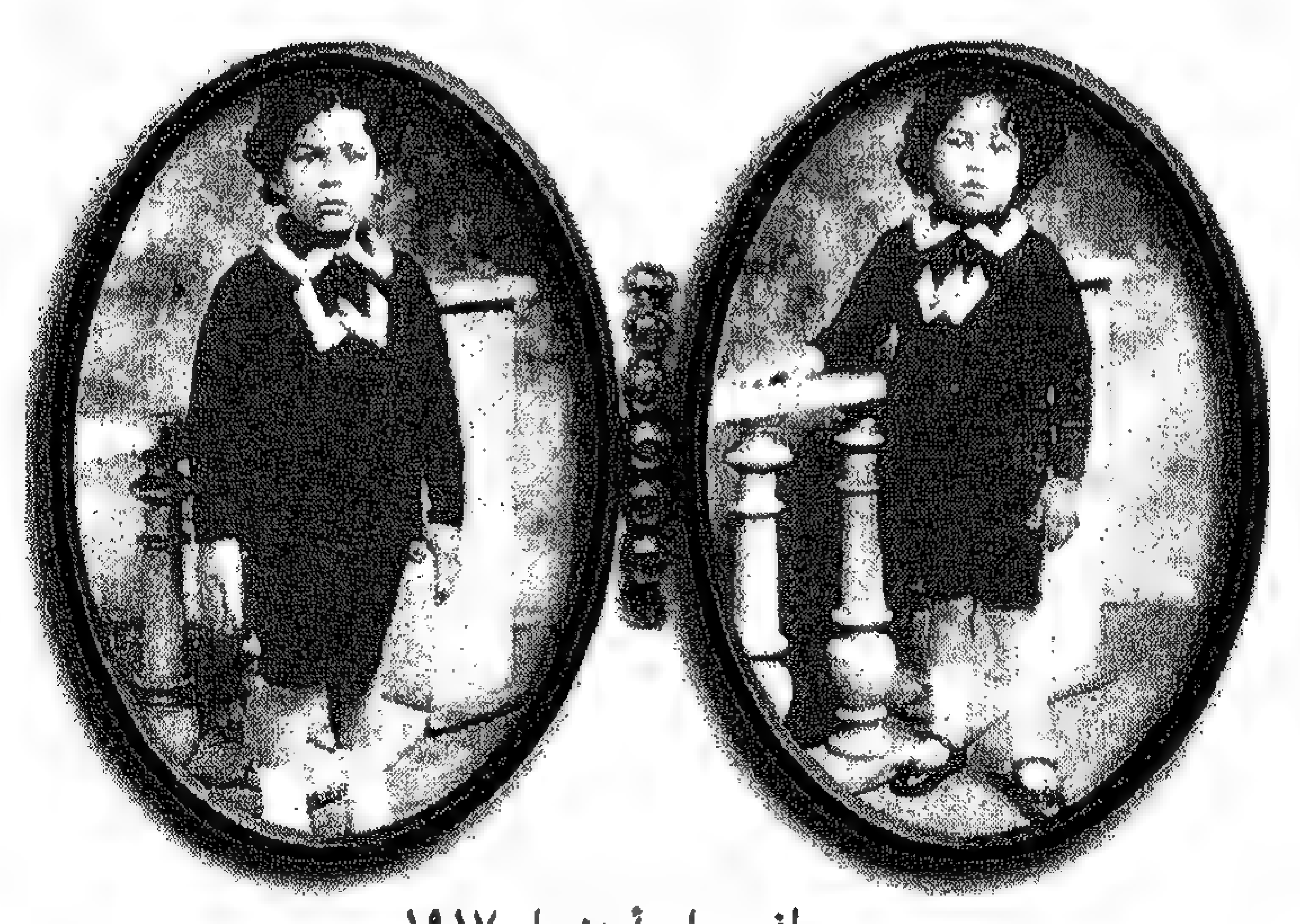
وكانت صفية تقول لهذه الجماهير من نافذة القطار:

- فى يدكم وحدكم أن تجعلوا سعداً يعيش. وإذا استمرت الثورة فسوف يعيش ويعود، وإذا ماتت الثورة فسوف يموت فى منفاه ولن يعود!!

وما كادت الباخرة تتحرك من بورسعيد تحمل صفية إلى جبل طارق حتى تحركت الثورة من جديد! وضاعفت السلطة من بطشها وطغيانها.

وجن جنون السلطة البريطانية للمظاهرة التى أقامها الشعب وداعاً لـ صفية زغلول عند سفرها إلى جبل طارق».

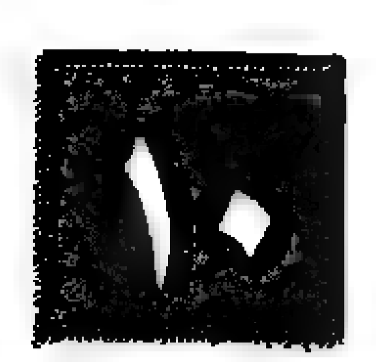
وإلى الفصل القادم



مصطفى وعلى أمين عام ١٩١٧

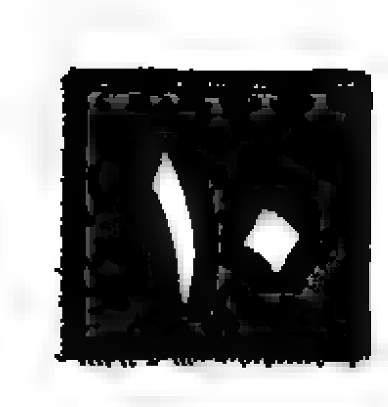


سعد فى مستشفى الروضة



سعد وصفية .. أيام المنفى ؟

- عشرات السيدات يقترحن مصاحبة صفية ؟
- صفية تشكو لسعد : وجهى لم يعد يحتمل الشمس ؟
- سعد يؤكد : كلما تعلمت المرأة أنجبت أولاداً متعلمين ؟
- صفية تسلى نفسها بالأشغال اليدوية ؟



ووصلت «صفية زغلول» إلى المنفى حيث يقيم زوجها «سعد زغلول» وباقى رفاقه!!.

كان قد سبق أن سافرت «صفية زغلول» بصحبة «سعد» إلى خارج مصر أكثر من مرة!..

لكن هذه كانت أول مرة تسافر فيها «صفية» إلى منفى زوجها، حيث أمرها بضرورة اللحاق به لحاجته الشديدة إلى وجودها بجواره!

وهكذا عاشت «صفية» تجربة المنفى بكل آلامها وعذابها وجحيمها كامرأة وزوجة أيضاً!!

سافرت مع «صفية زغلول» وقتها السيدة «فهيمة ثابت» وهى سيدة من أكرم العائلات المصرية، وكان والدها «حسين بك ثابت» رئيس محكمة أسيوط، كما كانت هى وشقيقاتها فى مقدمة زعيمات ثورة ١٩.

ماجرى فى جبل طارق مثير وهام!!

بدأ اتصال السيدة «فهيمة ثابت» «بصفية زغلول» عقب مظاهرة السيدات الأولى فى مارس ١٩١٩ وبعد اعتقال «سعد زغلول» ورفاقه..

سارت المظاهرة النسائية وهى تهتف وتندد بالإنجليز، وسرعان ما تم حصار هذه المظاهرة بمجرد وصولها إلى «بيت الأمة»، وصعد عدد كبير من هؤلاء النساء إلى لقاء «أم المصريين» ثم هبطت إحداهن وهى تخطب فى النساء قائلة:

- إن أم المصريين وهى تحيى حضراتكن ترى من اللائق التزام جانب الهدوء والسكينة بعدما عبرت المصرية بموقفها من الجهاد لإنقاذ وطنها العزيز.

بعد ذلك تم تنظيم مظاهرة نسائية ضخمة طافت شوارع القاهرة بالسيارات، وقدمت النساء احتجاجات إلى قناصل الدول ثم عدن إلى بيت الأمة، وكانت «صفية زغلول» فى استقبالهن «بالترحيب والتشجيع» وكانت هذه هى المرة الأولى التى تلتقى فيها السيدة «فهيمة ثابت» بأم المصريين!!

ثم تمضى «فهيمة ثابت» تقول فى مذكراتها بعد ذلك:

- «فى صبيحة يوم الاعتقال دق ناقوس الهاتف من منزل إحدى صديقاتى فقالت إن السلطة اعتقلت «سعد» ونقلته فى عربة مقفلة، ولا يعلم إلا الله أين هو الآن؟!»

فاستولى علينا الذعر لذلك أسرعنا إلى بيت الأمة، حيث تلتقى جماعتنا لمواساة أم المصريين، التى راحت بدورها تروى للنساء الحوار الذى دار بينها وبين اللورد اللنبى عندما فاجأته بقولها:

- «إنى طلبت إليكم أن تعتقلونى مع قرينى سعد لأتولى السهر على راحته لأنه مريض ويحتاج لعنايتى فلم تقبلوا(!!) ولما علمتم أن الوفد يجتمع فى بيت الأمة أرسلت تصرح لى بالسفر واللحاق به، فاعلم إذن أننى أرفض السفر!! وسأقوم مقام سعد وسأقود الحركة الوطنية بنفسى، وسيظل منزلى مفتوحاً إلى آخر نسمة من حياتى، والقوة لها أن تفعل ما تشاء»!

ثم تضيف «فهيمة ثابت»:

وقادت أم المصريين الحركة الوطنية بإيمان وثقة مدة إقامتها فى مصر، ولما نقلوا الزعيم من سيشل إلى جبل طارق وهو معتل الصحة أرسل إليها برقية للشخوص إليه «السفر» فلبت نداء الواجب فسافرت إليه فى الحادى والعشرين من سبتمبر ١٩٢٢.

وذهبت السيدة «فهيمة ثابت» لحضور الاجتماع المنعقد فى بيت الأمة للاستفسار عن صحة «صفية زغلول»، وتضيف «فهيمة» لتصف ما جرى فتقول:

«دنوت منها فسمعت إحدى الزميلات تقول لها:

- ألم ترد رسالة من الزعيم؟! وكيف كانت صحة معاليه بعد مغادرته سيشل إلى جبل طارق؟!

فاجابت «أم المصريين» متأثرة:

- نعم قد وصلنى منه خطاب يرجونى فيه أن أمضى إلى جبل طارق لأنه مريض، وفى هذا الخطاب يقول كذلك: «إذا سمحت ولم يكن السفر يتعبك فأقدمى إلىّ الآن لأنى محتاج لعنايتك..» فما أنبل شعورك ياسعد!! وقد أجبت فى الحال بأنى قادمة فى أول باخرة، وصممت على السفر ولو اشتد مرضى لأن الواجب ينادينى أن أكون بجانبه أتولى مواساته وأشاطره عبء النفى فى سبيل الوطن، ولكننى أشعر بمسيس الحاجة إلى أن تصحبنى إحدى المواطنات لأنى تعبة مجهدة وأحب أن تكون معى فى رحلتى مصرية مخلصة لتؤنسنى وتسرى عنى ولم يسعدنى الحظ حتى الآن بهذه الأمنية، مما اضطرنى إلى استدعاء ممرضة أجنبية غير أنى رفضت أن تصحبنى هذه الممرضة أيضاً وكان ذلك فى وقت متأخر بعد أن تمت إجراءات استخراج جوازات السفر إذ تبين أنها تريد أن يكون معها فى هذه الرحلة رجل تقول إنه خطيبها!!

وأنهت «صفية زغلول» حديثها بقولها: والآن تجديننى فى حيرة إذ لم يبق سوى خمسة أيام تبحر بعدها الباخرة!!

وتقدمت عشرات السيدات تعرض كل منهن السفر معها لكن صفية شكرت لهن هذه العاطفة النبيلة وقالت:

- أنا لا أحب أن تبتعد سيدة عن قرينها وضميرى لا يرتاح إلى ذلك!!

□□

كانت السيدة «فهيمة ثابت» وحسب كلامها تسمع ذلك كله دون أن تبدى ما يدل على شيء، وبعد أن عادت إلى منزلها تحدثت مع أفراد أسرتها وتبادلوا الرأى والمشورة بعد أن شرحت لهم كل ما دار بالتفصيل، ثم كان اقتراحها بأن تسافر مع أم المصريين وأن لا تدعها تعانى ألم الغربة والوحدة، وكان جواب الأسرة بأنه «ليس لديهم ما يمنعهم من التشجيع على واجب وطنى نحو أم المصريين بل نحو مصر أم الجميع»..

. وعلى أثر ذلك أوفدت شقيقتى إلى بيت الأمة لإبلاغ رغبتى فإن صادفت قبولاً أسرعت إلى مقابلة أم المصريين فى غير خجل وقد قالت عصمتها لشقيقتى: «كيف تتمكن من ذلك وماذا تصنع بفراق نجليها فأقنعتها بأنهما فى رعاية عميهما وخالتيهما فى حياة لا ينقصها من الراحة شيء»

فتقبلت أم المصريين ذلك قبولاً حسناً، وعندما علم الكثيرات من ذوى قرابتها أبدين السرور والارتياح لأن أكون صاحبة الشرف فى مرافقتها من مصر».

وفى يوم السفر جاءت جموع الناس لتكون فى وداع أم المصريين عند مغادرتها القاهرة فى طريقها إلى بورسعيد، والتف الآلاف حول القطار الذى استقلته «صفية زغلول» .

وفى بورسعيد وقعت حادثة هامة تصفها السيدة «فهيمة ثابت» بأنها من دلائل تعلق الشعب بأم المصريين فتقول:

«اختفى فى بورسعيد صبى من الأسرة هو «مصطفى أمين» فانزعجت السيدات لتأثر والدته «رتيبة» وبلغ مسامع أم المصريين فتأثرت جداً وغادرت حجرتها لتسأل عنه فجاء أحد الضباط فسألته عن الصبى وهى مضطربة ففتح رداءه وأظهره سليماً «أى الطفل» فكانت مفاجأة سارة ابتهجت لها أم المصريين وعند انصراف الضابط أدى التحية لعصمتها وأسر لها:

- «بلغى سعد أن الجيش والبوليس وضباطه وقواده معه وتحت أمره ورهن إشارة معاليه»!!

فشكرته، وعند المرفأ تقدم أحد العمال من القحامين وحياها فى أدب وقال لها:

- هل سيدتى تسافر وحدها، إنى مستعد السفر مع عصمتك للتشرف بخدمتك إذا لم يكن أحد بصحبتك!!

فشكرت له حسن استعداده وهنا قال لها:

ـ لست بمفردى فقط بل جميع العمال تحت أمرك!!

□□

وانطلقت الباخرة فى طريقها إلى جبل طارق، وتقول «فهيمة ثابت»:

أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وانتبهنا على قدوم سيدة تمد يدها لمصافحة «أم المصريين» على غير تعارف سابق سوى أنها سمعت بالشىء الكثير عن مكانتها، فرحبت بها وأجلستها بجانبها وأكرمتها ثم دعت السيدة قرينها وقدمته إلى أم المصريين وهو وزير الأفغان المفوض بدمشق فى طريقه إلى منصبه الجديد وقالت إنه يكنّ لمصر أنبل العواطف ويعلم الله نحن فى بلادنا وقلوبنا معكم».

ثم أقبل أحد السوريين وأدى التحية كذلك وقال:

«بلادنا تحييكم وتدعو لكم بالنصر وترجو لكم عوداً سعيداً مع زعيم مصر».

باختصار شديد جاء العشرات يحيون ويصافحون أم المصريين مما دعا «فهيمة ثابت» المرافقة لها إلى القول: «استبشرت خيراً مع أنى كنت ذاهبة فى هذا السفر معتزمة أن أمضى بقية حياتى فى المنفى، وقلت لأم المصريين:

ـ «إن الله سيكرمنا وسنذهب إلى جبل طارق لنرجع بصحبة الزعيم الجليل» فقالت: «إنشاء الله».

وبعد سبعة ليال وصلت الباخرة إلى جبل طارق .. وتكمل «فهيمة ثابت» قائلة:

ـ «قيل لنا إن الباشا ينتظرنا فى حجرة مرتفعة داخل المرفأ تشرف على البحر ثم صعدنا فرأينا الباشا واقفاً فى وسط الحجرة وهو يقول:

ـ «أهلاً أهلاً، كنت أحب مقابلتكم على الشاطىء لولا أنهم زعموا أنهم يخافون علىّ من شدة العواصف والرياح والجو المتقلب، والحقيقة أنهم يمنعوننى بلطف وقد أجلسونى هنا فى انتظاركم حيث أرانى الله وجوهكم جميعاً بخير والحمد لله على سلامتكم»..

كان سعد زغلول يبدو عليه آثار التعب والمرض وبعد الاستراحة قليلاً نهضنا ومضينا ثلاثتنا إلى المنزل فى عربة الحاكم، وزعيمنا يقص علينا بعضاً من أخباره ثم التفت إلىّ وقال:

ـ لماذا أنت صامتة يا ابنتى؟! ألا تقصين علينا شيئاً من أنباء مصر المحبوبة؟!

فقلت «أى فهيمة ثابت»: إننى فضلت الإصغاء إلى معاليكم، أما مصر والأمة المصرية جميعاً فهى تقدم عظيم إخلاصها وثقتها لرئيسها وزعيمها المضحى بحريته فى سبيلها!

فقال لى: أنت يا ابنتى تحسنين الحديث بعقل وروية ـ هل سبق أنى عرفتك فى مصر؟! وهل تذكرين أنى أعرف أحدا من أسرتك؟!

قلت: نعم إنك تعرف والدى فهو صديقك «حسين ثابت» بك وكيل محكمة الزقازيق سابقاً وربما تتذكر معاليك يوم العودة من فرنسا حين اشتركت فى تحيتكم مع وفد السيدات!!

فقالت أم المصريين: هى من السيدات العاملات فى السياسة منذ البدء فى الحركة الوطنية ومن المؤسسات لجمعية المرأة الجديدة!

فقال «سعد»: «وأنعم بك يا ابنتى من أجل هذا تحسنين الكلام عن خبرة أنا مسرور جداً يا صفية لوجود هذه السيدة معك خصوصاً أنها ابنة صديقى».

ثم التفت إلىّ وقال: هل أخذتم اسم «المرأة الجديدة» رمزاً وتحقيقاً لأفكار صديقى المرحوم «قاسم أمين بك» التى ضمنها كتابه؟!

فأجبته نعم فقال: «وإننى كذلك من أنصار تحرير المرأة والمعتنقين لهذا المبدأ».

وهنا وصلنا إلى المعتقل!

□□

وبعد أيام عاد «سعد زغلول» يسأل فهيمة ثابت.. تفصيلات أكثر عن والدها، وبعد أن روت له كل التفاصيل فوجئت بسعد يقول لها:

ـ «كان والدك أوفى صديق لى، وقد تلقينا العلم معاً مع الإمام الشيخ «محمد عبده» أما فى الثورة العرابية فقد كنت معتقلاً، وكان والدك نائباً عن الحكومة فى المرافعة ضدى فلم يتهمنى وترافع بطريقة كانت نتيجتها فى صالحى وقد بذل مالا أنساه له مدى الحياة فهل هو موجود؟!

قالت فهيمة: لا ياعمى لقد انتقل إلى جوار ربه سنة ١٩١٨.

قال: لم أعلم بوفاته!!

قلت: لأن السلطة كانت تمنع الاحتفال بتشييع الجنازات ولم يحضر لتشييعه سوى الأقارب فقط، وقد أعلنا نعيه فى الصحف باختصار!!

فقال سعد: يا ابنتى اعتبرينى والدك!

وهناك دخلت حرمه فواصل الحديث قائلاً: وصفية والدتك والخدم تحت أمرك فأصنعى ما شئت فى تنظيم أمرنا وأنا واثق من إخلاصك!!

وبعد خروج الباشا لرياضته المعتادة جمعت أم المصريين الخدم وقالت لهم إن فهيمة هانم فى مكانة ابنتى فيلكن الجميع لها مطيعاً وكل ما ترى أنه صالح يجب تنفيذه بدون

احتياج إلى الرجوع لاستشارتى أو استشارة الباشا وهى تعرف كيف تعاملكم فلا تتعبوها».

واستودعتنى «صفية» مفاتيح الخزانة المودع بها حليها والمبالغ المالية فاحتفظت بها.

أما الباشا.. فقد استودعنى مبلغ ألف جنيه أوراقاً مالية وقال لى: لا تضعيه فى الدولاب أو فى أى مكان فإنى أريد أن تحتفظى بهذا المبلغ حتى إذا طلبته منك فى أى وقت أو فى الخارج يكون حاضراً بيدك! أفهمت يا فهيمة؟!

قلت: نعم وضحكنا جميعاً!

□□

وابتداء من يوم الإثنين أول يناير سنة ١٩٢٣ تبدأ «فهيمة ثابت» فى كتابة مذكراتها يوماً بيوم وحتى أول أبريل ١٩٢٣.

اليوميات جاءت بمثابة تسجيل دقيق وأمين ومثير لحياة سعد وصفية فى المنفى ومتابعتهما لما يحدث فى مصر من أحداث سياسية وتطورات هامة، لكن هناك أيضاً عشرات القصص والحكايات والمواقف الإنسانية!..

فى يوميات الأربعاء ٣ يناير تقول «فهيمة ثابت»:

ذهبنا إلى النزهة المعتادة وكنا نتمشى ثلاثتنا، سرنا فى صمت قطعه علينا غناء صبى صغير تبدو عليه المسحة الإنجليزية وهو يردد الأغنية المصرية المعروفة «ياعزيز عينى أنا بدى أروح بلدى» فلفت سمعنا الباشا قائلاً:

ـ انصتوا إلى هذه الأغنية. ثم مر الصبى بجانب الباشا وهو يمتطى صهوة جواده ووالده بجانبه يسير مبتسماً. أما الصغير فقد غنى المقطوعة ورددها وهو يضحك ناظراً للباشا ثم رفع يمينه بالسلام المصرى وكذا أو مأ والده برأسه فتفاءلت أم المصريين بذلك.

وفى يوميات الخميس ٤ يناير تقول «فهيمة ثابت»:

ذهبنا إلى الرياضة المعتادة وهناك تحدثنا فى السياسة قليلاً وانتقلنا إلى العلم والقرآن فقلت:

ـ «لو كنت من الأغنياء لأنشأت جامعة للفتيات ومعهداً للسيدات أدربهن على الفروسية وحمل السلاح والألعاب الرياضية والعلم من فقه وأدب وهندسة ورياضة وسائر العلوم كما يتعلم الرجل تماماً».

فقال الباشا: «يجب أن تتعلم المرأة كل شىء، وكلما تعلمت المرأة أنجبت أولاداً متعلمين، وكلما كان الرجل كامل التربية كان الوطن متقدماً، فيجب إذن قبل كل شىء تعليم المرأة خصوصاً فى وطننا».

ثم قالت «أم المصريين»:

- هل تحفظ القرآن إلى الآن يا سعد ولم تنسه؟!

فقال: إننى أحفظه وأجوده وأعرف تفسيره.

فقرأت عليه سورة قريش ففسرها لها واستفدنا منه ثم سألته بدورى:

- وهل تعلمت جميع هذه اللغات فى وقت واحد يا عمى؟!

فقال: لا.. تعلمت الفرنسيةعن «رشدى باشا» وقت دراسة القانون، وكنت فى الحلقة الرابعة «سن الأربعين».. والألمانية تعلمتها على المدموازيل «فريدا» لما حضرت لدينا وكنت فى الحلقة الخامسة، وتعلمت الإنجليزية وأنا فى الحلقة السادسة ولى سنة أدرسها!!

فقالت أم المصريين: ولماذا تعلمتها؟!

فقال: «لما كنت بالسويس يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ أحضروا لى جندياً إنجليزياً يخدمنى فتحيرت معه، فاضطررت إلى تعلم بعض كلمات لأفهمه رغباتى، ولما جاء مكرم (عبيد) انفجرت الأزمة وفكرت أن أتلقى عليه درساً بعد قيامنا من السويس من ١٩ يناير ١٩٢١ فسهل علىّ كثيراً لأنى انشغلت بالدرس وكنت أبحث كثيراً وأمكث ساعات طويلة أحفظ الكلمات الإنجليزية عن ظهر قلب لكى أتمكن منها لأتفاهم مع الإنجليز أنفسهم وبلغتهم.. وأحمد الله على ذلك لأن حياتى كلها صرفت فى تلقى العلوم.. ألا تذكرين يا صفية؟!

فقالت: نعم أتذكر جيداً أنك دائماً تشتغل حتى أن طبيب «كرلسباد» قال لى مرة: زوجك هذا لا يمكنه أن يعيش بدون شغل والراحة تتعبه!

وتمضى باقى السطور فى رواية أحاديث سياسية تتعلق بالأوضاع فى مصر.

وفى يوميات ٥و٦و٧ يناير تقول:

«لم تتم رياضتنا إلى نهايتها إذ هبت الرياح فجأة وانذرت بالعاصفة، فعدنا مسرعين وجلسنا طيلة النهار ندرس ونكتب ولم نتكلم إلا قليلاً عند الظهيرة فأنشد الرئيس بيتاً من الشعر فقلت لأم المصريين:

- أحفظت هذا البيت؟!

فقالت: لم أحفظ الكلمات التى قالها لى أمس فى الحديقة فكيف أحفظ هذا البيت الآن؟!

فقلت لها: تذكرى كلمات الأمس من فضلك!

فقالت: البر شىء هين.. وجه طليق وكلام لين!!

وكان معاليه قد ذكرها في مناسبة حُسن معاملتها للناس وبعد الظهر مضينا إلى السوق وقد أحضرت «أم المصريين» أشغالاً يدوية لتعمل وسائد وبعض الأشياء الصغيرة وفى آخر اليوم كنا متعبين فنمنا فى أوائل المساء..

وفى السادس من يناير واصلنا دراستنا وأسمعتنى أم المصريين ما حفظت من القرآن كما أسمعتها بعض المقطوعات الفرنسية وبعض جمل من تاريخ الأدب!!

وقضينا بقية النهار فى تسطير الرسائل لأقارب أم المصريين، وكتبت أيضاً لعائلتى!

□□

وفى يوميات الثلاثاء ٩ يناير كتبت «فهيمة»:

مكثنا نشتغل حتى المساء فانتبهنا على قصف الرعود التى تصم الآذان فأعترانا الفزع والاضطراب وتحطمت النوافذ وهوى بعضها إلى الحديقة، ولقد كان منظراً رائعاً حقاً تجلت فيه أنبل العواطف وأسمى المشاعر، وبدت أمام ناظرى صفات الرحمة والتضحية والحنان إذ قالت شريكة «سعد»:

- أنا خائفة من أجلك يا سعد وليس من أجل نفسى. ماذا نصنع فى هذه الحالة أرشدنا!!

فقال سعد: لاشيء سوى أن نمكث هنا سوياً حتى يصنع الله بنا ما يريد.

وفى يوميات الأحد ١٤ يناير ١٩٢٣ كتبت «فهيمة ثابت» تقول:

ذهب الباشا إلى رياضته المعتادة مع «الأنصارى» - أحد رفاق سعد فى المنفى - لأن الست لم يمكنها الخروج لتعب ألم بها ومكثنا نكتب إلى أقاربنا وانتظرنا بريد المساء فلم نتلق خطابات مع أنى كنت مشغولة جداً على شقيقتى منذ يوم ٣ يناير الذى شعرت فيه أن شقيقتى وضعت وأن الدكتور أحمد شفيق باشا تعب معها حتى أنقذها الله وطفلتها على يده وصرت أتحدث بهذا الصدد مع أم المصريين وهى تسرى عنى وقالت:

- يبدو من أحاديثك عن هذا الدكتور أنه شخص ظريف كريم، لم تسمح لى الظروف أن أعرفه جيداً لأنى سافرت قبل زواجه من ابنة شقيقتى فهل تعرفينه جيداً؟! وما هى أخلاقه؟!

فقلت لها: أحسن الأخلاق فهو رجل بمعنى الكلمة وهو يتحلى بخلق كريم وأن زوجته ستكون معه أسعد مخلوقة إن شاء الله.

فسرت «أم المصريين» بذلك!!

كان ما يحدث فى مصر هو الشغل الشاغل لسعد زغلول وصفية ومن معهما وهما فى المنفى، وهو الذى يحتل معظم صفحات يوميات فهيمة ثابت .. لكن هذا لم يمنع أن تكون هناك أشياء أخرى إنسانية تستحق الحديث..

وفى يوميات ٢٦ يناير سنة ١٩٢٣ تقول «فهيمة ثابت»:

بعد الظهر جاء البريد والصحف فمكثنا بين قراءة وكتابة، وأجابت «أم المصريين» على برقياتها حتى المساء، وقد قرأ لنا الباشا ثلاث مقالات لعبدالقادر حمزة وعباس العقاد وآخرين وكان مسروراً جداً من لهجتهم خصوصاً ممن كتب فى نقط حساسة بأدب واحترام وكان متحمساً جداً لهذه المقالات حتي أنى لم أره أبداً بهذا الشعور الحماسى للوطن لأنه ضرب بيده فجأة على مكتبه بشدة وقال: «هذا جميل، جميل جداً».

وقال: غداً اقرئيه لصفية ومكث يحدثنا ونسى الوقت لغاية الحادية عشرة وكانت عادته أن ينام فى العاشرة مساء.

وفى يوميات ٢٩ يناير ١٩٢٣:

«فى الغداء قال لى الباشا مبتسماً: «يجب أن يكون لنا قائمة طعام وتجعلى لكل يوم طبقاً معروفاً لنا جميعاً» وابتدأ يسرد أسماء الأطباق وقال:

ـ تذكرا معى ولنتناقش فيه فإن وافقتما على طبق بالأغلبية نكتبه والذى لا يبدى رأياً فيه لا يأكل منه.

فضحكنا وقلت لمعاليه: أنا من الآن رأيى من رأيكما وسآكل ما تأكلانه!!

فسر الباشا وقال: «هذا لكى تخلصى لا.. عليك أنت بوضع القائمة على أيام الأسبوع وأعرضيها علينا ونحن نغير ونبدل فيها».

وفى المساء حررتها حسب رغبته وراعيت فيها الموافقة بالأغلبية فسر جداً وقال:

ـ الآن سنضمن كل يوم لونا جديداً على الأقل!

وكان سعد يحب السمك فى الصباح واللحوم فى الظهْر والطيور بالليل فى العشاء مع جميع الخضروات وأما خبزه فكان من بسكوت النخالة أو الخبز الأسمر من النخالة الناعمة، وحلوه من الفواكه المطبوخة والفطائر الخفيفة ومن الحلوى أنواع كثيرة.

وبعد العشاء جلسنا بجانبه فى الصالون نستمع إلى أم المصريين وهى تقرأ فى كتابها وكان «كلمات نابليون» حتى آخر السهرة».

وفى يوميات ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ كتبت «فهيمة ثابت».

«فى المساء وجدنا الباشا غير مسرور من حالته الصحية وقال إن هذا المغص انتابنى بعد وصولى هذا البلد ولم يتناول طعاماً وأخذ كربونات ونحن أيضاً واقتصرنا على الفاكهة لأننا تأثرنا من أجله ثم سهرنا قليلاً وهو يقرأ جريدة «السيف» وكان بها زجل عن معاليه وعن آخرين من رجال السياسة، وكان زجلاً فكهاً جداً فانسر الباشا وضحك من نكته فسرى عنه».

وفى يوميات أول فبراير سنة ١٩٢٣:

«مضينا إلى الحديقة وجلسنا فى مقاعدنا ونحن مغتبطون بصفاء الجو حتى أن الباشا وحرمه تمنيا تناول الطعام هناك، وعند عودتنا سائرين بين الزهور الزاهية اللطيفة وعبيرها المنعش خرجنا إلى الشمس الساطعة التى داعبت وجه «أم المصريين» فقالت:

- انظر يا سعد.. جلد وجهى لم يعد يحتمل شعاع الشمس!! وفى الحال يتأثر. وجلد أصبعى جرح من خيط حريرى!!

فقال لها سعد: إذن أنت التى عناها الشاعر بقوله:

خطرات النسيم تجرح خديه

ولمس الحرير يدمى بنانه!

فضحكت «أم المصريين» وسرت كثيراً من كلامه وأخذ يحفظها هذا البيت ويكرره، وأنا أسمع مبتهجة بصفائهما.

ولم يكن ذلك كل ما جرى فى جبل طارق!!

وإلى الفصل القادم



سعد وصفية.. ومصارعة الثيران

- ☐ مشورة غريبة من سعد لرفاق المنفى!
- ☐ نصيحة طبيب سعد: الرياضة والتغيير يفيدانك!
- ☐ صفية لسعد: أنا لا أستحق هذا الثناء!
- ☐ الآم سعد في منام غريب لصفية زغلول!



كان أكثر ما يؤنس وحدة «سعد زغلول» فى منفاه هو وجود السيدة «صفية زغلول» إلى جواره!!

ولو لم تكن «صفية» موجودة معه فى ذلك الوقت لأحس بوحشة وغربة لا نهاية أو حدود لها!!

وكان مما أسعد «سعد» - قبل ذلك فى منفاه بمالطة وجود رجال الوفد معه يقطعون الوقت فى لعب السيجة بأصداف البحر!! أو تعلم الإنجليزية وقراءة الشعر والأدب..

ويذكر «سعد» كيف أن صحبه جلسوا ذات مساء يتذكرون حالة أسرهم وما تعانيه زوجاتهم فى مصر فقال سعد لهم: سأشير عليكم بمشورة تقلب جزعهن وقلقهن إلى سرور وسعادة بنفيكم وغيابكم!!

وسألوا «سعد» ماهى هذه المشورة ياباشا؟! قال لهم: أكتبوا إليهن إنكم قد تزوجتم فى مالطة وسكنتم إلى الاقامة فيها فلا يتمنين لكم بعدها إلا طول الغياب!!

وهكذا كانت فكاهة وسخرية «سعد زغلول» لازمة وضرورية لقتل ملل وسأم المنفى!!

لكن المنفى بصحبة أم المصريين كان له طعم آخر مختلف كل الاختلاف.

ونواصل قراءة يوميات «فهيمة هانم ثابت» عن ذكرياتها مع «سعد وصفية» فى جبل طارق.

فى يوميات ٣ فبراير سنة ١٩٢٣ تقول:

«خرجنا وعدنا سيراً ولما كنا قرب المنزل قال الباشا «ألم تجوعا؟»

فقالت الست: نعم ولأبد أنك جوعان ياسعد!

قال: نعم يظهر أن السير فى الهواء الطلق أثار شهيتى!

فقلت: «بشرة خير لصحتك ياعمى إذن فلنذهب إلى المائدة مباشرة.»

وأثناء ذلك كله دار الحوار حول ما يحدث فى مصر وتطورات الموقف هناك فقلت:

- ياعمى لو وجد أربعة فى مثل إيمانك بمصر لانتفع الوطن بهم وكنا حصلنا على الاستقلال من زمن بعيد!

فقالت أم المصريين: لو لم تكن زوجى وأنت رجل غريب عنى وبهذه الوطنية والحماسة لجئت إليك من أقصى الدنيا لأخدمك وأقبل يديك!!

ثم قالت ملتفتة إلىّ: يا ابنتى لقد عرضوا عليه أحسن مركز فلم يقبل!!

فرد سعد عليها قائلاً: «هذا أقل ما يجب وإلا أكون خائناً لوطنى»

- *وفى يوميات ٦ فبراير سنة ١٩٢٣ كتبت «فهيمة ثابت» تقول:*

غادرت مخدعى ودخلت المكتب لأقرأ الصحف ولما نزل الباشا رآنى على هذا الحال فقال: ماذا رأيت؟ هل فيها أخبار سارة؟! «قلت إنشاء الله . المهم فى الأهرام قضية سعد باشا وهى مطولة.»

وقدمت له الصحيفة فأخذها وخرج ومكثت مع أم المصريين نتكلم فقالت لى:

«اليوم هو تاريخ زواجنا، وقد مضى سبعة وعشرون عاماً عليه، فى مثل هذا اليوم بمصر كنا نجدده كل سنة بفرح يجتمع فيه كل أقاربى وأحبابى فلو كنت أنجبت ولداً لكان الآن سنه ستة وعشرين عاماً. وتأسفت!!

فقلت لها: «إن الأمة المصرية كلها أولادكم وانى متأكدة أنهم يحبونكم أكثر من حب الأبناء والبنات لآبائهم وأمهاتهم، وأنا عن نفسى متحققة أنى أحبكما وأجلكما كوالدى ولو كنت ابنتكما من دمكما لما أحببتكما أكثر من ذلك لوطنيتكما وطيبتكما.»

فقالت: نعم هذا حق وأنا أعرف ذلك فيك وإلا فما الذى كان يأتى بك معنا تاركة أولادك وأهلك؟!

فقامت فقبلتنى، وقبلتها فشعرت بحنوها ومحبتها، وصعدنا عند الباشا فى المكتب فتكلم معها بخصوص الألم الحاصل له، فقال الباشا:

- أرى أن أرتاح بعد الأكل مباشرة لكى أتحسن لأن الدكتور نصحنى بذلك!!

فقالت السيدة - أم المصريين - له: ياسعد استرح ولو نصف ساعة فقط أرجوك؟!

□□

وفى يوميات ٧ فبراير سنة ١٩٢٣

«بعد الظهر جاءت برقية من الدكتور حامد يقول فيها نقلا عن الديلى ميرالد» أن الوزارة قدمت استقالتها حفظاً لكرامة جلالة الملك لأن الإنجليز أرسلوا له إنذاراً والحقيقة لا تزال غامضة!!

وكانت أم المصريين متأثرة جداً من هذه الأخبار واضطرب مزاجها ولم تتناول طعاماً فى العشاء فتألمت لها وللحالة فجلست بجانبها أسامرها وأقص عليها بعض القصص لأسرى عنها وهى لا تنسى هذا الإنذار المشئوم حتى دخل الباشا فى العاشرة مساء، فتركتهما..

ـ *وفى يوميات الخميس ٨ فبراير سنة ١٩٢٣*

أصبحت أم المصريين على غير عادتها وأن كانت قد تحسنت قليلاً، ومع ذلك جلست معنا وتناولت كوباً من الشاى فقط وأخذنا نتحدث حول السياسة الإنجليزية ثم ذهبنا إلى مكتب الباشا لنشغله عن القراءة بعد الفطور فتناولنا شئون الحالة الحاضرة.

ـ *وفى يوميات الجمعة ٩ فبراير سنة ١٩٢٣*

«عند الساعة الخامسة خرج الباشا مع حرمه لرد زيارة حرم وزير مالية «جبل طارق» الذى زارهم مع زوجته يوم الأحد الماضى، أما أنا فقد اعتذرت لأنى كنت مشغولة، وبعد أن أتممت عملى بالمنزل جلست بالمكتب وهيأت بعض الأشغال اليدوية التى كانت تتسلى بها أم المصريين.»

ـ *وفى يوميات ١٢ فبراير سنة ١٩٢٣*

خرجنا بعد تناول الأفطار. فكرت أم المصريين أن تمر بالسوق بنفسها لتشترى هدية للمحامى، فأحضرت له علبة ثمينة دقيقة الصنع وهى من خشب الصندل مطعمة بالعاج وبالألوان الجميلة ملأتها بالحلوى، واشترت أيضاً ثوباً من الحرير لأم الحاج محمد المتعهد فى السوق رداً على منديل مطرز بالدعاء للباشا.

ـ *وفى يوميات الخميس ١٥ فبراير سنة ١٩٢٣*

عند الظهر تكلمنا فى السياسة كثيراً وفى المساء قرأت لهما الصحف الصغيرة المضحكة منها جريدة «السيف» فتسلينا قليلاً.

وفى يوميات ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣

«اليوم حضر طبيب الباشا على غير عادته وقال له: جئت مبادراً لافحصك جيداً وأحب أن تخلع جميع ملابسك حول صدرك!

وبعد الكشف نادى السيدة ـ أم المصريين ـ وقال لها:

ـ صحة الباشا العمومية خفيفة وحالة القلب ليست سيئة أما الأمعاء الغليظ فهو متعب، فليداوم الباشا على الدواء والراحة بعد الأكل مباشرة.

فانشغلنا عليه «ولكن الباشا نفسه طمأننا بعد الغذاء إذ إنه شعر أن الأمعاء أحسن من قبل!!

وفى المساء صعدت مع أم المصريين إلى مخدعها قصت لى بعض الحكايات على ذكر الأحلام والرؤيا فى الليل أثناء النوم وقالت لى «إن والدتها سهرت فى منزل خال والدتى عبدالقادر باشا حلمى» وعادت سيراً على اقدامها إلى منزلها لقرب المنزلين فسقطت منها ساعة محلاة بالماس والمينا أهدتها لها صديقتهاحرم الباشا الآنف الذكر،

ولما دخلت حجرتها وبدلت ملابسها لم تجد الساعة فتأكدت أنها ضاعت ونامت تلك الليلة، فرأت فيما يرى النائم أن إحدى السيدات أتت إليها وقالت لها ساعتك تحت الشجرة بالقرب من منزل (فلانة هانم) فأرسلى من يحضرها لك قبل طلوع النهار لكى لا يأخذها أحد المارة، وتنبهت من النوم فى الساعة الرابعة صباحاً فأرسلت فى الحال سيدة عجوزاً تثق بها وصفت لها المحل الذى تجد فيه الساعة فذهبت حسب الوصف وعادت إليها بها»

فقلت (أى فهيمة ثابت) ما أغرب هذه الأحلام التى تصادف الحقيقة، وهذا أظنه لطهارة أصحابها وخلو بواطنهم وسرائرهم من اللؤم والفساد الذى يرين على القلب ويلقى على صفاء الروح حجباً كثيفة.

ثم قصت على مناماً آخر رأته أم المصريين نفسها وتحقق فى الحال وهو أنه جاءت لها والدتها فى الرؤية وأخبرتها عن سر لـ سعد باشا ألم به ولم يعرفها به لئلا تتألم معه، وفى هذه الليلة كان الباشا متغيباً وعاد إلى المنزل متأخراً فلما أصبح الصباح سأل حرمه: ماذا بك؟، هل تتألمين من شىء؟ فقالت له: لا ولكنى حلمت بوالدتى فتذكرتها فقالت له أم المصريين: وإذا أخبرتك بما قالته لى بخصوصك هل تصدقنى القول ياسعد؟! فقال لها أعدك بذلك! فأخبرته بالسر الذى أخفاه عنها فقال لها هذا حق وقد حصل، ولكنى أخفيته عنك لكى لا تتألمى.»

وفى يوميات ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣

«عند الساعة الخامسة خرج الباشا يتجول فصادف فى الطريق سيدة أوقفت سيارتها عند رؤياه وغادرتها إليه ثم حيته وأخبرته أنها كانت فى طريقها إلى معاليه لتدعوه وحرمه لزيارة بارجة حربية هى أكبر البوارج الإنجليزية وهى راسية فى جبل طارق فشكر دعوتها، ولما عاد إلينا أخبرنا وقال:

- استعدى ياصفية سنتفرج بعد باكر على البارجة.

- *وفى يوميات ١٩ فبراير سنة ١٩٢٣*

«.. وعندما وصلنا إلى البارجة استقبلنا على السلم ربانها وحيا أم المصريين والباشا، ورحب بمقدمنا جميعاً.»

ملحوظة: وعلى مدى صفحات عديدة راحت «السيدة فهيمة ثابت» تحكى بالتفصيل عن هذا البارجة وممن تتكون.و.و

- *وفى يوميات ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٣*

جاءت برقية من «هدى هاشم شعراوى» تقول فيها: «إن إغلاق بيت الأمة نشأ من غلطتهم» وتعنى بهذه أن سبب إغلاق بيت الأمة يرجع إلى غلطة الوفديين أنفسهم

فاستغربنا وتكدرنا كثيراً، فكتب الباشا برقيات عديدة ليستفهم عن الحالة فى مصر، وعن السبب فى إغلاق بيت الأمة.

- *وفى يوميات ٢١ فبراير سنة ١٩٢٣*

ذهبنا إلى البلد سائرين على الأقدام، وكنا مرتدين معاطف المطر لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم، اشترينا «كلونيا» وبعض اللوازم للباشا، وعدنا مستقلين عربة فجاء الطبيب وتكلم معه فقال له:

- يظهر أن الرياضة والتغيير يفيدانك!

وبعد الظهر وردت برقية فضها الباشا وقرأ ما يأتى «هجمت فصيلة من الجنود على بيت الأمة فقبضوا على كل من كان به وفتشوهم ثم قفلوا البيت ووضعوا حرساً عليه.» فبكت أم المصريين لهذه الحالة وقالت:

- أنا خائفة ياسعد أن يقولوا إننى هربت من الميدان؟!

فقال الباشا: وماذا كنت تفعلين لو كنت هناك وفتشوه كما فعلوا أول مرة؟، ومع ذلك إذا كنت تريدين السفر والعودة إلى مصر أنت حرة!!

ثم أمسك بيدها وقال لها: «يجب أن تتشجعى ما قيمة المنزل إذا كان أصحابه بعيدين عن، ليصنعوا به كيف شاءوا والحمد لله أن أعضاء الوفد لم يعتقلوا فيمكنهم أن يجتمعوا فى أى مكان.»

وفى المساء تلقى معاليه برقية من حرم سرهنك باشا (شقيقة صفية زغلول) تقول فيها (إن السلطة قفلت المنزل بالقوة وأخرجت من كانوا فيه) وكان هذا رداً على برقية أرسلت لها للاستفهام عن الحالة.

فى كتابها المدهش حرصت «فهيمة هانم ثابت» على تسجيل وكتابة كل صغيرة وكبيرة، لكن ما يهمنا هو الجانب الإنسانى وحده.

- *وفى يوميات ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٣* كتبت:

«لم نخرج اليوم لأن أم المصريين كانت منحرفة الصحة»

- *وفى يوميات ٢ مارس سنة ١٩٢٣*

«كانت صحة الباشا العامة غير سيئة، وأراد أن يستمر على الحمية بضعة أيام لأن الأمعاء أرتاحت من عدم تعاطى النشويات».

- *وفى يوميات ٦ مارس سنة ١٩٢٣*

«ذهبنا إلى البنك فتسلمت أم المصريين مبلغاً كتبت به شيكاً ثم عدنا. وبعد الظهر وردت برقية من مكاتب (مراسل) التيمس تحت عنوان قضية المصريين واقتراح الإفراج عن زغلول باشا.»

- *وفى يوميات ١٥ مارس سنة ١٩٢٣*

فى المســاء جــاءت برقية تثير الأستياء وهو إحالة أعضاء الوفد إلى المحاكمات العسكرية.»

- *وفى يوميات ١٦ مارس سنة ١٩٢٣*

ذهبنا إلى البلد واشترينا دواء للباشا، وذهب هو إلى المحامى، ولما عاد إلينا أنبأنا خبر تشكيل الوزارة المصرية نقلا عن برقيات رويتر وقال إن الذى شكلها هو أحد الوزراء السابقين وهو «يحيى إبراهيم باشا» فاستفى بنا لذلك جميعاً، وشعرت فى الحال بشعور غريب وهو أنه سيفرج عن الباشا إلى أوروبا على يد هذه الوزارة وقد عرفت أم المصريين بذلك وسألتنى: ومتى سيكون هذا الأفراج؟! فقلت فى آخر هذا الشهر أو على الأكثر فى أوائل إبريل وآمل أن نسافر ونترك جبل طارق قريباً آن شاء الله، ولما تكلمنا عن الوزير الجديد وأخلاقه عرفنا الباشا أنه طيب جداً.

فتخوفنا من هذه الطيبة ربما تؤدى إلى ضعف فقال معاليه لا تخافا وربما يضع سره فى أضعف خلقه فاتكالنا واعتمادنا على الله، والحمد لله أن الشعب المصرى حى ولا خوف عليه.

- *وفى يوميات ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣*

«لم تأت أخبار مهمة، واليوم أخذنا عربة وذهبنا إلى البلد وكان يوم عيد عند أهلها فكنا منتظرين أن نرى البلد فى حالة هرج، فما خطونا فيها بضع خطوات حتى دهشنا لعدم وجود أحد فى الشوارع، والدكاكين كلها مقفلة حتى المقاهى والحانات ولا يوجد عربة فى الموقف بالمرة..»

وفى المساء جاءت برقية من حرم فخرى عبدالنور تسأل فيها عن صحة الباشا لأنها مشغولة فقالت أم المصريين: «لابد وأن يكونوا نشروا التقرير الأخير عن صحة الباشا.»

- *وفى يوميات ٢٩ مارس سنة ١٩٢٣*

«عند العاشرة صباحاً وردت برقية للبنك تحمل نبأ الإفراج عن الباشا فأرسل المدير يبشره فلم نلاحظ عليه شيئاً وكان متماسك القوة لما وصله النبأ.»

- *وفى يوميات ٣٠ مارس سنة ١٩٢٣*

كنا مسرورين ولكن غير متواجدين لعدم وجود أنباء رسمية ونحن نفكر والله يدبر، ثم جاءت برقية من الدكتور حامد يبشر الباشا بالإفراج ويهنئة وأنه سيسافر إلى فرنسا للاستشفاء فجاء أنصارى أفندى يبكى من كثرة فرحة ويبشر أم المصريين، وفى أثره الباشا (سعد) حافظا لقواه تماماً، ولما تأكدت أم المصريين ركعت تصلى وتبتهل شكراً لله، وفى الحال قامت هنأت الباشا وظهر عليها السرور.

ثم تقدمت بدورى إلى معاليه وهنأته وقبلت أم المصريين ومن فرحتنا سالت دموعنا.

وفى يوميات أول أبريل سنة ١٩٢٣

تأخر الدكتور المباشر لصحة الباشا لأنه هو الذى سيقدم الجواب الرسمى بالإفراج من قبل الحاكم العام فقال الباشا ربما تكون كذبة أبريل، فقلت: لا والله ياعمى إن شعورى غير ذلك: بل سيفرج عن معاليك اليوم، فضحك الباشا وقال:

- إذن فلننتظر الرسميات وأنا لا أعول إلا عليها.

فقالت أم المصريين: طيب ياسعد إذا أفرج عنك اليوم هل تقوم اليوم حقيقة؟!

قال: طبعاً ولماذا لا يكون فى الحال؟!

قالت: واستعدادات السفر؟!

قلت: أما أنا فمستعدة أن أعد الأمتعة حالا وإذا كان غداً فلدينا وقت طويل لترتيبه!!

وشعرت بحركة بسيطة بالحديقة فنهضت واقفة أنظر من النافذة فوجدت الطبيب الخاص فالتفت للباشا وقلت قد ورد الإفراج الرسمى على يد الطبيب. فقال لى الباشا قد تحققت رؤياك وأمانيك الطيبة!

ثم عاد الباشا فقال: إلى أين نذهب اليوم؟!

فقلت: إلى الافينيا إلى أسبانيا أرض الحرية أو كما ترغب أنت، نحن رهن الأشارة!!

قال: وهو كذلك حيث يوجد هناك سباق للنيران، ولكن هذا سيبتدى فى الساعة الخامسة مساء!!

وراحت «فهيمة ثابت» تروى ما جرى وشاهدوه فى حلقة السباق إلى أن تقول:

«وجدت أم المصريين والباشا أكثر منى انقباضاً، ونهض معاليه وصرح بذلك وأراد أن يخرج احتجاجاً على هذه الفظائع فأفهموه بأنه غير ممكن الخروج الآن لأن الأبواب كلها مقفلة، وبعد نصف ساعة تفتح، فرجعنا إلى مقاعدنا مرغمين وفضلت محادثة أم المصريين لأشغلها عن المنظر، فما نشعر إلا وثور متوحش يصارع جواداً ضامراً وراكبه يطعن بنبله الثور فانفجر دمه كأنه نافورة ماء وخر صريعاً وتم السباق وفتح الباب فكان أول الخارجين الباشا ونحن خلفه.

ركبنا إلى المنزل ومكثنا به يوما آخر سلمنا ما فيه من أدوات ورتبنا الأمتعة المسافرة معنا والتى ستشحن ولم ننتظر ليوم سبعة أبريل لكى نسافر إلى مرسيليا بل سافرنا يوم ثلاثة على بأخرة ستبحر إلى «طولون» فاستقبل أم المصريين وزعيم الأمة هناك البرنس عزيز حسن والطلبة المصريون.

ثم مكثنا فى فندق طولون زهاء يومين وسافرنا آخر النهار على بارجة حربية أوصلتنا إلى مرسيليا وكان معنا بعض الطلبة وبعض المصريين الذين جاءوا من أنحاء فرنسا لاستقبال الزعيم.

وفى مدينة ليون أقام مدرسو وطلبة كلية ليون حفلة لاستقبال سعد زغلول وحرمه والاحتفاء بقدومهما المنفى فاعتذر الباشا لمرضه، وأناب عنه الدكتور فى تبليغ اعتذاره ثم أناب عنه فى الحفل حرمه المصون. فذهبت معها ونحن على مضض لعدوم وجود الباشا معنا وقد احتفلوا بشريكته كما لو كان زغلول باشا نفسه موجوداً وهتف الطلبة لمصر والمصريين وقدموا كأساً لأم المصريين فأخذته وخطبت فيهم فحيتهم وشكرتهم بالنيابة عن الزعيم المصرى وبالأصالة فى نفسها وفى آخر الخطبة قالت:

- «كنت أود أن أتناول نخب سروركم لولا إنى منذ عرفت الدنيا أقسمت ألا أتعاطى خمراً ثم أنى أؤيد جمعية السيدات الأمريكيات لمنع المسكرات ولكن احتراماً لشعوركم أقول لتحى فرنسا والفرنسويين وأعادت الكأس كما هو.»

وذهبنا إلى الفندق فى منتصف الليل فوجدنا الباشا نائماً مرتاحاً وقد سألنا فى الصباح:

- هل سررتما فى الحفلة؟!

قالت أم المصريين: نعم وكان ينقصنا وجودك ياسعد!

وقصت عصمتها عليه. كل مادار بالحفل، وألقت عليه خطبتها التى ألقتها فسر جداً وقال لها: هكذا كان أملى فيك؟!

□□

وأثناء وجودهم فى «أكس لبان.. أخذ أحد الزائرين يتحدث إلى زعيم الأمة منوهاً بما بذلته أم المصريين فقال:

- إن مصر تعرف ما قامت به من جهود نبيلة وتضحيات مجيدة عالية فى سبيل مصر وإعلاء رايتها والمساهمة الصادقة فى الوفد مدة إقامتكم فى سيشل ثم مشاركتها لمعاليكم ألم المنفى فى جبل طارق وتحملها مشقة الأسفار والانتقال!!

فأجاب سعد باشا محدثه قائلاً:

- إنها - أى أم المصريين - كانت على استعداد لتقديم حياتها فداء لوطنها عندما توجهت مع زملائى إلى المعتمد البريطانى وقلت لها إذ ذاك اعلمى ياصفية إننى أمضى الآن حاملا رأسى على كفى الأيمن لأقدمها فداء لمجد بلادى، فقالت لى: ياسعد أننى معك فى جهادك وإيمانك بحق الوطن وإذا كنت تحمل رأسك على كفك اليمنى فلتكن رأسى على كفك اليسرى، وفى الحقيقة أن صفية كانت دائما شجاعة.

فنظرت إليه أم المصريين شاكرة وقالت:

ـ لا أستحق لهذا الثناء أرجو أن نعمل جميعاً لاستقلال بلادنا هذا ما أطلبه دائما من الله.

وأثناء هذا الحديث استأذن فى مقابلة الباشا أحد الفرنسيين، وقد لفت نظرى حُسن تصرفه حين عرفنى به الباشا فقال لى هذا أديب فرنسا العبقرى «أناتول فرانس»!

ثم أخذ هذا الأديب يتحدث بطلاقة بكل احترام عن مصر والمصريين.

وفى ذات صباح فى فندق «رويا» أرسل الباشا فى طلبى فجأة فأسرعت إليه ملبية فقال لى:

ـ احضرى المبلغ الذى استودعتك اياه فى جبل طارق فقدمته إليه فى الحال إذ كانت هذة الوديعة لا تفارقنى فقال لى: شكراً هذا ما كنت أنتظره منك!!

ومكثنا فى «رويا» حتى مرض سعيد بك زغلول وتوفى بها وبعد تجهيزه شيعت الجثة إلى مصر وفى هذه الظروف المؤلة اضطر الباشا أن يترك «رويا» ويقطع إستشفاءه لنذهب إلى «أكس لبان» ولم نخرج إلا قليلاً جداً لنحضر مشترياتنا الضرورية لأن الباشا كان يعالج القلب، وقد تأثر من هذه الصدمة العنيفة على ابن أخته ـ سعيد ـ بل ابنه وربيبه ، ولو أنى لم أر فى حياتى شخصاً امتلك حواسه مثله وكان يكلمنا ويسرى عن أم المصريين بكل شجاعة فكان تارة يعظنا بالقرآن المجيد والأحاديث الشريفة وتارة بالحكايات القديمة والحديثة، وفى أثناء ذلك رجا عصمتها أن لا تتركه مع المعزين وحده بشرط أن لا تتأثر أمام أحد فصرنا نقابل الناس وهو يغمرنا بأحاديثه الحكيمة وحكاياته النادرة وأحيانا يتكلم فى السياسة فكان الناظر إليه لا يحسبه مريضا ولكن الحقيقة إنه كان متعباً حتى أن أم المصريين كانت تشفق عليه وتقول له بكل حنو: استرح ولو قليلاً ياسعد!!

وأخيراً تقول «فهيمة ثابت» وهى تختتم يومياتها:

ومكثنا فى أكس لبان حتى ورد الخطاب الرسمى بالسفر إلى مصر فسافرنا مباشرة إلى مرسيليا ومنها أبحرنا إلى الإسكندرية على ظهر الباخرة، وردت برقيات كثيرة تدعو الباشا وحرمه إلى وليمة العشاء فقال الباشا لا يمكن أن أقبل دعوة وأهمل أخرى فالكل سواء والأحسن أن نمضى إلى الفندق اليس كذلك ياصفية؟! فقالت نعم هذا هو الأوفق، لأننا فى ظروف لا تسمح بقبول هذه الأفراح.

وطوال الفترة التى عاشتها «أم المصريين» فى جبل طارق تصاحب «سعد زغلول» كانت حريصة على أن تكتب خطابات ورسائل لصديقاتها المقربات فى مصر.

بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢٢ كتبت أم المصريين رسالتين هامتين كانت الأولى إلى استر فهمي ويصا زوجة «فهمي ويصا باشا» صديق سعد زغلول تقول:

عزيزتى

إذا لم أكتب إليك عقب وصولي فذاك ليس نسياناً لفضلك ولا تقصيراً فى الواجب نحوك لأن فضلك لا ينسى وجميلك لا يكافأ، ولك فى القلب المنزلة الرفيعة، ويشاركنى فى ذلك الباشا الذى يقدرك حق قدرك، ولكننى فى تعب عقب وصولى وفى إهتمامى بالباشا وصحته وأحمد الله أنه قد خف التعب وتحسنت الصحة وانتظمت المعيشة نوعاً، ولهذا أكتب لا لاشكرك لأن العبارة تقصر عن شكرك، ولا أذكرك لأن ذكراك دائما فى القلب حاضر ولكن لاشرح صدرك بما تقدم من أخبارنا التى أعرف أنها تسرك ولأسأل عن أخبارك وأتمنى أن تضعى من يكون يعيك قوة والقلب مسرة فى صحتك التامة وعزك الشامل.

«صفية زغلول»

وفى نفس اليوم كتبت أم المصريين رسالة ثانية إلى الأنسة عايدة «خطيبة» مكرم عبيد باشا قالت فيه:

جل طارق فى ٣ ديسمبر ١٩٢٢

عزيزتى عايدة

كنت أحب أن أبادر فأخبرك بما علمته من الباشا عن حضرة خطيبك «مكرم بك» الذى رأيتك عنده أرفع منزلة من الحب والاحترام ولا ينفك عند كل مناسبة أن يذكره بكل ود وإعزاز، ولكنى كنت فى تعب عقب وصولى، وفى شغل شاغل من الحالة التى وجدت الباشا عليها، أما الآن فقد خف التعب كثيراً وتوجهت الصحة للاعتدال، وأخذت تنتظم أحوال معيشتنا.

والباشا رأى فى خطيبك الكريم من الحب كله والأعزاز لشأنك ما يسرك أن تعرفيه من غيره، وله عند الباشا منزلة ابن ابن، لا شقيق أب ولا يسمع خبرا سعيداً إلا وفتش يمينا وشمالا ليقاسمه السرور به، ولا يذكر إخلاص فى محبة إلا كان خطيبك مكرم بك مثاله الكامل، وعز عليه أن يفارقه كما شق عليه وأرمى قلبه حزناً على والدك الكريم وإخوانه الأفاضل ولا يغيب ذكرهم عن قلبه ويدعو الله أناء الليل وأطراف النهار لهم بالفرج الشامل العاجل، عجل الله بعودة الغائب والإفراج عن المسجونين، ومتع ناظريك برؤيتهم ولا حرم البلاد من جليل خدمتهم ، وأرجو أن تقبلى عنى وصيات والدتك الجليلة وأخواتك الأعزاء والسلام.

«صفية زغلول»

وانتهت أيام المنفى فى جبل طارق، ووصل الزعيم والهانم «إلى أرض الوطن لتبدأ صفحة جديدة من حياة «أم المصريين» و«سعد زغلول»!

وإلى الفصل القادم



«سعد» من المنفى إلى رئاسة الوزارة

- «صفية» تدعو صديقاتها لحضور حفل البرلمان!
- «نازلى» تسأل عن صحة «سعد زغلول»!
- «سعد» للعربجية: أنا عربجى أقود عربة الوطن!
- زوجة مصرية تشكو لـ«سعد»: زوجى يضربنى!



.. كانت الشهور الأولى من عام ١٩٢٤ تحمل أكثر من مفاجأة سياسية هزت مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها!!

كانت البداية مع استقالة وزارة «محمد توفيق نسيم» باشا فى ٥ فبراير ولم يكن لها فى الحكم سوى شهرين!!

فشلت وزارة نسيم فقد استمر اعتقال الوطنيين، وبقى سعد زغلول وصحبه فى المنفى وزادت أحداث العنف السياسى!!

وظلت مصر بغير حكومة لأكثر من شهر، وفجأة وبدون سابق إنذار وفى ١٥ فبراير تشكلت وزارة «يحيى إبراهيم» باشا .

لم يكن للوزارة برنامج معين، فقد اختار الملك أحمد فؤاد كل وزراء هذه الحكومة، وكان رئيس الوزراء نفسه «يحيى إبراهيم» باشا ـ وحسب رأى المندوب السامى البريطانى ـ « كان حصانا أسود مجهولاً سواء من جانب الرأى العام أو دار المندوب السامى، وكانت أهم ميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة أو سياسياً حزبياً، ومن ثم فإنه لم تكن هناك أى ضغائن شخصية يمكن أن تقيد حركته.».

وفى ٢٧ مارس تقرر الإفراج عن «سعد زغلول» الذى كان معتقلاً فى جبل طارق، وجاء قرار الإفراج تحت ضغط الحركة الوطنية وأن استمرار اعتقاله يزيد فى ثورة الهياج فى مصر ويحول دون تهدئة الخواطر. بل ربما كان سبباً فى كثرة الجرائم السياسية!!

وأذاع اللورد اللنبى نبأ الإفراج عن «سعد زغلول» فى بلاغ صدر يوم ٣١ مارس ١٩٢٧ ، كما أصدرت وزارة الخارجية البريطانية بيانا قالت فيه:

«قال الطبيب المعالج لـ زغلول باشا فى تقريره إن تغيير نظام الحياة والاستحمام بالمياه المعدنية فى أوروبا ضروريان لصحة الباشا، ولهذه الأسباب قررت الحكومة بعد استشارة المندوب السامى أن تفرج عن زغلول باشا من جبل طارق، وقد أرسلت التعليمات اللازمة إلى حاكم جبل طارق فى ٢٧ مارس.»

وتلقت مصر هذه الأخبار بفرحة عارمة وابتهاج لا نظير له!!

وبعد أسابيع عاشت مصر مولد الدستور وإقراره فى ١٩ أبريل ثم سرعان ما صدر قانون الانتخاب فى ٣٠ أبريل.

□□

غادر «سعد زغلول» و«أم المصريين» جبل طارق وطاف ببعض البلدان الأوروبية وعاد إلى مصر فى سبتمبر ١٩٢٣. وكانت مصر كلها فى انتظاره. وحسب قول العقاد «زاد عليها فى هذه المرة اشتراك الأجانب فى الاستقبال بما كانوا ينثرون عليه من الأزهار والرياحين بأيدي السيدات والأطفال حتى امتلأت بها السيارة..»

ويروى «فخرى عبد النور» فى مذكراته: أما شوارع القاهرة فقد امتلأت عن آخرها بطوفان من البشر اجتازها «سعد» من المحطة إلى بيت الأمة فى أكثر من أربع ساعات واقفاً على متن السيارة المكشوفة يلوح لجماهيرها بمنديله الأبيض، منصوباً، رافع الرأس وقد عاد وهو الشيخ الذى تجاوز سنه السبعين من العمر شاباً فتياً. وكنا قد أقمنا فى فناء بيت الأمة - بعد أن رُفعت عنه الأختام التى وضعتها عليه السلطة العسكرية - سرادقاً يتسع لأكثر من خمسين ألفا، وقد امتلأ عن آخره ولم يبق فيه مكان لقدم، وفى هذا الحفل الحاشد خطب «سعد» شاكراً للأمة وفاءها وكرمها وثباتها على مبادىء الوفد فى طلب الحرية والاستقلال.»

وبدأ «سعد زغلول» يستعد لخوض أول انتخابات نيابية فى ظل دستور ١٩٢٣.

وحصل الوفد على ٩٠٪ من مقاعد النواب، وفشل فى هذه الانتخابات أشهر خصوم سعد والذين لا يؤيدون سياسته!! لكن أغرب ما أسفرت عنه الانتخابات هو سقوط رئيس الوزراء نفسه «يحيى إبراهيم» باشا وكان سقوطه شهادة بليغة وناطقة بنزاهته وحيدته وأمانته أيضا لأنه سقط فى دائرته (منيا القمح) وفاز عليه مرشح الوفد.

وفى ٢٨ يناير ١٩٢٤ قام سعد زغلول بتشكيل الوزارة وكانت رقم ٣٣ فى تاريخ الوزارات المصرية!!

لم يكن قد مضى سوى تسعة أيام فقط على تولى «سعد زغلول» رئاسة الوزارة عندما عاد إلى بيت الأمة غاضباً وساخطاً!!

صعد «سعد زغلول» إلى غرفة نومه فى الطابق العلوى، وبدأ يخلع ملابسه فى عصبية ظاهرة، وكانت «صفية زغلول» تساعده فى ارتداء «البيجاما والروب دى شامبر»، ثم أخذ سعد يفتش ويبحث عن طاقيته التى يضعها فوق رأسه فلم يجدها فى مكانها!! وارتبكت صفية وراحت تبحث عن الطاقية فى كل أنحاء الغرفة، وحاولت أن تبدد هذا الجو المشحون بالتوتر بأن قالت وهى تبتسم:

- إننى اضطرب حينما أراك غاضبا ياسعد!!

قال سعد زغلول بهدوء شديد لزوجته:

- إننى أفكر فى الاستقالة من رياسة الوزارة!!

- اندهشت «صفية» تماماً من تلك المفاجأة التى ألقى بها سعد زغلول زوجها، لكنها ابتلعت دهشتها وقالت له متسائلة:

- الاستقالة؟! إنه لم يمض عليك فى رياسة الوزارة ثمانية أيام فقط!! لقد ألفت الوزارة فى أول فبراير ونحن اليوم فى ٩ فبراير!!

وراح «سعد زغلول» يحكى لصفية زوجته المناقشات الساخنة التى دارت فى مجلس الوزراء قبل ساعات من حضوره، وكان الإجماع بأن تستقيل الوزارة إذا أصر الملك فؤاد على مواصلة اعتدائه على حقوق الشعب!!

وعلقت صفية زغلول ساخرة على كلام سعد بقولها:

- إن الملك لم يصبر عليك حتى ينتهى شهر العسل!!

وابتسم سعد زغلول «وقال ساخراً:

- ياصفية أنا لم أشعر بشهر العسل هذا .. لقد بدأت الخناقة فى ليلة الزفاف!!

وفى تلك اللحظة - حسب شهادة مصطفى أمين - فإن سعد زغلول تذكر رأى صفية وكيف إنها كانت تعارض دائما سعد فى أن يتولى رياسة الوزارة، وكان من رأيها أن الوزارة أصغر منه، وأن مقعد رئيس الحكومة أصغر كثيراً من مقعد زعيم الأمة! رئيس الحكومة يعينه رجل واحد أما زعيم الأمة فيعينه الشعب بأسره.

وكانت «صفية» تقول لـ سعد دائماً: أخشى ياسعد أن تسقطك رياسة الحكومة فى عين الشعب!!

وكانت صفية زغلول «صادقة فى خشيتها فقد عاشت وسمعت أن والدها «مصطفى فهمى» باشا رئيس الوزراء طوال ١٣ سنة متصلة كان الناس يتهمونه بممالأة الانجليز، وأنه لا يفعل شيئاً إلا بأمرهم، ورغم المبالغة فى تلك الاتهامات فقد كان الناس يتداولونها كحقيقة!

كان «سعد زغلول» رئيس الوزراء لديه من المشاكل ما يكفيه!!

لكنه وجد نفسه فجأة يواجه مشكلة لم تخطر على باله أو يتوقعها على الإطلاق.. ذات صباح استيقظ كل «الحوذية» العربجية - أصحاب الحناطير واتجهوا فى مظاهرة كبيرة إلى بيت الأمة، وطلبوا مقابلة رئيس الوزراء «سعد باشا».

وعندما قال لهم بواب بيت الأمة إن سعد زغلول يتناول إفطاره صاحوا غاضبين فى وجهه: إننا جئنا دون أن نذوق لقمة، كيف يأكل سعد إفطاره ونحن نموت جوعا!!

وعلم سعد بمجيء «الحوذية» وترك إفطاره وخرج إلى شرفة السلاملك يستقبل هؤلاء الحوذية الثائرين..

وفوجيء «سعد زغلول» باشا بأغرب مشكلة اندهش لها فقد راح هؤلاء يطلبون منه أن يصدر قانوناً بمنع السيارات من السير فى شوارع العاصمة وأن سيارات التاكسى بدأت تنتشر فى القاهرة والناس أصبحوا يفضلون ركوب السيارات على ركوب العربات الحنطور مما يهددهم فى أرزاقهم وتهددهم بالبطالة والموت جوعاً. والحنطور صناعة مصرية والسيارة صناعة أجنبية، والشعير الذى تأكله الخيل يزرعه الفلاح المصرى والبنزين يستورد من عدوتنا انجلترا، ثم إن السيارة إذا صدمت مصرياً قتلته، بينما العربة الحنطور لا تقتل أحداً.

وختم الحوذية كلامهم قائلين: إن واجب وزارة الشعب أن تصدر هذا القانون لتحمى الصناعة المصرية والفلاح المصرى، وتحمي حياة المصريين من حوادث اصطدام السيارات!!

كان «سعد زغلول» يستمع فى اهتمام شديد وأخيراً بدأ يتكلم بهدوء.

- إن السيارات دخلت إلى القاهرة قبل تولى وزارتى بعدة سنوات، فلماذا لم تتقدموا بهذا الطلب من قبل إلى الحكومات الأخرى؟!

وفوجيء سعد بالحوذية يقولون له: لأن الحكومات الأخرى عينها الإنجليز لتعمل لمصلحة الإنجليز، أما حكومتك فنحن الذين انتخبناها لتعمل لمصلحتنا.

وحسب ما يقول الكاتب الكبير «مصطفى أمين» فقد تطلع سعد إلى عيون العربجية فقرأ فيها التحدى والعنف والإصرار وابتسم وكأنه أراد بهذه الابتسامة أن يحتضنهم جميعاً وقال:

- إننى عربجى مثلكم، مهمتى أن أقود عربة الوطن كما تقودونها، إن حكومة الشعب هى العربة الحنطور، ومصر هى الزبون الوحيد الذى يركب هذه العربة وواجبى أن أوصل هذا الزبون إلى الجهة التى يريد الذهاب إليها وهى الاستقلال التام لمصر والسودان والفرق الوحيد بينى وبينكم أنكم تحملون الكرباج وأنا لا أحمل الكرباج!

وضحك العربجية الثائرون، أحسوا بسعادة غامرة أن زعيم الأمة ورئيس وزرائها يؤكد لهم أنه عربجى مثلهم، ويشبه عمل زعيم الأمة ورئيس وزرائها بعمل العربجية.

وعندما شعر سعد أنه كسب قلوبهم قال لهم:

والآن سأتحدث إليكم كعربجى يتحدث مع زملائه العربجية!! إن الزبون يريد أن يصل إلى الجهة التى يريدها بسرعة، تماماً كما تريد مصر أن أحقق لها الاستقلال

بسرعة وكل إبطاء أو تأخير ليس فى مصلحة الزبون. ونحن الآن فى عصر السرعة، السيارة هى علامة التقدم، إنها تحل فى العالم كله محل الحنطور، ولا أستطيع كزعيم هذه الأمة أن أسمح لها أن تتخلف، أن تمشى ببطء فى عصر السرعة!! غير معقول أن أرى الطيارة تحل محل السيارة فى بلاد أخرى وألزم بلدى بأن تركب عربة حنطور، ستكون نتيجة ذلك أن تسبقنا الأمم الأخرى!!

ومضى «سعد زغلول» يقول متسائلاً

- ماذا كنتم تقولون لو أن أصحاب العربات الكارو طلبوا منع العربات الحنطور؟!

وأصبحنا الشعب الوحيد فى العالم الذى لا ينتقل إلا فوق عربات الكارو؟! وأنا لا أكلمكم كرئيس وزراء ولا كزعيم أمة؟! ولكنى أتكلم كواحد منكم يهمنى مستقبلكم، لأن مستقبلكم هو مستقبلى، سوف أفعل ما تريدون!! إذا كنتم تريدون أن تتقدم مصر بسرعة العربة الحنطور فسأخضع لرأيكم .. وإذا أردتم أن نتقدم بسرعة السيارة وبسرعة الطيارة فسوف أفعل ما تأمرون به!!

وصاح الحوذية .. بسرعة الطيارة!

قال سعد زغلول: إذن اتفقنا!

وهتف الحوذية، يعيش سعد باشا

وضحك سعد وقال لهم: لا بل قولوا يعيش الأسطى «سعد»!!

وهتف الحوذية وهم يغادرون بيت الأمة .. يعيش الأسطى سعد!

وصعد سعد زغلول إلى حجرة الطعام يستأنف تناول إفطاره، وراح يحكى لـ صفية زغلول كل ما دار بينه وبين الحوذية، وكانت «صفية» سعيدة وفرحة ومندهشة من كلام زوجها!!

□□

كانت مصر كلها فى انتظار يوم السبت ١٥ مارس سنة ١٩٢٤، فلأول مرة منذ الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ يجتمع نواب البلاد وشيوخها فى برلمان تتمثل فيه سلطة الأمة.

وفى حفلة افتتاح البرلمان - كما يقول مصطفى أمين - حدثت وقائع طريفة!!

فقد دعت الملكة نازلى «زوجات الوزراء لحضور حفل افتتاح البرلمان، وجاء فى الدعوة أن تحضر السيدات وقد ارتدين «اليشمك».

وكان أغلب زوجات وزراء سعد زغلول من الفلاحات أو من بنات الشعب اللاتى لا يعرفن ماهو هذا اليشمك المكتوب فى الدعوة الملكية.

وعرف أن اليشمك هو عبارة عن قطعه قماش أبيض تلفه السيدة حول رأسها كالعمامة ويسقط على وجهها فلا تظهر منه إلا العينان، ويثبت بعدد من الدبابيس بطريقة تخفيها عن العيون وهو يحل محل البرقع الأبيض الذى اعتادت النساء الشرقيات أن يضعنه فوق وجوههن!! وأسقط فى يد زوجات الوزراء!

وأرسلت «صفية زغلول» السيدة «هدية بركات» زوجة الدكتور «بهى الدين بركات» لتعليم زوجات الوزراء الطريقة العويصة لارتداء اليشمك!! فقد كان والد «هدية» فى وقت من الأوقات ناظر الخاصة الملكية، وكان شقيقها «عطا عفيفى بك» تشريفاتى السلطان!!

وهكذا اكتسبت خبرة فى طريقة ربط اليشمك!!

ورفضت زوجة فتح الله بركات باشا وزير الزراعة أن تتعلم كيف تربط اليشمك وقالت إنها سيدة فلاحة، تريد أن تعيش فلاحة وتموت فلاحة.. ورفضت أن تحضر افتتاح البرلمان حتى لا تضع على وجهها هذه «المسخرة» وأمضت السيدة «هدية» عدة أيام فى تعليم زوجات الوزراء طريقة ارتداء اليشمك!

وكانت أصعب التلميذات هى السيدة حرم نجيب الغرابلى باشا وزير الأوقاف، فإنها عبثاً حاولت أن تتعلم طريقة ربط اليشمك، وأخيراً طلبت من هدية أن تربط لها اليشمك فى اليوم السابق لافتتاح البرلمان، وبقيت طوال اليوم ساهرة وعلى رأسها اليشمك إلى أن جاء موعد الاحتفال فذهبت باليشمك المربوط.

ومن جهتها فقد حرصت «أم المصريين» على دعوة بعض المقربات منها لحضور افتتاح البرلمان فكتبت إلى صديقتها إستر فهمى ويصا تقول:

«عزيزتى المحترمة مدام فهمى بك ويصا

أهديك تحياتى ومزيد احتراماتى ، تناولت خطابك اليوم وسررت جداً لقدومك إلى مصر لنراك فى غاية الصحة، وأنى حسب طلبك حجزت لنا تذكرتين لنذهب سويا يوم افتتاح البرلمان فلا يكون عندك مشغولية من هذه الوجهة، وأرجو إبلاغ سلامى لجميع عائلتك خصوصاً «فهمى» بك ، وكذا «الباشا» يهديكم أزكى السلام. «صفية زغلول»

□□

وكان بريد «سعد زغلول» رئيس الوزراء هو أغرب بريد يتلقاه رئيس وزراء فى العالم كله.

كان «يصل» «سعد زغلول» خطابات عجيبة من زوجات يشكون فيها أن أزواجهن اعتدوا عليهن بالضرب!! أو من فلاحة فى دسوق تطلب من زعيم الأمة ورئيس الحكومة أن يتدخل لمنع زوجها من الزواج بأخرى!! أو رسالة من عامل فى شركة السكر يطلب

منه منع حماته من التدخل فى شئونه المنزلية وتعكير سعادته الزوجية أو من تلميذة فى مدرسة السنية للبنات تقول له إن أهلها يرغمونها على الزواج من جاهل يكبرها بثلاثين عاماً!!

وكان سعد زغلول قد كتب فى خطاب قبول تأليف الوزارة إلى الملك «فؤاد» يقول إن من بين ما ستقوم به وزارته أن تعمل وسعها على تقليل أسباب النزاع بين الأفراد والعائلات وإحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم، وكان سعد يقصد بذلك أن الحكومة ستعمل على إزالة الخلافات التى حدثت بين العائلات نتيجة أول انتخابات نيابية فى البلاد!!

□□

وما أكثر المرات التى شاهدت فيها «صفية زغلول» زوجها غاضباً وساخطاً بسبب خبر أو واقعة قرأها فى الصحف أو سمعها من خلصائه!!

وكان أكثر ما يؤلمه ويضايقه هو فساد الذمم وخرابها.. وذات مرة قالت له صفية زغلول»:

إنك حزين ياسعد وكأن هذه الفلوس فلوسك؟!

رد سعد بغضب: نعم فلوسى ياصفية! كل قرش يسرقونه من خزانة الدولة أشعر أنهم سرقوه من جيبى!!

قالت صفية له: ولكنك لم تعد رئيس الحكومة!! إنها مسئولية الحكومة أن تبحث عن اللصوص التى يسرقونها!!

وكان رد سعد زغلول هو قوله:

وماذا أعمل إذا كانت الحكومة هى التى تسرق!!

□□

وطوال حياة «سعد زغلول» ومنذ أصبح شخصية سياسية لها مكانتها وهو يتعرض للهجوم، لقد بدأ ذلك الهجوم القاسى منذ تم تعيينه وزيراً للمعارف بترشيح من اللورد كرومر نفسه!!

وكتب «مصطفى كامل» فى صحيفة «الابتندار» (٧ مارس ١٩٠٧) مقالا نارياً يهاجم فيه «سعد زغلول» كان عنوانه «فشل وزير» قال فيه:

«عندما طالب اللورد كرومر بتعيين «سعد باشا زغلول» وزيراً للمعارف العمومية حدثت فى مصر حالة من الدهشة والأمل، وتساءل الناس: لأى غرض اختار المندوب الإنجليزى هذا القاضى لأهم وزارة؟! هل كان ذلك من أجل إعادة تنظيمها ومن أجل الحصول على رضا الشعب؟! أم من أجل تدعيم السياسة الإنجليزية فقط؟!

لقد اعتقد الكثيرون فى حسن نية «سعد باشا» وكذلك فى تحول اللورد كرومر!!

إننى لم أتخلف شخصياً عن إنصاف قدرات الوزير الجديد كمحام وقاض، ولكنه كيف سيتصرف كوزير؟!

لقد قلت له بصراحة فى اللواء (الجريدة) إن عليه أن يسلك إحدى الطرق الثلاثة:

١ـ أولها أن يصبح وزيراً حقيقياً قادراً على تنفيذ البرنامج الوطنى.

٢ـ أو أن يستقيل فى مقابل تعديات الإنجليز المستمرة وأن يحظى فى هاتين الحالتين بإعجاب مصر كلها.

٣ـ أو أن يساند السياسة الإنجليزية وأن يخسر بذلك كل تعاطف وكل هيبة له فى البلد.

إننى أأسف اليوم لملاحظة الوزير وهو يقول لمصر فى خطبته فى الجمعية العمومية: إننى أمام أمانيك وأوامر اللورد كروم أطيع تلك الأوامر!

لا يوجد ما يدعونا للدهشة، بخصوص هذا الرجل الذى تعلم مؤخراً اللغة الفرنسية وهو لا يحسن التحدث بها. وقد نجح فى مهنته بفضل اللغة العربية ويؤكد تأكيداً جريئاً على أن تلقى العلوم باللغات الأجنبية (ولتكن الإنجليزية) أمر ضرورى..

إننا نستطيع الآن أن ندرك أكثر لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية، صهر رئيس الوزراء وأين سر سياسته، وأن ندرك أكثر لماذا تضلل الصحف الإنجليزية والمناصرة للإنجليز بقولها أن الوزير الجديد كان وطنياً فى حين أنه كان يبدى فى علاقاته كلها تعاطفاً مع السلطة.

نحن نعلم الآن لأى غرض اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية رجلا لم يلتحق أبداً بمدرسة، ولا يعد قط عالم تربية ولم يهتم أبداً بالقضية(!!)

من الممكن أن يكون الإنسان محامياً وقاضياً ممتازاً ولكن ليس مؤهلاً لإدارة تربية وتعليم الشباب أو إعداد مستقبل البلاد.

لقد أخطأ سعد باشا زغلول «خطأ مريعاً فى الجمعية العمومية، وأنه لو كان وزيراً أوربياً يتحدث أمام البرلمان لاستقال منذ ذلك الوقت ولكنه فى مصر وهو يعتقد أن ثقة اللورد كرومر فيه تكفى وحدها لحمايته. لقد خدع لأنه طالما اعتمد على هذه الثقة سيفقد تأييد بلاده.

إن كل أفضال اللورد كرومر عليه وتودده له لا يمكن أن يتسببا فى فشل مثل ذلك الذى تردد صداه فى مصر كلها. إن كل الذين كانوا يقدرون الوزير كقاض يأسفون على حاضره ويخشون على مستقبله ويفضلون ماضيه، إنه على منحدر خطير حقاً.

واختتم «مصطفى كامل» هجومه الشرس بهذه الكلمات ذات الدلالة:

«إننى أعلم أنهم يجعلونه يأمل فى تولى رئاسة الوزارة بعد حماه، ولكن هل تساوى حقاً (رئاسة الوزارة) كل الخسائر الأخلاقية التى سوف يتحملها إذا استمر فى الطريق الذى سلكه؟!».

وبعد أكثر من شهر عاد «مصطفى كامل» لمواصلة هجومه الضارى على سعد زغلول فكتب بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٠٧ يقول:

«ما من شىء يوضح كراهية اللورد كرومر للمصريين ومعارضته لنهضتهم مثل الوصف الذى خص به ناظر التعليم العام (سعد زغلول) فهو يقول لنا إنه ينتمى إلى قلة من أنصار الشيخ محمد عبده الذين لديهم الموهبة التى تروق لعظمته» .. و«أنه لم يقم بذلك إلا لمكافأة «سعد زغلول» باشا لشعوره المرضى تجاه الاحتلال، وأنه لم يرد بتعيينه أن يصلح من أمر التعليم، وقد نبهه بأنه لو ظل هكذا مصالحاً سهل التشكيل فسيصل إلى صداقته!!

وفى الواقع أنه من اليسير سؤال اللورد كرومر هل سعد باشا هو الشخص الوحيد الكفُء فى هذا البلد؟! لا يوجد آخر مثله؟!»

□□

وكان لورد كرومر يعرف سعد زغلول من زياراته لصالون الأميرة «نازلى فاضل» ويسمع عنه كلاماً طيباً من الإمام الشيخ محمد عبده، ويعلم ما اشتهر به فى القضاء من الجد والنزاهة والاستقامة، وكانت المرة الأولى التى يتم فيها ترشيح «سعد» لمنصب الوزير فى سنة ١٨٩١.

وعندما كان «سعد زغلول» وزيراً للمعارف استأنف إرسال البعثات التعليمية إلى المعاهد الأوروبية، وأشرف بنفسه على انتقاء الطلبة المتفوقين،

ولم يكن «سعد» يستطيع الفصل بين التفوق الدراسى والأخلاق العالية، ومن ملاحظاته فى هذا الصدد أنه استعرض الطلبة المرشحين لإحدى البعثات فسأل أحدهم وقد استكبر سنه - هل تزوجت؟!

قال الطالب: نعم؟!

عاد «سعد» يسأله: وكيف تصنع بزوجتك وأنت مقدم على سفر فى أوربا لبضع سنوات!!

ورد الطالب فى بساطة: لقد طلقتها ياسعادة الباشا؟!!

وأمر «سعد زغلول» بحذف اسم هذا الطالب من البعثة وقال فى حزن وغضب:

- مثل هذا لا يؤتمن على تعليم!!

لم تكن الأخلاق والمبادئ تتجزأ عند سعد زغلول سواء كان إنساناً أو وزيراً.

وحدث مرة أن رشح «سعد زغلول» أحد النواب من أنصاره وزيراً، ثم علم سعد «أن هذا الرجل طلق زوجته بعد زواج دام عشرين سنة، بعد أن اكتشف أن زوجته سيئة السمعة، فعدل «سعد» عن ترشيحه لهذا المنصب وكان يقول لمن حوله: إن الرجل الذى لا يستطيع أن يكتشف سوء خلق زوجته إلا بعد عشرين سنة لا يستطيع أن يكتشف الأخطاء فى وزارته إلا بعد مائتى سنة!!»

ظل «سعد زغلول» وزيراً للمعارف العمومية طوال أربع سنوات ابتداء من ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦، ثم أصبح ناظراً للحقانية (العدل) فى وزارة «محمد سعيد باشا» التى تشكلت فى ٢٣ فبراير سنة ١٩١٠ وظلت حتى إبريل ١٩١٤

واجه «سعد زغلول»، طوال سنوات عمله وزيراً، عشرات المواقف الصعبة والحرجة.. لكن مشكلاته كرئيس وزراء كانت أعقد وأسخن!!

لم يكن سعد زغلول «مجرد رئيس وزراء أتت به الأغلبية، بل كان رمز الأمة وضميرها الحى»..

□□

صباح يوم السبت ١٢ يوليو استيقظت «أم المصريين» من نومها مهمومة ومنقبضة الصدر وعندما سألها«سعد» ماذا بك قالت له: عينى بترف!!

ابتسم «سعد زغلول» ونصحها بأن تضع القطرة فى عينيها، ومع ذلك ظلت «عينها ترف» وتحقق ما كانت تخشاه فقد تعرض زوجها «سعد زغلول» لمحاولة اغتيال غريبة!!

كان سعد وزملاؤه الوزراء يستعدون للسفر إلى الإسكندرية لتقديم التهنئة إلى الملك فؤاد بمناسبة عيد الأضحى، وبينما كان سعد يسير على رصيف المحطة قبيل الساعة السابعة صباحاً قاصداً الصالون المخصص له أطلق عليه شاب الرصاص من مسدسه فأصابه فى ساعده الأيمن، وهم الجانى أن يثنى برصاصة أخرى ولكن الجماهير هجمت عليه وكادت تفتك به لولا أن قبض عليه رجال الحفظ وخلصوه من أيديهم، وحسب شهادة المؤرخ عبدالرحمن الرافعى فإن الجانى شاب مصرى مفتون يدعى عبدالخالق عبداللطيف كان طالباً بالطب فى برلين وظهر من التحقيق أنه اعتدى على سعد لأسباب سياسية.

وحسب شهود ذلك الوقت ومنهم سكرتير سعد، فقد «نقل سعد زغلول بعد الإصابة إلى قاعة الاستراحة فى المحطة فنظر إلى الوزراء وهم حوله وقوف، والحزن العميق ظاهر فى وجوههم وقد سالت الدموع من مآقى بعضهم فقال:

لا تحزنوا إذا مات سعد، فإن مبدأه لا يموت.. أنتم من بعدى فاستمروا فى تنفيذ برنامجكم الوطنى!!

فقال الوزراء: لا لا. لايكتب الله أن تصاب بسوء.

فقال سعد فى صوت قوى رابط الجأش: وماذا فى ذلك لنمت فى سبيل الوطن، نموت نحن وليحيا الوطن.

وكانت الجماهير قد ازدحمت أمام باب القاعة، تدافع رجال البوليس، ورجال البوليس يدافعونهم، فهب ـ سعد ـ واقفاً متجهاً إليهم وقال بصوت ممتلىء قوة وحرارة:

ـ «لا تكتئبوا، ولا تهتموا إلى الأمام دائما إلى الأمام!»

ثم وافته صاحبة العصمة السيدة الجليلة حرمه المصون وقابلته متجلدة فابتسم وخاطبها.

ـ لا تجزعى فالحالة بسيطة لا تستدعى الجزع.

كانت كل مصر قلقة على صحة سعد زغلول ، وأرسلت جلالة الملكة نازلى باسم أمن السراى الملكية إلى حضرة صاحبة العصمة حرم الرئيس «سعد زغلول» للاستفسار عن صحته وإبلاغها تمنياتها بعاجل الشفاء!!

كما انهالت الرسائل والبرقيات من كل العالم على بيت الأمة تسأل عن صحة الزعيم!

وإلى الفصل القادم..



سعد فى المستشفى عقب شفائه من حادث الاعتداء. وقد وضعت أم المصريين يدها على كتفه، وإلى يساره مدموازيل فريدة



صورة نادرة لصفية



فتاة ثائرة في بيت الأمة !

□ الصحفية الصغيرة تهدد رؤساء الوزارات !

□ قصة حب قضت على «منيرة ثابت» !

□ «منيرة» تتحمس لأفكار ومبادئ «سعد زغلول» !

□ «سعد» يأمر «عبد القادر حمزة» بالزواج فوراً !



فجأة اقتحمت حياة سعد زغلول وزوجته « أم المصريين» فتاة شابة على درجة عالية من الجمال والذكاء والثقافة والشقاوة أيضاً!!

من أول نظرة أحبها «سعد زغلول» و.. واحتضنتها «صفية زغلول»!!

رأى «سعد زغلول» فى هذه الفتاة نموذج البنت المصرية الجريئة والمحترمة التى تحترم التقاليد لكنها تثور على كل ماهو متخلف ولا لزوم له!!

وكانت «صفية زغلول» ترى فى هذه الفتاة كل ما كانت تتمناه وتحلم به ولم تستطع تحقيقه، لكن أهم ما لفت انتباه صفية إليها أنها أحست بها كما لو كانت «ابنتها» التى تمنت إنجابها لكن القدر لم يمنحها نعمة الأمومة!!

كان اسم هذه الفتاة «منيرة ثابت» أو «الثائرة الصغيرة» كما كانت تسميها صحافة العشرينيات من هذا القرن!!

كانت «صفية زغلول» ـ القارئة لكل الصحف والمجلات فى شغف يصل لحد الإدمان ـ هى التى لفتت نظر «سعد زغلول» إلى هذه الفتاة الجريئة التى تكتب فى الصحف بجرأة نادرة وشجاعة غريبة وتوقع مقالاتها باسم «منيرة ثابت»!!

وكانت مقالات منيرة ثابت حديث كل القراء فى مصر وقراء العالم العربى التى كانت تصلهم الجرائد المصرية فى ذلك الوقت.

كان غريباً فى منتصف العشرينيات أن تعلن فتاة بالكلمة والمقال وتدعو للمساواة التامة بين المرأة والرجل وإلى منح المرأة حق الانتخاب!!

عن الثائرة الصغيرة «منيرة ثابت» كتب مصطفى أمين يقول:

«فوجيء القراء ذات يوم فى العشرينيات بمقالات نارية عنيفة تحتل صفحات الصحف بإمضاء «منيرة ثابت»، كلمات كالمدفع الرشاش، وجمل كالقنابل، وعبارات خلت من نعومة النساء ورقة المرأة وسحر الجنس اللطيف.

واعتقد القراء أن منيرة ثابت هذه اسم مستعار لرجل، فغير معقول أن تكتب امرأة بهذا الأسلوب العنيف، فهى لا تلوح بأغصان الزهور وإنما تلقى على الحكومة الطوب، وتطلق على الوزراء الرصاص، وتحارب ولا تسالم، وتهاجم ولا تتوقف!!

وتضاعفت دهشتهم عندما اكتشفوا أن «منيرة ثابت» هذه امرأة حقيقية من لحم ودم، وأنها ليست سيدة حاصلة على شهادة جامعية، وإنما هى فتاة شابة طالبة بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة.

كانت «منيرة ثابت» فوق ذلك آنسة جميلة، رشيقة القد، ساحرة العينين، فاحمة الشعر خفيفة الدم، إذا جلست فى مجلس سيطرت عليه بحماسها وجاذبيتها وقوة شخصيتها، وكانت مقالاتها تشبهها، أو كانت هى التى تشبه مقالاتها.

وكان رؤساء التحرير فى تلك الأيام - حسب ما يؤكد مصطفى أمين - «يجدون مشقة فى أن يضعوا «فرامل» لاندفاعها أو يخففوا من عنف لهجتها، أو يشطبوا العبارات التى تؤدى بهم إلى محكمة الجنايات، وكأنها تحرص فى كل مقال أن ينطبق عليه قانون العقوبات!! وعلى الرغم من محاولات الشطب والحذف وسكب بعض الماء على الكلمات الملتهبة كانت تخرج مقالاتها جمرة من نار تحتاج إلى استدعاء فرقة المطافىء!!

وكانت - منيرة ثابت - تكتب.. تهاجم الديكتاتورية وتهاجم الرجال، وكانت تطالب بالحرية للشعب وبحق الانتخاب للنساء المصريات».

كانت «منيرة ثابت» لا تيأس أبداً.. كانت تحتل مكتب رئيس التحرير إلى أن يوافق على نشر مقالاتها وتدافع عن كل كلمة يريد رئيس التحرير حذفها، وتقاتل دفاعاً عن كل سطر كأنها جيش يستبسل فى الاحتفاظ بالأرض التى استولى عليها، وكان بعض الكتاب والمحررين فى جريدة الأهرام يهرعون إلى إنقاذ الأستاذ «داود بركات» رئيس تحرير الأهرام من براثنها ويقذفونها بعبارات السخرية أو يسلقونها بألسنتهم الحارة، أو يلوحون لها بقانون العقوبات، أو يحذرونها من السجن، فكانت لا تبالى بكل هذا، ترد على السخرية بالسخرية أو تقابل الهجوم بالهجوم!!

وكان يساعدها فى المعركة خفة دمها، وسعة صدرها وإيمانها العجيب بقضية المرأة. ولم يكن معروفاً فى ذلك الوقت أن تجرؤ امرأة وتهاجم رئيس الوزراء، فقد كانت المرأة المصرية معروفة بشدة الخفر والحياء، إذا هوجمت احمر وجهها وبكت أو انسحبت من الميدان.

أما منيرة ثابت الطالبة الصغيرة، فمنذ عام ١٩٢٠ ورغم صغر سنها لها الجولات الصحفية الساخنة وكانت تكتب فى جريدتى البسفور والأهرام بتوقيع «مصرية» أو «ثائرة» واختلفت مع الزعيم الاقتصادى الكبير «طلعت حرب» فى آرائه التقليدية عن المرأة!!

□□

وهكذا كان الزعيم «سعد زغلول» يتابع بإعجاب مقالات الفتاة الثائرة «منيرة ثابت» وشاركته هذا الإعجاب زوجته صفية أم المصريين!!

وذات يوم قرأت «صفية زغلول» فى صحيفة الأهرام مقالا نارياً لمنيرة ثابت، وبعد فراغها من قراءته طلبت من زوجها «سعد زغلول» أن يقرأه لأهمية ومنطق ما جاء فيه!!

فى هذا المقال المنشور يوم ٣ مارس سنة ١٩٢٤ قالت منيرة ثابت تخاطب رئيس الوزراء سعد زغلول قائلة:

«قرأت أن الحكومة تنوى أن تقيم حفلة شائقة لافتتاح البرلمان المصرى الجديد، وقد بت أتحرق شوقاً لحضور هذه الحفلة فتساءلت مراراً: ألا يكون للسيدات المصريات مقاعد فى هذه الحفلة؟! إنى لأوجه اليوم هذا السؤال علنا إلى صاحب الدولة رئيس الوزارة السفورى الجليل (تقصد الذى يساند سفور المرأة) إنه حقاً لمن الغبن الفاحش أن تحرم مندوبات الجنس اللطيف من الاشتراك فى الاحتفال بافتتاح البرلمان المصرى.

لقد كان للمرأة المصرية نصيب فى الجهاد لا يقل عن نصيب الرجل، فمن حقها أن تشترك معه فى حفلة افتتاح المجلس النيابى الذى هو ثمرة ذلك الجهاد المشترك.»

وراقت الفكرة لـ سعد زغلول وقرر تنفيذها على الفور!!

ويقول «محمد إبراهيم الجزيرى» سكرتير سعد زغلول (فى مذكراته):

وكان «سعد» لا يعرف هذه الفتاة إلا باسمها الذى تنشره الصحف ولكنه ـ وهو نصير المرأة ـ أشار على أولى الأمر فى المجلسين بأن يخصصوا شرفة أو أكثر فى كل مجلس للسيدات الزائرات أسوة بشرفات الزوار، وأصبح هذا التنظيم تقليداً متبعا فى البرلمان.

لكن هناك واقعة أخرى هامة فاتت على سكرتير سعد زغلول، وربما وجد شيئاً من الحرج فى تدوينها فى مذكراته التى صدرت عام ١٩٢٤!!

وقائع هذه الحكاية جرت قبل حوالى شهر من نشر مقال «منيرة ثابت» «السابق»، وبالتحديد بعد فوز «سعد زغلول» فى الانتخابات البرلمانية، وفوزه الساحق ثم تشكيله الوزارة ابتداء من ٢٨ يناير ١٩٢٤، والحكاية رواها الأستاذ «مصطفى أمين» وتقول تفصيلاتها:

«ذهبت منيرة ثابت إلى رئيس الوزراء «سعد زغلول» تحتج عليه لأن وزارته لا تمثل الشعب!!

ودهش سعد زغلول وسألها:

ـ لماذا؟! إن وزارتى أول وزارة فى مصر يدخلها الأفندية!!

قالت منيرة ثابت:
- لأنه ليس فيها امرأة وزيرة!!
قال لها سعد زغلول ضاحكاً:
- جميع الوزراء متزوجون، وكل وزير منهم ينوب عن زوجته!!
ولم تضحك منيرة ثابت من سخرية الزعيم سعد زغلول، ومضت فى حماسها مطالبة بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب بحجة انها اشتركت فى ثورة ١٩١٩ جنباً إلى جنب مع الرجال، وسقطت نساء شهيدات برصاص الإنجليز!!
وقال لها الزعيم «سعد زغلول»:
- أعدك عندما يخرج آخر جندى إنجليزى من مصر أن أعطى المرأة المصرية حق الانتخاب!!
قالت منيرة ثابت:
- نريد حق الانتخاب للمرأة فوراً!
قال «سعد»:
- أخشى إذا أثرنا حكاية منح المرأة حق الانتخاب الآن أن يحدث انقسام فى الأمة، فلا تزال نسبة كبيرة من السكان لا توافق على اشتراك النساء فى السياسة!! وعندما يخرج آخر جندى أجنبى من مصر أعدك بأن أنضوى تحت زعامتك وأطالب للمرأة المصرية بحق الانتخاب(!!)
وتصور الزعيم «سعد زغلول» (٦٤ سنة) أنه استطاع إقناع تلك الفتاة الصغيرة وراح يروى لزوجته فى المساء مادار بينه وبين «منيرة ثابت»!!
ومضت عدة أيام على هذا اللقاء!!
وحسب ما يقول «مصطفى أمين» فقد فوجىء سعد بوفد من طالبات مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة، وتقدمت منيرة ثابت إلى سعد زغلول وقالت له:
- إن نساء الأمة لم يقتنعن برأى زعيم الأمة بتأجيل منح المرأة حقوقها إلى أن يخرج الإنجليز!!
قال سعد زغلول:
- أنا لم أعارض حق المرأة وإنما طلبت التأجيل إلى أن يتم جلاء الإنجليز، لأن التقاليد لا تسمح بدخول المرأة البرلمان فى الوقت الحاضر(!!)
وانبرت «منيرة ثابت» بطول لسانها تقول:
- التقاليد منعت الأفندية من أن يصبحوا وزراء، وأنت عينت «واصف أفندى غالى» وزيراً للخارجية ونجيب الغرابلى أفندى وزيراً للعدل، والدكتور «أحمد ماهر أفندى»

وزيراً للمعارف، و«على الشمسى أفندى» وزيراً للأوقاف، إنك رئيس وزارة ثورة وواجبك أن تمنح المرأة حق الانتخاب وتسمح لها بدخول البرلمان!!

وقال لها سعد:

- ابدئى واكتبى رأيك فى الصحف لتمهدى الرأى العام!

قالت منيرة ثابت:

- ولكن الرجال يحاربوننى، رؤساء تحرير الصحف لا ينشرون كل ما أكتب!!

قال لها سعد:

- «إذن اصدرى أنت مجلة واكتبى فيها ماتشائين، وكونى أنت رئيسة التحرير فلا يشطب لك أحد رأياً!!»

وتحمست «منيرة ثابت» حماساً لا حدود له لفكرة سعد زغلول!!

□□

ويكشف سكرتير «سعد زغلول» عن جوانب أخرى فى حكاية «منيرة ثابت» فيقول:

«جاءت الآنسة منيرة ثابت إلى بيت الأمة تسبقها هاتان الثورتان: دخول السيدات زائرات إلى مجلس البرلمان، والمطالبة بالمساواة بين الجنسين، فاحتلت مكانا مرموقاً لدى «سعد» وأم المصريين .. وظلت وثيقة الصلة بهما.

وأذكر أنها كانت دائبة قبل مجيئها إلى بيت الأمة على إرسال الكتب إلى الرئيس فى شتى شئون المرأة، سياسية أو اجتماعية، وكنت بحكم وظيفتى أطلع على رسائلها، وأبلغها ردود الرئيس عنها ردوداً مملوءة بالعطف والتشجيع، ورحب بها «سعد » و«أم المصريين» وعرفا أنها صاحبة الرسائل الثائرة التى كانت تمطر بها بيت الأمة من الإسكندرية حيث كانت تتعلم، أو من ريفها فى إحدى قرى مديرية (محافظة) البحيرة.

ساهمت الآنسة «منيرة ثابت» فى الخدمة العامة، وشرعت تجاهد بالدعاية للزعيم ولحركته، تكتب المقالات فى الصحف، وتذيع المنشورات، وتقوم بقسط وافر من الجهود أحرى أن تقوم به لجنة كاملة..ولقد أصابنى فى تلك الفترة من مشاغباتها التى كانت طابعها فيما تكتب، وابل من العتاب والحساب فكانت تلصق بى تهمة كل تصرف لا يعجبها صدوره من اللجان النسائية الوفدية، وكانت تلقى علىّ مسئولية الأخطاء اللغوية والأسلوبية، بل الأخطاء الموضوعية التى كانت تبدو لها فى محررات تلك اللجان، لأنى أقوم بتوزيع هذه المحررات على الصحف.

وكنت أقبل هذا العنف منها لأنى أعرف أنها ثائرة تحت كنف سعد!

□□

وهكذا قرر «سعد زغلول» مساعدة «منيرة ثابت» على إصدار مجلة أسبوعية!!
ولم يكتف رئيس الوزراء بالمساعدة الأدبية، بل أصدر أمراً بصفته وزيراً للداخلية بإعطاء منيرة ثابت ترخيص مجلة أسبوعية سياسية انتقادية!!
وبدأت «منيرة ثابت» فى الإعداد لإصدار هذه المجلة التى اختارت لها اسم «الأمل».
وفجأة اغتيل السردار «السيرلى ستاك» باشا حاكم السودان البريطانى فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، وتوتر الجو السياسى، وتلبدت السماء بغيوم وعواصف سياسية كان على رأسها أن الحكومة البريطانية لا تريد بقاء «سعد زغلول» فى الوزارة بل إنها اعتبرته مسئولاً عن هذا الاغتيال!!
وهكذا استقال «سعد زغلول» وقبل الملك فؤاد استقالته فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤.
وفى نفس اليوم تشكلت وزارة جديدة برئاسة «أحمد زيور باشا» وكان رئيسا لمجلس الشيوخ، وكان على رأس مهام هذه الوزارة استرضاء الإنجليز بكل الأشكال، والهجوم على «سعد زغلول» بكل الأشكال أيضا . وتم حل مجلس النواب ومصادرة وإغلاق الصحف الوطنية عامة والوفدية التى تنطق بلسان «سعد زغلول» خاصة!!
فى هذا المناخ المثير تم إلغاء رخصة المجلة الأسبوعية التى سبق أن حصلت عليها الآنسة «منيرة ثابت»!!
ويضيف «إبراهيم الجزيرى» سكرتير «سعد زغلول»:
«كانت الوزارة الزيورية تضطهد الصحافة الوفدية، وتغلق جرائدها واحدة بعد أخرى ولا تسمح لوفدى بأية رخصة جديدة، وعلى حين فجأة غابت الآنسة «منيرة ثابت» أياماً عن بيت الأمة، ثم عادت تحمل رخصتين لصحيفتين جديدتين باسم «الأمل» و«لسبوار» أولاهما عربية سياسية أسبوعية، والثانية فرنسية سياسية يومية، وقدمتهما للرئيس ـ سعد ـ لتكونا رهن تصرفه!!»
وصدر العدد الأول من مجلة «الأمل» فى ٧ نوفمبر ١٩٢٥!!
وفى العدد الأول كتبت «منيرة ثابت» تقول إن هدف مجلتها «ترقية التعليم وتحرير المرأة من القيود وضرورة سفورها واستقلالها الشخصى، ومنحها الحق السياسى وتعديل قانون الأحوال الشخصية واتباع خطة الوفد فيما يختص بالسياسة.»
وأصبحت «الأمل» من العدد الأول ـ كما يؤكد مصطفى أمين ـ أوسع مجلة أسبوعية انتشاراً فى مصر!!
أصبحت مجلة «سعد زغلول» الأولى!!
وكان العدد الأول حديث كل الناس فى مصر.. الرجال والنساء على حد سواء بسبب جرأة وشجاعة هذه الفتاة الصغيرة التى تهاجم فى مجلتها الإنجليز والمندوب السامى البريطانى والحكومة وزيور باشا رئيس الحكومة نفسه!!

وعندما بدأ الوفد فى شن حملاته ضد «زيور باشا» كان من الطبيعى أن تكون مجلة «الأمل» و«منيرة ثابت» من المشاركين فى هذا الهجوم.

كانت الاتهامات المالية واستغلال النفوذ من أبرز ما يواجهه «زيور باشا» من اتهامات، وكتبت «منيرة ثابت» تقول: «لم يتحرك زيور باشا لشرفه يوم تحدثت الصحف بأن الأموال التى سحبها من المصاريف السرية ليصرفها فى شئونه الخاصة، وفى تسديد ديون ابنه الكريم ولم يحتج يوم سحب ألفين من الجنيهات من المصاريف السرية قبيل استقالته بنصف ساعة وضربها فى جيبه، تُهم فوق تُهم عن السرقة والاختلاس ودولة الباشا ساكن، وفجأة وبلا سابق إنذار احتج. مبروك يادولة الباشا.»

وحسب ما تقول د. آمال كامل بيومى السبكى» فى كتابها (الحركة النسائية فى مصر):

«اكتسبت مجلة الأمل عداء شديداً من مناوئى الوفد ومن مناهضى تحرير المرأة سواء بسواء. ولعل أعظم تهمة يمكن أن تتهم امرأة بها فى تلك الفترة هى تهمة الالحاد والكفر، وذلك عندما قدم الشيخ أبوالفضل الجيزاوى أحد شيوخ الأزهر بلاغاً إلى النيابة يتهم فيه صاحبة «الأمل» بالإلحاد والكفر .. والخروج على الدين بالمبادىء التى تنادى بها منذ ظهرت فى الحياة العامة.

إلا أن «منيرة ثابت» كانت من المهارة والوعى بحيث فضحت هذا الاتهام.. وأبانت الغرض من هذا الاتهام، لا غيرة على الدين كما يبدو ظاهراً وإنما هو بسبب ما نشرته «الأمل» بمناسبة بحث ميزانية الدولة فى بعض المخصصات، ومنها مخصصات فضيلته فهل مناقشاتنا هذه المخصصات كانت منا الحاداً وخروجاً على الدين»

□□

كانت «منيرة ثابت» تؤمن إيماناً لا حدود له بكلمات ومبادىء «سعد زغلول»!

وعلى صفحات «الأمل» تحول هذا الإيمان إلى مقالات ساخنة وحملات نارية.

كان سعد زغلول يؤمن بأن «المرأة المصرية كان لها دخل عظيم فى نهضة مصر، فكثيراً ما حركت الهمم وشحذت العزائم وشاركت الرجال في الأعمال التى قاموا بها بل وكان لها فى بعضها النصيب الأوفر.»

وما أكثر المرات التى سمعت فيها «منيرة ثابت» سعد زغلول وهو يقول:

«لو كان عدد المتعلمات من نساء مصر أكثر لكان الفضل أعظم وكانت الفائدة أكثر، إذ إنه يستحيل على شعب أن يتقدم فى هذه الحياة من غير تقدم المرأة، وتعلمها، فهى التى يقوم عليها أساس التربية الصحيحة وغرس الملكات الفاضلة فى قلوب الأطفال.»

لقد شجعت مجلة «الأمل» ومنيرة ثابت تعليم المرأة للسبب السابق ولاعتقادها أن النهضة المصرية لن تستطيع المساهمة فيها إلا المرأة المتعلمة.

وكان من الطبيعى أن تقف «منيرة ثابت» بكل قوة وحزم وشراسة فى وجه من يقف ضد تعليم المرأة!!

«ولم يكن غريباً أو باعثا على الدهشة أن تتصدى «منيرة ثابت» بكل قوة لمشروع غريب كان يتبناه رئيس الحكومة «زيور باشا» خاص بتعليم الأسر الأرستقراطية!!

كان «زيور» باشا قد اقترح إنشاء مدرسة خصيصاً لبنات الأسر الأرستقراطية يتعلمن فيها فنون المنزل وبعض العلوم والمعارف العامة على أن يتكلف إنشاء هذه المدرسة حوالى اثنى عشر ألف جنيه (بأسعار ١٩٢٦) من أجل ثلاثين فتاة يساهمن بمصروفاتهن التى لا تزيد على ستمائة جنيه، وتتكفل الحكومة بسداد باقى التكلفة!!

ثارت وهاجت «منيرة ثابت» وتلقت مجلة الأمل عشرات الاحتجاجات وخاصة من المثقفات على هذه الفكرة.. وبادرت «منيرة ثابت» بإرسال احتجاج شديد اللهجة إلى وزارة المعارف تعرب فيه عن أسفها الشديد لادعاء الحكومة بعدم توفير المال اللازم للإنفاق منه على إنشاء مدارس لبنات الأسر المتوسطة والفقيرة، وهن كثيرات، فى نفس الوقت الذى يتدفق فيه مال الحكومة للإنفاق على مدرسة من أجل عدة فتيات من بنات الأسر الأرستقراطية القادرات على إنشاء ما يردن من مدارس، أما الفقيرات فمسئولية تعليمهن تقع على كاهل الحكومة».

ولم يكن «سعد زغلول» وحده فرحاً ومعجباً بمنيرة ثابت، بل شاركه وقاسمه هذا الفرح والإعجاب «صفية زغلول» نفسها!!

□□

وفجأة حدثت مصيبة وكارثة هزت «بيت الأمة»!!

لم تصدق «أم المصريين» حرفاً واحداً مما كتبته صحف الحكومة عن «منيرة ثابت» التى كانت تعتبرها بمثابة ابنة لها!!

كان بطل الكارثة كاتب الوفد الأول الصحفى الكبير «عبدالقادر حمزة»!!

لم تصدق «صفية زغلول» و«سعد زغلول» ما نشرته صحف الحكومة، ومؤداه أن «عبد القادر حمزة» صاحب جريدة البلاغ الوفدية يعشق منيرة ثابت صاحبة مجلة الأمل!!

وأن الصحفية الشابة التى تصغره بحوالى عشرين عاماً تبادله هذا الحب!!

واعتقد «سعد زغلول» أنه هو المسئول شخصيا عن هذه الكارثة التى فضحتها صحافة الحكومة لتدمير سمعته وسمعة الوفد!!

كان «سعد زغلول» هو الذى أشار بتكوين شركة مساهمة لجريدة (لسبوار) الفرنسية يقوم بالإشراف عليها بعض أعضاء الوفد، واختار الوفد الأستاذ «عبدالقادر حمزة» صاحب جريدة البلاغ ليكون العضو المنتدب لإدارة الجريدة فى مجلس الإدارة!!

وهنا بالضبط، وابتداء من تلك اللحظة بدأت حكاية «عبدالقادر حمزة» و«منيرة ثابت»!

تفاصيل حكاية الحب الملتهب والغرام المشبوب يرويها «مصطفى أمين» فيقول:

«كانت منيرة تطبع مجلتها الأسبوعية وجريدتها اليومية فى مطبعة «البلاغ» وهى جريدة الوفد الأولى فى تلك الأيام، وكانت «منيرة» تلتقى يومياً فى دار البلاغ «بعبد القادر حمزة باشا» الصحفى الأول فى مصر بشهادة «سعد زغلول» ولسانه الرسمى!!

وأعجب «عبدالقادر حمزة» بشجاعة الكاتبة الثائرة وبحماسها وصمودها، وتطور الإعجاب إلى حب!!

ووجدت منيرة فى «عبد القادر حمزة باشا» فتى أحلامها!! صحيح أنه كان يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، لكنها كانت تراه أكثر شباباً من كل الشباب، وكان رجلا أنيقاً جميل الصورة ممشوق القوام، فى عينيه سحر جذاب، وعندما يتكلم عن الحب يبدو كأنه أبلغ ألف مرة مما يكتب فى السياسة!!

وبدأ الحب بالنظرات التى تتكلم وبالإشارات التى تنطق ثم بالخطابات التى تشبه المقالات ثم بالاعتراف!!

وتسربت قصة هذا الحب العظيم إلى صحف الحكومة فأرادت أن تشهر بالصحفى الوفدى الكبير وبالصحفية الثائرة !! وقرأ سعد زغلول محاولة تلويث الأقلام التى تحارب معه، فاستدعى عبدالقادر حمزة وسأله:

ـ هل صحيح أنك تحب الآنسة «منيرة ثابت»؟!

قال عبد القادر حمزة: نعم!!

وقال سعد له: إما أن تتزوجها.. وإما أن تتركها!! أنا لا أتدخل فى حياة أنصارى الشخصية ولكنك أنت ابنى ومنيرة بنتى ولا أريد أن يستمر هذا الوضع يوماً واحداً .. إن المسألة الآن ليست مسألة شخصية بل هى سمعة صحف الوفد!!

ورضخ «عبدالقادر حمزة» لرغبة الزعيم سعد زغلول وتزوج «منيرة ثابت»!

ولكن منيرة طلبت من زوجها أن يطلق زوجته الأولى لأنها ضد فكرة تعدد الزوجات فكيف تقبل هى «ضرة» وهى زعيمة المطالبات بمنع تعدد الزوجات!!

وأشاعت صحف الحكومة أن عبدالقادر حمزة سيطلق زوجته الأولى استجابة لرغبة زوجته الشابة «منير ثابت»!!

وانزعج «سعد زغلول» وتضايقت «أم المصريين»، ونفى عبدالقادر حمزة هذا النبأ تماماً فاستراح سعد ، وهدأ بال «صفية»!!

وعادت «منيرة» تطلب من زوجها أن يطلق زوجته، لكنه رفض وأفهمها أن ذلك مستحيل، فهى التى شاركته كفاحه وهى أم أولاده وبناته.. ولم تقتنع «منيرة» واحتكمت إلى سعد زغلول» فحكم أن يحتفظ «عبدالقادر حمزة بأم أولاده، وهكذا خضعت «منيرة ثابت» لأمر الزعيم!!

وعاد عبدالقادر حمزة يشترط على زوجته الكاتبة الثائرة أن تطلق الصحافة وتغلق مجلة الأمل و عف جريدة «لسبوار»، وتعيش زوجة فى البيت.. لا تخرج ولا تزور أحداً ولا تشترك فى أى عمل سياسى!!

وثارت «منيرة ثابت» على هذا الطغيان لكنها سرعان ما وافقت فقد كانت غارقة بصدق فى حب عبدالقادر حمزة، بل توقفت عن زيارة بيت الأمة الذى كانت تتردد عليه باستمرار وتزور سعد زغلول .. وصفية زغلول!!

□□

وكان لـ صفية زغلول موقف غريب ومحير وغير مفهو ن السيد ، «روزاليوسف»..

كانت «روز اليوسف» قد أصدرت مجلتها التى تحمل سمها ابتداء من ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥، وقبل صدور المجلة كانت روز اليوسف من المفتونين بـ سعد زغلول زعيما وخطيباً. وكانت تراه ـ حسب ما جاء فى مذكراتها ـ «رجلاً عظيماً قام يحرر هذا البلد، أ بت سعد زغلول حباً شديداً، وأنها لتتذكر أياما سارت فيها على قدميها من ميدان باب الحديد إلى مصر الجديدة لتستمع إلى خطاب يلقيه سعد هناك، ولعل إعجابها بـ سعد وحرصها على سماعه كلما خطب فى مكان كان له سبب آخر متعلق بالفن، فقد كان سعد صاحب أجمل صوت بين أصوات الخطباء.

صوت يهدر كالرعد ويعصف كالريح، ويهدأ كالموج المتكسر الصغير، وكان كل الناس يحبون سعداً بلا رهبة ولا خوف ولا نفاق.

ثم تضيف روز اليوسف بعد ذلك:

«وشيئاً فشيئاً أخذ ميل المجلة إلى سعد زغلول يظهر، وبدأ سعد زغلول يسأل عن المجلة ويهتم بها، ولكننى لم أقابله قط، وبدأ سائر أعضاء الوفد الكبار يقبلون على قراءتها ويترقبون صدورها، ولكنهم كانوا إذا دخلوا بيوتهم أخفوها فى جيوبهم، حتى لا تقع عليها عيون أهليهم.

فقد كان ما يزال غريباً أن تحمل مجلة سياسية مرموقة اسم سيدة .. وفنانة (!!)

«وبمناسبة الحديث عن «سعد زغلول» وعن رجال الوفد أذكر أن السيدة «أم المصريين» كان لها منى موقف آخر، فحين كانت المجلة تصدر فنية، أرسلت خطاباً إلى كل من «أم المصريين» و«هدى شعراوى» أطلب تأييدهما لى، ولم ترد أم المصريين علىّ وحزّ هذا الإهمال فى نفسى، فلما أصبحت المجلة سياسية، كانت أم المصريين تنتهز فرصة بعض قضاياى السياسية فترسل إلىّ مشجعة أو مهنئة!!

ولكننى التزمت الصمت من ناحيتى أيضاً، فلم أذهب إليها ولم أقابلها قط.»

القصة رغم كل ما تحمله من دلالات إلا إنها لا تكتمل إلا بسماع تفسير آخر يأتى على لسان «مصطفى أمين»، وهذا التفسير لا يخلو هو الآخر من المنطق.

يقول «مصطفى أمين» فى مذكراته (من عشرة لعشرين):

كانت السيدة روز اليوسف ترسل مجلتها كل أسبوع إلى صفية زغلول فى مظروف كبير مقفول، وكانت كل المجلات والصحف توضع على مكتب «سعد» فيقرأ منها ما يريد.

وكان «سعد» يترك مظروف روز اليوسف مغلقاً، ولم يفضه مرة واحدة. أما الولدان (مصطفى وعلى أمين) فقد كانا يفتحان المظروف ويقرآن روز اليوسف بشغف.

واستمرت السيدة روز اليوسف ترسل مجلتها أسبوعياً إلى «صفية زغلول» أم المصريين واستمر الولدان يأخذان المجلة من بريد سعد ويقرآنها. وفى نهاية العام أرسلت «روز اليوسف» إلى صفية زغلول تطلب اشتراكاً فى مجلة روز اليوسف، ولم ترد «صفية زغلول» على هذا الطلب، لأن كل الصحف والمجلات ترسل نسخها مجاناً إلى «سعد زغلول»، ولأن صفية زغلول لم تسمع عن مجلة روز اليوسف ولم يصل عدد واحد منها إلى يدها، فقد كانت دائما تصل إلى الولدين ولا تصل إلى أم المصريين.

وكان هذا الحادث سبباً فى كراهية السيدة روز اليوسف لأم المصريين، فلم تقابلها أبداً ، حتى بعد أن أصبحت مجلة الوفد الأولى.

وكانت تتهمها دائما بأنها قرأت مجلتها مجانا ولم تدفع الاشتراك، ولم تعرف الحقيقة بأنها ظلمت «صفية زغلول» إلا فى سنواتها الأخيرة.»!!

وإلى الفصل القادم..



سعد زغلول وأم المصريين، ومصطفى النحاس فى باريس

١٤

«صفيـة» لـ«سعـد»:
قلبى لا يطمئن لهذا الرجل!

- «الملك فؤاد»: صحة سعد أغلى شىء فى الدولة!
- «الملكة نازلى» لـ«صفية»: زوجى يريد قتل زوجك!
- «صفية» تغضب من «سعد» بعد تراجعه عن الاستقالة!

«سعد» يأمر صحافة «الوفد» بعدم نشر الفضائح!

١٤

كانت محاولة الاعتداء على حياة «سعد زغلول» وفشلها، بمثابة استفتاء جديد على زعامته وقيادته للأمة والمطالبة بتحقيق أمانيها القومية!

خرج «سعد زغلول» من المستشفى ومعه زوجته أم المصريين ومعهما عشرات ومئات وآلاف البشر إلى بيت الأمة!!

وفوجىء «سعد» و«صفية» بإقامة سرادق كبير بجوار بيت الأمة لاستقبال آلاف المهنئين بنجاة الزعيم!

كان من بين هذه الوفود رجال القضاء والنيابة والشيوخ والنواب ورئيسا المجلسين. ورغم ضعف صحة «سعد» فقد أصر على أن يلقى كلمات قصيرة موجزة، شكر فيها الجميع وعلى رأسهم الملك فؤاد . وصرح بأنه سيسافر إلى أوروبا للاستشفاء!!

وعندما بلغ مسامع الملك فؤاد مقدار الجهد الذى يبذله «سعد زغلول» فى لقاء الجماهير والحديث معهم وإلقاء الخطب فيهم قال لأعضاء وفد كان يستقبلهم:

ـ «سأوفد كبير أمنائى لكى يرجو منه ألا يطيل الكلام، لأن الكلام يتعبه، وصحته أغلى شىء فى الدولة.»

وفى مساء الخميس ٢٤ يوليو ١٩٢٤ أقيم حفل ساهر فى فندق «سان استفانو» بمدينة الإسكندرية تكريما لـ سعد وابتهاجا بشفائه واحتفالاً بوداعه قبل سفره إلى أوروبا .

وفى هذا الحفل ألقى «سعد زغلول» كلمة استهلها ببيت شعر يقول (جزى الله الشدائد كل خير.. عرفت بها عدوى من صديقى)

ووصل «سعد زغلول» و« أم المصريين» إلى باريس ثم إلى لندن!!

وعندما وصل «سعد زغلول» إلى باريس فى ٢٣ سبتمبر نشرت جريدة البلاغ الوفدية:

«صرح صاحب الدولة سعد باشا زغلول لوكالة هافاس بأن إقامته فى باريس كانت من ألذ الأوقات وأنه استفاد منها كثيراً وهو يشعر فى نفسه بأحسن أثر «ثم قال إنه

ممتن كثيراً لمظاهر العطف التى أحيط بها» وأعرب عن أمله «فى أن تتم إنجلترا نحوه ما بدأته فرنسا، وأنه يرغب رغبة صادقة فى الوصول إلى نتيجة.»

ووصل «سعد زغلول» وقرينته إلى لندن، ووصفت شركة رويتر ما جرى بقولها:

لندن فى ٢٣ سبتمبر - «حدثت مظاهرة بديعة فى محطة فكتوريا بعد ظهر اليوم بمناسبة وصول زغلول باشا للمحادثة مع السير مكدونالد تمهيداً لمفاوضات تتناول المسألة المصرية.

فقد كانت كل الطرق المؤدية إلى المحطة مزدحمة بجمهور المشاهدين، وكانت أفاريز المحطة تموج بجماعات المصريين والهنود الهاتفين لدولته. وقدمت باقة من الداليا البيضاء والزنبق لقرينة زغلول باشا.

وسيلتقى بالمستر مكدونالد فى الساعة العاشرة والنصف من صبيحة يوم الخميس ٢٥ سبتمبر فى دواننج ستريت.»

وبدأت الاجتماعات بين «سعد زغلول» و«مكدونالد» وتشبث كل طرف بموقفه بل وأصر عليه، مما دعا سعد زغلول إلى القول في ٣ أكتوبر لمراسل رويتر:

- «إذا كنت لم أكسب شيئاً فإنى على الأقل لم أخسر شيئاً.»

وبشهادة المؤرخ «عبد الرحمن الرافعى» فقد «كان موقف سعد قوياً فى هذه المحادثات. وفى ذلك قال كلمته المأثورة: «لقد دعونا إلى هنا لكى ننتحر ولكننا رفضنا الانتحار وهذا كل ماجرى.»

ووصل «سعد زغلول» وقرينته وباقى أعضاء الوفد الذين شاركوا فى المباحثات إلى مصر فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٤.

□□

واجه «سعد زغلول» عند عودته أكثر من مؤامرة هدفها إسقاطه!!

فجأة ثار عليه طلبة وأبناء الأزهر وقرروا الإضراب، واستقبل «سعد» وفداً منهم فى بيت الأمة وخاطبهم بأسى قائلاً: «ما كنت أنتظر - وأنا من الأزهر والأزهر منى - أن يحدث إضراب فى عهدى».

وكان «سعد زغلول» فى تلك الأيام غاضباً وحزيناً، وذات صباح فاتح أم المصريين بنيته فى الاستقالة، فوافقته على رأيه!!

وكانت الشائعات تملأ مصر عن وجود أزمة وزارية، وسوء تفاهم بين الملك فؤاد وسعد زغلول وأن سقوط الوزارة وشيك!!

وفى الساعة العاشرة من صباح ١٢ نوفمبر ١٩٢٤ بدأت الدورة البرلمانية الثانية وألقى سعد زغلول خطاب العرش!!

وبعد ثلاثة أيام بالضبط ذهب «سعد» لمقابلة الملك فؤاد وقدم إليه استقالة الوزارة، وأعرب الملك لـ سعد عن رغبته فى العدول عن تقديم الاستقالة، وكان رد سعد» إن عزمه نهائى..

وفى جلسة مجلس النواب قال سعد: «إن صحتى لم تعد تحتمل أعباء وظيفتى ومتاعبها ولهذا تشرفت اليوم بمقابلة جلالة الملك وقدمت له استعفائى من رياسة مجلس الوزارة وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى فى عيشتى الجديدة معكم إلى ما فيه خير البلاد..»

وتعالت الأصوات رافضة استقالة سعد.

وفي جلسة مجلس الشيوخ - فى نفس اليوم كرر «سعد زغلول» قراءة أسباب استقالته وتعالت الأصوات برفض الاستقالة.

وذهب مئات الأعضاء إلى بيت الأمة لتعديل قرار سعد زغلول وطلبوا منه أن يتكلم ليشرح لهم سبب الأزمة فقال:

إن صحتى ضعيفة فعلاً، والصحة شيء ثمين لا يسع أى إنسان إلا أن يحتفظ به ما استطاع. نعم إن صحتى ضعيفة وأعباء الحكم ثقيلة جداً فهناك مشاكل خارجية ومشاكل داخلية وهنالك أيضا - والكلام فى سركم - دسائس!!

وعندما تصايح البعض فى ثورة: ليس فى الأمر سر!! نريد التصريح.. يجب أن نعرف كل شيء؟!

قال سعد زغلول: «أنا رجل حر ألعب على المكشوف، وأعمل ما أعمله فى ضوء النهار ولا أحب العمل فى الظلام ومن أجل هذا لابد لى من الاستقالة!!»

وكان مجلس الشيوخ - بعد مغادرة سعد وذهابه إلى بيت الأمة - قد قرر التوجه إلى السراى لتسجيل الأسماء والتشرف بمقابلة الملك لالتماس رفض استقالة الوزارة.

وتقابل الملك فؤاد مع أعضاء مجلس الشيوخ برئاسة أحمد زيور باشا. رئيس المجلس، وأبلغوا الملك بثقتهم التامة فى سعد زغلول، فقال لهم الملك: إن سعد باشا قابله وسلمه الاستقالة فاستاء من ذلك وأعرب عن ثقته به ورجائه فى أن يعدل عن عزمه هذا».

وبعد مقابلة الملك توجه الوفد إلى بيت الأمة لمقابلة سعد زغلول الذى بادرهم بقوله:

- «إنى مستعد اليوم وغداً لكل التضحيات التى تستلزمها خدمة الأمة ولكن إذا كانت هناك عقبات داخلية تمنع هذه الخدمة فلا يمكننى أن أبقى فى الوزارة».

وظهر يوم الأحد ١٦ نوفمبر ١٩٢٤ توجه سعد زغلول لمقابلة الملك ودام اجتماعه به حوالى ساعتين، ثم قال سعد بعد ذلك: «إجابة لرغبتكم – أى رغبة الأمة ومجلس الشيوخ والنواب ونزولا على إرادة جلالة الملك – قد عدلت عن الاستعفاء، وكونوا متأكدين أن جلالة الملك حامى الدستور، وأننى أنا خادمه الأمين».

وفى جلسة مجلس الشيوخ الثانية فى ١٧ نوفمبر أعاد سعد زغلول على مسامع النواب نفس الكلام السابق وأضاف إليه:

«إنى أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمدنا بروح من عنده لأن نقوم بخدمة البلاد حتى نصل بها إلى غاية الاستقلال.»

لكن بعد ٤٨ ساعة بالضبط وقع أخطر حادث اغتيال سياسى!!

□□

فى حوالى الساعة الثانية بعد ظهر ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ هاجمت جماعة ـ مسلحة بالمسدسات والقنابل ـ السيارة التى كان يستقلها السير «لى ستاك» سردار الجيش المصرى وحاكم السودان. وفى نداء للأمة المصرية وصف سعد زغلول هذا الاعتداء بأنه من أشد الفظائع وأشنعها ومن أسوئها أثراً فى سمعة البلاد وشهرتها.

وأضاف سعد زغلول قائلاً: «أكرر أسفى وأسف الحكومة على وقوع هذا الحادث الأليم وأتمنى للمصابين فيه عاجل الشفاء، كماأكرر الرجاء للأمة أن تعاون الحكومة على إظهار الفاعلين، وليعلم كل فرد أن هذه المعونة تعد عملا وطنياً وخدمة جليلة للبلاد تستحق كل شكر وثناء.»

ومات السير «لى ستاك» متأثراً بجراحه وقامت قيامة بريطانيا فى الحال!!

وبعد تشييع الجنازة قدم اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى إنذارين إلى «سعد زغلول» يطالبان باعتذار الحكومة المصرية عن الجناية وأن تبحث عن الجناة وأن تمنع وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية وأن تدفع للحكومة البريطانية غرامة قدرها نصف مليون جنيه إسترلينى، وسحب الجيش المصرى من السودان .. إلخ»

وأدرك «سعد زغلول» ومصر كلها أن استقالته آتية لا ريب فيها.. وهكذا قدم استقالته إلى الملك قائلا «إنى لم أقبل مسئولية الوزارة إلا لخدمة البلاد تنفيذاً لمقاصدكم السامية ـ ولكن الظروف الحالية تجعلنى عاجزاً عن القيام بهذه المهمة الخطيرة، ولهذا أرجو من مكارم جلالتكم أن تتفضلوا بقبول استعفائى مع زملائى من الوزارة.»

وفى ٢٤ نوفمبر قبل الملك فؤاد استقالة «سعد زغلول»!

كانت مصر كلها حزينة لاستقالة سعد إلا صفية زغلول، فقد كانت الوحيدة التى سعدت بأن زوجها ترك الوزارة، فقد اعتبرت أن توليه الحكم كان لعنة حلت به!!

وكانت تقول: «إنه مكث فى الوزارة عشرة شهور فقط فهرم وشاخ وازدادت فى وجهه التجاعيد، وبدأ عمره كأنه كبر عشر سنوات فى عشرة شهور.. خطواته تثاقلت فى حركاتها.. قامته المرتفعة الشامخة انحنت قليلاً .. صوته أصبح متقطعاً متهدجاً وكأنه يتنفس بصعوبة..»

وفى نفس اليوم الذى قبلت فيه استقالة وزارة سعد زغلول، تم تأليف الوزارة وإسنادها إلى «أحمد زيور باشا» حيث قامت الوزارة بقبول كل مطالب بريطانيا والتى سبق أن رفضها سعد زغلول!!

وكان هدف الوزارة «استرضاء الإنجليز واستبقاء عطفهم عليها. بل إن زيور باشا صرح للمندوب السامى البريطانى بأن الفكرة التى تسيطر عليه هى ضرورة العمل على توجيه ضربة ساحقة إلى الزغلولية.

وأصدر رئيس الوزراء قراراً بتأجيل البرلمان شهراً ابتداء من يوم ٢٥ نوفمبر، وقبل أن ينتهى هذا الشهر بيوم واحد صدر قرار بحل مجلس النواب، وتحديد يوم ٢٥ مارس ١٩٢٥ لانعقاد المجلس الجديد!!

وكانت الأمة كلها تفور بالغليان والغضب من هذا العبث بالحياة الدستورية!!

وفجأة ظهر حزب جديد هو «حزب الاتحاد» فى يناير ١٩٢٥ وكان أول ما فعله هذا الحزب أن أتهم الوفد ـ حزب سعد زغلول ـ بعدم الولاء للعرش!!

وأطلق «سعد زغلول» على هذا الحزب اسم «حزب القش» ثم «حزب الشيطان»!!

ويصف «مصطفى أمين» حالة «سعد زغلول» فى تلك الأيام فيقول:

«كانت الشرطة تحاصر بيت الأمة تمنع الدخول، وكان المقصود من هذا أن توهم الدولة «سعد زغلول» أن الأمة انصرفت عنه وانضمت إلى معسكر الملك، وكانت السلطة تمنع البرقيات من الوصول إليه، وكان وزير المواصلات قد أمر مصلحة البريد بوقف كل الرسائل المعنونة باسم «سعد زغلول»، وكان أنصاره يهربون له رسائلهم مع الأسطى أحمد بدران طاهيه الخاص تحت سلة اللحم والخضار.

وكانت بعض السيدات من أعضاء لجنة السيدات السعديات يدخلن بيت «سعد» وبطونهن منفوخة وكأن كل امرأة فى مصر أصبحت حبلى فى وقت واحد، وما تكاد السيدة تدخل البيت حتى تخلع الحبرة السوداء ويظهر كيس ضخم حوى عرائض المؤيدين الذين رفضوا أن يخضعوا للبطش والتهديد والوعيد!!

وكان «سعد» يفرح بكل رسالة . وكان يقول: «إن هذا التأييد يدل على أنه كان على حق في إيمانه بهذا الشعب، ولولا هذا الإيمان لما خاض المعارك، ولما واجه المخاطر، ولما تحدى قوى البطش والعدوان.»

وفي هذا الجو العدائي للوفد جرت الانتخابات وسخرت الحكومة كل رجالها لإسقاط رجال سعد زغلول، ورغم كل ذلك فاز الوفد بـ ١١٦ مقعداً ونالت الأحزاب غير الوفدية والمستقلون ٨٧ مقعداً!!

وصباح ٢٣ مارس ١٩٢٥ افتتح البرلمان بمجلسيه برئاسة «محمد توفيق نسيم باشا» رئيس مجلس الشيوخ، وبعد أن تلا «زيور باشا» رئيس الحكومة خطاب العرش في حضور الملك، انفض المؤتمر.

وجاءت الخطوة التالية التي لم يمكن يتوقعها أحد، فقد كان لابد من انتخاب رئيس جديد لمجلس النواب!

وجرى الانتخاب بطريقة التصويت السري، ونال «سعد زغلول» ١٢٣ صوتاً بينما نال عبدالخالق ثروت باشا ٨٥ صوتاً!!

وهكذا اتضح أن حكومة «زيور باشا» لا تحوز ثقة المجلس الجديد، وتقرر تأجيل اجتماع المجلس إلى الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم!!

وفي المساء كتب زيور باشا خطاب استقالته إلى الملك الذي رفض قبول الاستقالة وجدد ثقته فيه، وهنا رفع زيور باشا كتاباً آخر للملك يقترح فيه حل هذا المجلس ووافق الملك على الاقتراح الغريب.

تسع ساعات فقط كانت مدة هذا المجلس، وقوبل قرار الحل بالدهشة والغضب من كل المصريين!!

□□

كان فوز «سعد زغلول» مفاجأة مذهلة لم تخطر ببال أحد!!

وكان لابد من القضاء على «سعد زغلول» وحزبه، وما لم يعرفه أحد في ذلك الوقت أن الملك فؤاد استقبل المندوب السامي البريطاني بالنيابة «سير نيفيل هندرسون» وصرح الملك له بقوله:

«يجب قتل سعد زغلول أدبياً، إنني أود أن أرى حزبه وقد انكمش إلى حوالي ١٢ أو ١٤ عضواً لكي يتحول إلى مثار للهزء والسخرية».

□□

وبطبيعة الحال لم يتسرب حرف واحد مما دار بين الملك «فؤاد» والمندوب السامي البريطاني إلى أي إنسان وفي المقدمة بالطبع «سعد زغلول»!!

بالصدفة المحضة سمعت الملكة «نازلى» هذا الحوار، وقررت أن تنقل ما سمعته إلى السيدة «صفية زغلول»..

وتفاصيل الحكاية يرويها «مصطفى أمين» فيقول:

«فى أوائل شهر يوليو جاءت إلى بيت الأمة شابة متحجبة ترتدى ملابس سوداء، وطلبت مقابلة «صفية زغلول» أم المصريين على الفور، ودهش عم آدم بواب بيت الأمة، فقد كانت الساعة بعد الحادية عشرة مساء، وقال عم آدم إن «الست» نائمة فطلبت السيدة المجهولة إيقاظها لأنها تريدها لأمر هام جداً بالباشا(!!)

ودق عم آدم جرس الباب طويلاً حتى جاءت خادمة وفتحت الباب وقالت السيدة إن اسمها «فتحية أبوأصبع» وإنها تريد مقابلة أم المصريين فى الحال.

وكانت «صفية زغلول» تعرف السيدة.. فهى ابنة صديقة لها وهى وصيفة الملكة «نازلى»، ووضعت روب دى شامبر فوق قميص النوم وهبطت إلى الطابق الأول واستقبلت «فتحية أبو أصبع» وقالت فتحية إن الملكة نازلى أوفدتها لتبلغ «سعد زغلول» رسالة سرية وهى أن الملك قابل المندوب السامى البريطانى يوم ٢٣ يونيو واتفقا على ضرورة قتل «سعد زغلول» أدبياً وتلفيق التهم ضده واتهامه بأنه المحرض على قتل السردار، وإسقاطه فى الانتخابات القادمة، وأن الملكة «نازلى» طالما نصحت الملك بأن هذه السياسة ليست فى مصلحته فهددها الملك فؤاد بالطلاق إذا فتحت فمها مرة أخرى، وكررت مثل هذا الكلام، وذكرت بأن «حسن نشأت» رئيس الديوان الملكى بالنيابة هو الذى يفسد الملك وهو الذى يحرضه على ضرورة قتل سعد.

وقالت «صفية» إنها تفضل أن تبلغ السيدة «فتحية أبوأصبع» رسالة الملكة إلى «سعد» شخصياً، وإنه لم ينم بعد، وإنما هو جالس فى مكتبه بالطابق العلوى بالبيجاما، وإنها ستصعد لتستأذنه!!

وصعدت أم المصريين ثم دعت «فتحية أبو أصبع» لمقابلة «سعد» وأبلغته رسالة الملكة بنفس التفاصيل تقريباً، وكانت الوصيفة مضطربة وهى تبلغ الرسالة لسعد ولاطفها وقال لها:

لا تخافى.. إن الملك فؤاد لم يضع جاسوساً تحت الكرسى!!

فقالت له: إن الجدران لها آذان!!

فضحك سعد وقال: الجدران عندكم وليست عندنا!!

ثم طلب منها أن تشكر جلالة الملكة على رسالتها وعلى أنها فعلت ما فيه مصلحة البلد ومصلحة العرش.

ولم يصدق «سعد» يومها رسالة الملكة ولم يتصور أن الملك فؤاد يمكن أن يتفق مع المندوب السامى البريطانى بالنيابة على قتله أدبياً، وعلى تلفيق التهم له وعلى تزوير الانتخابات!!

وفى ذلك الوقت تصور «سعد زغلول» أن الملكة نازلى تشاجرت مع الملك فؤاد لمسألة شخصية فأرادت أن تنتقم من زوجها بالاتصال بعدوه!!.

وقال سعد لـ صفية إنه لا يتصور أن الملك يهدد نازلى بالطلاق لأنها نصحته نصيحة فى مصلحته، وكان رأيه أنها تتهم رئيس الديوان الملكى بالنيابة بتدبير المقابلات الغرامية للملك!!

واهتز «بيت الأمة» لواقعة غريبة بمقياس ذلك الوقت!!

كانت بطلة هذه الواقعة الفتاة الحسناء «منيرة» ابنة شقيقه «صفية زغلول» التى تقدم لخطبتها واحد من أغنى شباب مصر فى ذلك الوقت وهو «على كامل فهمى» وبلغ من سراء هذا الشاب أنه فى يوم الخطوبة أنه أحضر معه عشرين خادماً، كل خادم يرتدى بدلة ردنجوت، ويحمل صندوقاً من الفضة مليئاً بالمجوهرات، وقدم كل ذلك لمنيرة.

وتمت الخطوبة وسط مظاهر الفرح والحفاوة!!

وفجأة جاء من يخبر «سعد زغلول» بأنه شاهد الخطيب على كامل فهمى فى سيارة واحدة مع إحدى ممثلات كشكش بك وهو الاسم الذى اشتهر به وقتها الفنان «نجيب الريحانى»!!

وثارت الأسرة كلها لهذه الفضيحة والكارثة، كيف يجرؤ الخطيب على الظهور مع امرأة فى الطريق العام بعد أن خطب ابنتهم!! والمصيبة أنها ليست مجرد امرأة، بل إنها إحدى ممثلات فرقة كشكش بك!!

وفى الحال تقرر فسخ الخطوبة!!

وجن جنون الشاب «على كامل فهمى»، وأسرع يطلب مقابلة «سعد زغلول»، لكن سعد رفض مقابلته فى حدة بسبب ما فعله!!

وجاء عشرات الوسطاء إلى «سعد زغلول» و«صفية زغلول» يتوسطون لعودة المياه إلى مجاريها، وباءت المحاولات بالفشل!!

واقترح الشاب أن يتبرع بمبلغ ضخم جداً للوفد، ورفض «سعد زغلول» ذلك كله بإصرار وعناد!!

كانت التقاليد هى التقاليد!!

□□

ذات يوم فوجىء «سعد زغلول» برسالة تصله من «توفيق نسيم باشا» رئيس ديوان الملك فؤاد، كانت سطور رسالة تتضمن فضيحة أخلاقية تقول إن أحد الوزراء فى وزارة «أحمد زيور باشا» كان له زوجة سرية حملت منه وأنجبت لكن الوزير رفض أن يعترف بالمولود.. وذهبت الزوجة إلى المندوب السامى البريطانى وروت له القصة كما أنها قررت الذهاب إلى «سعد زغلول» الخصم اللدود لزوجها لكى تعطى فرصة العمر ليذبح خصومه السياسيين!!

وبعد أن قرأ «سعد زغلول» تفاصيل الواقعة قرر أن تمتنع كل صحف ومجلات الوفد عن الإشارة أو الخوض فى هذا الموضوع!!

وكان تعليق «سعد زغلول» أن هذا الوزير يهاجمنى بالباطل، وأنا أرفض أن أهاجمه بالحق، لأننى أرى أن نبعد المسائل الشخصية عن الخلاف السياسى!!

وكان أكثر ما يضايق «سعد» ويحزنه هو أن يتناهى إلى مسامعه أو يقرأ عن أى اعتداء يقع على أموال الدولة!! وذات يوم قالت له صفية زوجته:

- إنك حزين ياسعد كان هذه فلوس؟!!

وقال سعد بحسم:

- نعم فلوسى!! كل قرش يسرقونه من خزانة الدولة أشعر أنهم سرقوه من جيبى!!

وقالت له «صفية» :

ولكنك لم تعد رئيس الحكومة.. إنها مسئولية الحكومة، أن تبحث عن اللصوص الذين يسرقونها!!

ورد «سعد» بحسم وحزم قائلا:

- وماذا أعمل إذا كانت الحكومة هى التى تسرق؟!

واستمرت الحكومة برئاسة «أحمد زيور باشا» فى تحدى مشاعر الرأى العام، وزاد استسلامها للإنجليز، بل قامت فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢٥ بتعديل قانون الانتخابات!!

وكان من نتيجة ذلك أن اتفقت كل أحزاب المعارضة للتآلف مع حزب الوفد وتشكيل لجنة هدفها التصدى لدعوة الحكومة بإجراء انتخابات جديدة!! ونجحت المعارضة بالفعل فى إجبار الحكومة على إيقاف العمل بقانون الانتخابات الجديدة والعودة للقانون القديم!!

وكانت المفاجأة فى فوز «الوفد» وسعد زغلول بـ ١٦٥ مقعداً، وحزب الأحرار الدستوريين بـ ٢٩ مقعداً والحزب الوطنى بخمسة مقاعد وفاز حزب الاتحاد بخمسة مقاعد!!».

وكانت بريطانيا تتوقع هذا الفوز الكاسح لسعد زغلول. وقبل إجراء الانتخابات أرسل المندوب السامي البريطاني «اللورد لويد» برقية بتاريخ ١٩ مايو ١٩٢٦ إلى وزارة خارجيته يقول فيها:

«ستسفر الانتخابات عن فوز سعد بالأغلبية الكبيرة أو الاكتساح، وسيقبل «سعد» رئاسة مجلس النواب ولكن ستبقى القوة الحقيقية في يده، وربما يقرر «سعد» في اللحظة الأخيرة تولى رئاسة الوزارة ولذلك من الواجب أن نقرر فوراً موقعنا في هذه الظروف.»

وتكتب الصحف الإنجليزية مؤكدة: «إن عداء سعد زغلول باشا وأنصاره للحماية البريطانية ولحكم الإنجليز أمر مشهور ومعروف، ومن الضروري التسليم بأنه في الإمكان أن يعود فيتولى الوزارة.»

وفي مذكراته بتاريخ ٢٧ مايو يقول سعد زغلول

«كنت عازماً العزم كله على اجتناب الوزارة وصارحت بذلك كثيرين من الذين حادثوني في هذا الشأن ورجوت عدلي باشا أخيراً في أن يقبلها فقبلها بعد تردد.»

كان الملك فؤاد والمندوب السامي البريطاني ضد «سعد زغلول» على طول الخط!! ولم يكن مقبولا عودته رئيسا للوزراء رغم أحقيته في ذلك!!

□□

ابتهجت الأمة بفوز «الوفد» وسعد زغلول، وزاد ابتهاجها بعد صدور الحكم في قضية الاغتيالات السياسية في ٢٥ مايو ١٩٢٦، وخروج «الوفد» بريئاً من الاشتراك في هذه الحوادث.

ويصف «مصطفى أمين» ماجرى في بيت الأمة في ذلك الوقت فكتب يقول:

«الكلمات خافتة والأصوات هامسة، والعيون تترقب والآذان تتسمع، و«صفيه» تندفع إلى التليفون كلما سمعت رنينه، ورسل «صفية» يذهبون إلى محكمة الجنايات، ويقفون أمام غرفة المداولة المغلقة الأبواب، ويعود كل واحد منهم بخبر مختلف، بعضه يتفاءل، وبعضه يتشاءم. وأخيراً تحدد موعد الحكم في الساعة العاشرة والنصف صباحاً.

ولم ينم «سعد» طوال الليل، بقي في فراشه ينتظر الصباح، يخرج ساعته كل خمس دقائق وينظر فيها، وفي الساعة التاسعة صباحاً دق جرس التليفون، وجرت له صفية زغلول وسمعها «سعد» في غرفته تصرخ وتقول بصوت عال ممتزج بالفرح والدموع كأنها تبكي وتزغرد في وقت واحد وصاحت:

- براءة .. براءة.. براءة!!

وصاح «سعد» من غرفته:

ـ من الذى كلمك؟!

قالت صفية:

ـ النحاس باشا أخبرنى بأنه صدر الحكم بالبراءة!

وقام «سعد» من كرسيه واتجه نحوها وهو يقول:

ـ هل سمعت صوت النحاس؟! هل أنت متأكدة من صوت النحاس؟!

قالت «صفية»:

ـ أنا سمعت كلمة براءة!! ولم أعرف ماذا حدث لى؟! ولم أفكر أن أتأكد أن هذا صوت النحاس باشا؟!

قال سعد:

ـ أخشى أن تكونى تتوهمين وأنك تتخيلين أنك سمعت صوتاً يقول براءة من شدة انفعالك وترقبك وانتظارك؟!

قالت صفية وهى تبكى:

ـ لا أعرف. لا أعرف. عندما عرفت أن أولادى نجوا من حبل المشنقة لم أتأكد ولم أفكر!!

قال لها سعد:

ـ أخشى أن يكون ماجناً يسخر منا!!

وأخذ سعد زغلول يهدىء روع «صفية» ويسكنها ويقول لها:

ـ لا تفرحى هذا الفرح حتى نتحقق.»

وابتهجت مصر كلها بالبراءة!

وفجأة قدم القاضى الإنجليزى «كرشو» استقالته احتجاجاً على حكم البراءة وقام بإبلاغ وزير الحقانية (العدل) المصرى «على ماهر» بأن «حكم البراءة يناقض وزن الأدلة إلى حد الإخلال بتنفيذ العدالة.»

وذهب القاضى «كرشو» إلى دار المندوب السامى البريطانى «اللورد لويد» وسلمه استقالته وقام اللورد لويد بدوره بالكتابة إلى «أحمد زيور باشا» رئيس الوزراء يؤكد له أن حكومته ترفض اعتبار الحكم دليلا على البراءة كائنة ما كانت الأسباب التى بناها القاضيان المصريان.»

وتكهرب الجو السياسى فى مصر كلها وخاصة فى بيت الأمة!!

□□

فى ذلك الوقت زار «عدلى يكن باشا» بيت الأمة لأول مرة بعد قطيعة وخصام مع «سعد زغلول» طال وامتد لخمس سنوات كاملة!!

وحضرت «صفية زغلول» الجزء الأول من اللقاء، ولم يجر حديث فى السياسة أثناء وجودها، فقد كان حديث مجاملات وتحيات، وبعد أن خرج «عدلى يكن» من عند «سعد» دخلت أم المصريين إلى غرفته وقالت: اسمع ياسعد.. أنا لا أشعر بالاطمئنان لهذا الرجل!..

وسألها سعد فى دهشة: ماذا قال؟!

قالت : لم يقل شيئاً ولكن قلبى غير مطمئن له!!»

وإلى الفصل القادم..



سعد زغلول فى احتفال شعبى

١٥

أنا انتهيت يا صفية !

- « سعد » يعترف : ارتحت لمعارضتى زوجتى !
- زيارة هامة لسعد لمجاملة « الأمير سعود » !
- أغرب هدية يشتريها « سعد » فى عيد ميلاد « صفية » !
- « صفية » تحذر : لو خرج سعد قد يموت فى الطريق !

١٥

استبد الغضب بالجميع!!

الكل كان غاضباً وساخطاً ومتذمراً وحانقاً: الملك فؤاد، وسعد زغلول والمندوب السامى البريطانى .. و.. وأم المصريين صفية زغلول!!

كانت بريطانيا لا تريد «سعد زغلول» رئيساً للوزارة!!

وكان الملك فؤاد لا يريد «سعد زغلول» رئيساً للوزارة!!

وكانت «صفية زغلول» لا تريد سعد زغلول رئيساً للوزارة!!

لم يكن موقف «صفية زغلول» جديداً أو مفاجئاً بل كان هذا موقفها الثابت والدائم منذ سنوات طويلة!!

وحرص «سعد زغلول» على تسجيل مبررات ورفض «صفية» لتوليه منصب رئيس الوزراء فى أكثر من موضع من مذكراته فيكتب قائلاً:

«لأنها تتوهم أن قبولى لهذا المسند (المنصب) ينفر الناس منى، ويفضهم من حولى، ولقد كنت مرتاحاً جداً لاعتراضاتها لأنها تخفف ألم الخيبة إذا وقعت، وتصغر فى نفسى ذلك المسند الذى أبغيه، ولو أنى أرى من غيرها مثل هذه الاعتراضات التى أبدتها بغاية الإخلاص، لما وجدت لذلك الميل أثراً فى نفسى.»

أما سعد نفسه فيقول عن رئاسة الوزارة: «أراها عملا ثقيلاً جداً يتعبنى ويتعب صحتى ولا أرانى فيها أرفع مقاماً من مقامى خارجاً عنها.»

وفى موضع آخر يؤكد «سعد» قائلاً:

تكلم عدلى فيما يكون منى إذا خوطبت فى تشكيل الوزارة، فقلت: «إنى أعتذر باعتلال صحتى وأحيل الأمر إليكم..»

وعندما ذهب «عدلى يكن» لمقابلة المندوب السامى البريطانى لورد لويد قال له:

ـ طلب منى سعد تشكيل الوزارة؟!

ووافق «لويد» بشرط ألا تضم الوزارة أى شخص وثيق الصلة بقضية الاغتيالات السياسية!!

.. وفجأة تغير كل شىء .. وأصر «سعد زغلول» على تشكيل الوزارة بنفسه، وفى لقائه مع لورد لويد مساء ٣٠ مايو قال «سعد» بحسم له:

«شعرت أن رفض الوزارة يعتبر أمراً مخالفاً للدستور أو اشتراكاً فى مخالفته وتعريضاً لأصدقائى لما يكرهون!!

وطلب منه اللورد «لويد» التخلى عن الوزارة خدمة لشخصك وللسلام!! وأيضاً «حذرته من أنه إذا لم يفعل ذلك فإن الموقف سيصبح موقفاً خطيراً للغاية.

وكان رد سعد القاطع أنه اتخذ قراراً بلا رجعة!!

وجربت بريطانيا وسيلة أخرى لإرغام «سعد زغلول» على تغيير رأيه، وهكذا وصلت إلى ميناء بورسعيد البارجة الحربية وعلى ظهرها حوالى ألف جندى، وملأت شوارع القاهرة جنود الإنجليز وكأنهم فى ساحة قتال!!

ويقول مصطفى أمين إن «سعد زغلول» عقد اجتماعاً سرياً لزعماء الوفد وزعماء الجهاز السرى لثورة ١٩ وسألهم هل الشعب مستعد أن يدخل الآن معركة جديدة مع بريطانيا؟! وكان من رأى أغلبيتهم أن الشعب خارج من المعارك الأخيرة منهوك القوى ونصحوا بقبول «عدلى يكن» باشا رئيسا للوزارة.

وكتبت صحيفة «التيمس» الإنجليزية تقول: «إن عدول» زغلول .. باشا عن تأليف الوزارة المصرية قد قوبل فى مصر بالاستحسان من جميع الرجال المعتدلين فى كل حزب، ولا شك أن الشكل الذى عدل به عن تأليف الوزارة وأبلغ إلى حلفائه وأنصاره قد دبر بمقدرة عظيمة.»

وكان النواب قد اجتمعوا مساء ٢ يونيو واستقر قرارهم على أن يطلبوا من سعد زغلول «أن يراعى صحته التى تهمهم وتهم البلاد وعندهم أنه إذا ظل طليقاً من قيود المنصب كان ذلك أصلح لهم وخيراً للبلاد، ولما عرضوا هذا القرار عليه لم يسعه إلا النزول على إرادتهم كما صنع فى المرة الأولى.

وأقام النواب حفلة تكريم لـ سعد فى فندق الكونتنتال فى ٣ يونيو، وقد وصفها «سعد» فى مذكراته قائلا: «كانت الحفلة شائقة ولكن الانشراح كان قليلا فيها.»

وفى ٦ يونيو قام عدلى باشا يكن بتأليف الوزارة وفى مساء اليوم التالى استقبل «سعد» باشا أعضاء الوزارة فى بيت الأمة ودام اجتماعه بهم ثلاث ساعات!!

□□

كانت المرة الأولى والأخيرة التى قرر فيها «سعد زغلول» أن يحتفل بعيد ميلاد زوجته «صفية زغلول»!!

كان ذلك فى صيف عام ١٩٢٦ وبالتحديد فى شهر يونيو!!

اتخذ «سعد زغلول» هذا القرار فى هدوء وسرية وصمت ولم يعلم به أحد سوى مصطفى وعلى أمين وكان عمرهما فى ذلك الوقت حوالى ١١ سنة!!

روى «مصطفى أمين» فى مذكراته الحكاية فكتب يقول:

«استدعى الزعيم الولدين الصغيرين (على ومصطفى) وقال لهما إننى سأكلفكما بمهمة سرية خطيرة لا أريد أن تعلم بها أمكما ولا ستكما!!

وفرح الولدان وتصورا أن جدهما سيكلفهما بمهمة سرية ثورية، وأحسا أن هذا شرف عظيم وقال لهما: تذهبان إلى محل شيكوريل وتشتريان قفازاً كهذا القفاز على ألا يزيد ثمنه على عشرة جنيهات.. غداً عيد ميلاد «ستكم صفية» وأريد أن أفاجئها وأقدم لها هدية بمناسبة هذا اليوم السعيد!! ثم أعطاهما عشرة جنيهات وخمسة قروش مصاريف ركوبهما الترام وقفازاً قديماً من قفازات صفية زغلول حتى يحصلا على قفاز من نفس النوع.

وقام الولدان بالمهمة السرية فى كتمان شديد، واشتريا هذا القفاز وأخفياه ثم عادا إلى بيت الأمة وقابلا «سعد» فى مكتبه بالسلاملك وقدما له القفاز، وفرحا عندما أثنى على ذوقهما فى اختيار القفاز وكان أسود اللون.

وخرج الولدان فى سعادة غامرة وهما يشعران أنهما أصبحا موضع ثقة زعيم الأمة ولهذا كلفهما بهذه المهمة السرية على الرغم من أن عمرهما كان يومئذ ١١ سنة، وكانت هذه أول مرة يحتفل بها سعد بعيد ميلاد زوجته، ولم يقم لها مأدبة أو حفلة عيد ميلاد ولم يأمر بعمل «تورتة» يضع فيها شموعاً بعدد سنين حياتها!

وكانت «صفية» سعيدة بهذه الهدية البسيطة التى يبلغ ثمنها عشرة جنيهات وكانت أكثر اهتماماً كيف اشترى سعد هذا القفاز؟! فكان - سعد - يضحك ويرفض أن يخبرها بسر الولدين الصغيرين - وكان يقول إن الجهاز السرى للثورة هو الذى اشترى القفاز!!

وفى مذكرات «سعد زغلول» كتب يقول:

«إن هذا اليوم ١٦ يونيو - ولادة قرينتى - وقد أهديتها قفازاً قيمته عشرة جنيهات».

فى ذلك الوقت كان قد تم انتخاب «سعد زغلول» رئيساً لمجلس النواب، وانهمك سعد زغلول فى حضور الجلسات والمناقشات رغم اعتلال صحته وضعفها،!!

□□

وفى ذلك الوقت وصل الأمير «سعود» إلى مصر!

وصل الأمير «سعود» بالباخرة «عباسية » إلى ميناء السويس فى الساعة السادسة من صباح ٩ أغسطس ١٩٢٦، ثم ركب لنشاً بحرياً اجتاز به ميناء السويس وذهب إلى المحافظة حيث استقبل استقبالاً فخماً ثم انتقل بالقطار إلى القاهرة.

وصرح الأمير سعود لمندوب جريدة السياسة الذى رافقه فى القطار أن الغرض من قدومه إلى مصر شىء واحد وهو معالجة عينيه من رمد أصابها منذ ثلاث سنوات واشتد عليه هذه السنة.

وطوال أيام زار الأمير سعود كبار رجال الدولة فى مصر، ثم زار يوم ١٣ أغسطس «سعد زغلول» باشا فى مكتبه برئاسة مجلس النواب، ودامت المقابلة ثلث ساعة كان الأمير فيها موضع الترحيب وحسن الوفادة.

وحسب ما جاء فى جريدة الأهرام (١٤ أغسطس) فقد تفضل سموه فصرح لمندوب الأهرام بما دار فى هذه المقابلة مما نلخصه فيما يلى:

«أبلغ سموه دولة الرئيس تحيات جلالة والده ثم أعرب عن الإعجاب بدولته وأن الملك والده يدعو له بالتوفيق ويهتم بالسؤال عن صحته فشكر دولته وكلفه نقل شكره وتحيته إلى جلالة والده ثم سأل دولته عن صحة ملك الحجاز وصحة الزائر ومبلغ ارتياحه وإلى ماالقيه فى مصر فأعرب الأمير عن سروره وامتنانه لما لقيه من الإكرام.»

وزاره فى منتصف الساعة السادسة من مساء ١٣ أغسطس حضرة صاحب الدولة «سعد زغلول باشا» فى منزل ضيافته وكان فى استقبال دولته صاحب الفضيلة الشيخ «حافظ وهبة» وجميع الموظفين الذين فى معية الأمير وظلت هذه الزيارة أكثر من ٢٠ دقيقة ثم عاد دولته إلى بيت الأمة مودعاً بمثل ما قوبل به من التجلة والاحترام.»

وفى صباح ١٨ أغسطس سافر الأمير سعود إلى الإسكندرية لمقابلة «الملك فؤاد».

وتعددت زيارات ومقابلات الأمير سعود، ومساء ٢٠ أغسطس شهد احتفال وفاء النيل الذى أعدته محافظة القاهرة.

وصباح ٢٢ أغسطس زار الأمير سعود ثانية بيت الأمة ثم «استقبله سعد باشا فى دهليز المكتب مرحبا بسموه وألح دولته على سموه فى تقدمه إلى مكتبه فأبى سموه ذلك تقديراً لشأنه العظيم، ولبث عند دولته ٢٥ دقيقة لقى فيها من حفاوته بسموه وعبارات الترحيب بزيارته الشىء الكثير.»

وفى صباح ٢٣ أغسطس تم إجراء العملية فى عينى سموه وأجراها سالم بك الهنداوى واستغرقت العملية ست دقائق ونجحت نجاحاً تاماً، وأشار الأطباء على سموه بالاعتكاف فى غرفته ثلاثة أيام.

وزاره سعد زغلول فى دار الضيافة فى الساعة السادسة إلا ثلثا مستعلماً عن صحة سموه.

لم تكن صحة الزعيم على مايرام، وكانت أم المصريين قلقة على حالة زوجها!!

كانت مصر قد اعتادت على الاحتفال في ١٣ نوفمبر من كل عام بعيد الجهاد، ففى هذا اليوم من عام ١٩١٨ كان «سعد زغلول» و«عبدالعزيز فهمى باشا» و«على شعراوى» باشا قد ذهبوا إلى دار المندوب السامى البريطانى يطالبون باستقلال مصر!

وفى كل عام كان المصريون يقيمون سرادقاً فخماً بجوار بيت الأمة للاحتفال بهذا العيد، حيث يستمع الناس للخطاب الذى يلقيه «سعد زغلول»!!

جاء عيد الجهاد هذه المرة وصحة الزعيم ليست على مايرام، كان الوهن والضعف والشيخوخة قد تركت بصماتها على «سعد زغلول».

فى ذلك الصباح كان «سعد» راقداً فى سريره، يتكلم همساً، ووجهه يختلج، وعيناه مطبقتان والأطباء يحيطون به ويحاولون إقناعه بألا يذهب إلى «عيدالجهاد»، و«سعد» يؤكد لهم بعناد غريب أنه سيذهب إلى الاحتفال.. لمدة خمس دقائق فقط ولن يخطب بل سيجلس على كرسى ولن يتحرك.!!

ويصف «مصطفى أمين» ماجرى وقتها فيقول:

«كان صوت» سعد زغلول يخرج متهدجاً متقطعاً، وأسر الدكتور «على إبراهيم رامز» طبيبه الخاص فى أذن صفية زغلول قائلاً:

- إننى لا أوافق على أن يخرج اليوم، ولو خرج فقد يموت فى الطريق!!

وحاولت «صفية زغلول» أن تثنى زوجها عن الخروج فصمم على الخروج، وخضعت أم المصريين وخضع الأطباء، لأن سعد كان يستطيع أن يتلاعب بالمنطق ويفحم مناظريه حتى ولو كانوا أطباء .. لقد قال للأطباء:

- إننى أفضل أن أموت بين الشعب على أن أموت فى فراشى!!

ولفوا «سعد» بدثار ثقيل وارتدى معطفا وأمسك عصاه يتوكأ عليها وسار بخطوات وئيدة متثاقلة من بيت الأمة إلى السرادق، وكانت المسافة بين البابين عشر خطوات ولكن «سعد» قطعها فى عشر دقائق، وكان «مصطفى أمين» يسير راءه ويتوقع أن يسقط سعد بين لحظة وأخرى:

دخل السرادق وجلس يستمع إلى الخطباء ضعيفاً منهوكاً محطماً وإذا بالشعب ينادى بصوت كالرعد: «عاوزين سعد .. عاوزين سعد»..

وإذا بهذا الرجل المتهدم ينتفض فجأة يقف بقامته المديدة ويمشى إلى المنبر بخطوات شاب ويصعد إلى المنبر كـ «ابن العشرين»، ويخطب هذا الشعب بصوت يبدأ كالمناجاة ثم ينتهى كالزئير!!

ولم يصدق أحد من الحاضرين ما يجرى أمامه ويراه بعينيه، ويسمعه بأذنيه وكانوا قد راحوا فى إصغاء عميق لا حدود له:

وفي صوت عميق مؤثر بدأ سعد زغلول كلمته قائلا

«يعز عليَّ أن أرى منبر الخطابة منصوباً ولا أستطيع له رقيا، وأن أجد مجال القول واسعاً ولا أملك لسانا قوياً، وأن أشهد سامعين منصتين ولا أجد لى صوتاً فتيا لقد أسمعكم الخطيبان قبلى (مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا) ما كان يجيش به صدرى أن أقوله وقد عبرا لكم أحسن تعبير عما كنتم تنتظرونه منى ولولا ضعف ألم بصحتى لكان قولهم قولى.و..»

كما تحدث «عبدالخالق ثروت باشا» ثم استمع الحاضرون لقصيدة «أحمد شوقى»!!

وتقدم بعض الشباب ـ حسب ما يقول «مصطفى أمين» يريدون حمل «سعد زغلول» .. على الأعناق لكنه دفعهم بيده دفعة قوية وقال: سأمشى على قدمي !! ثم أشاح العصا بيده قائلا:

ـ لم أعد فى حاجة إلى عصا!!

وعاد «سعد إلى بيته فإذا بصفية زغلول تستقبله على السلم واجفة خائفة مشفقة وحولها الأطباء وتقول فى لهفة:

ـ ماذا حدث ياسعد؟!

ضحك سعد وقال:

ـ حدث شيء عظيم .. لقد وجدت دواء جهله الأطباء.

قالت: ماهو؟

قال: حماسة الشعب!!

وأصر الدكتور «على إبراهيم رامز» أن يكشف على «سعد» ليرى حالته الصحية بعد الخطاب، وفوجىء بأن الضغط تحسن وضربات القلب تحسنت وضحك الدكتور على إبراهيم رامز وقال:

ـ كأنك أمضيت ثلاثة شهور تُستشفى فى أوروبا.. لا ثلاث ساعات فى خطب!!

وكان تحليل الدكتور «على إبراهيم رامز» صحيحاً كل الصحة!!

ويحلل «العقاد» هذه السمة فيقول موضحاً:

«طبيعة النضال فى «سعد» على أتمها وأندرها، وهى إن شئت ضرورة حيوية فى بنيته أو ضرورة «فزيولوجية» يعيش بها الجسم ويلتمس فيها علاجه وشفاءه واستعادة نشاطه، وما من زائر حميم من زوار بيت الأمة إلا وهو يذكر كيف كان يرى «سعداً» فى الشتاء وهو ملتف بالدثر والكوفيات من عنقه إلى قدمه وكيف يراه بعد هنيهة إذا استطرد الجدل إلى أمر يمسه ويمس خصومه ولقد تزحزحت الكوفية حتى انحلت،

وتزحزح الدثار حتى سقط وانبرى الرجل كأنه فتى فى ميعة العمر يتوثب بحمية الشباب ولا يبالى ما يفعل الشتاء ولا مايقول الأطباء.

وليس بالمجدى أن يمنعه الأطباء أن يعمل ويتكلم إذا دفعته طبيعته إلى العمل والكلام فإنه ليصدق من وحيها ماليس يصدق من وحى الطب ووحى التفكير. وإنها لتصيب حيث لا يصيب هذا ولا ذاك.

وقد حدث مرة فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١ ـ أن أطباءه رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطراً على حياته إن هو أجهد نفسه أو خطب فى ذلك اليوم، ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله ولا يؤديه عنه غيره! فليتلكم إذن وليبطل كلام الطب ونصيحة الزوج الرؤوم ورجاء الأصدقاء وقد تكلم كما شاء وحى الطبيعة واعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات فإذا الخطبة من أجود ما قال وأفعل ما ارتجل. وماذ حدث؟! هل تحقق الخطر؟! هل تعب؟! هل اقتصر الأمر على السلامة؟! لا... عولج مما كان يشكوه وعاد كأقوى ما كان.»

وحسب ما يقول «مصطفى أمين» كان سعد زغلول إذا شعر بالإجهاد قال:

ربنا يرزقنا بأزمة مع الإنجليز حتى نجدد شبابنا!!

.. وكانت أسوأ أيامه هى الأيام التى يأمره الأطباء فيها بعدم مغادرة غرفة نومه، وكان يسمى هذا «أمراً بالقبض عليه واعتقاله» وكان يناقش أمر الاعتقال ويعارضه ويحاول إقناع الأطباء بتخفيض مدة الحبس!!

□□

ولم يفقد «سعد زغلول» أبداً روحه الساخرة وقفشاته اللاذعة، وهى حسب ما يقول العقاد: «حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذة أو رد مكيدة أو إلزام حجة أو صرف حادثة مؤلمة بكلمة مضحكة، فهى تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح، وهى مئونة تصلح حينا لمساجلة الأصدقاء كما تصلح حينا لمناجزة الأعداء..

أنبأه صحفى إنجليزى أن اللورد جورج لويد صاحب الأزمات المعروفة يقول:

ـ إن صحة سعد باشا تتقدم على الأزمات!

فقال سعد باشا للصحفى، قل له ربنا يطول عمره!!

□□

كان الانتقال من فصل الشتاء إلى فصل الربيع متعباً على صحة سعد زغلول، ومن هنا كان نصيحة الأطباء له بتبديل الهواء وتغيير الجو، «فأمضى فى النيل ثلاثة أيام عاد بعدها إلى القاهرة ليستأنف عمله فى بيت الأمة وفى مجلس النواب، وازداد شعوره

بالتعب وفي اليوم الأخير للدورة البرلمانية ألقى كلمة الختام فقال: حاولت عند اقتراب انتهاء هذا الدور أن أعد خطبة كما فعلت في الدور السابق ولكنني لم أتمكن من ذلك لضعف في صحتي. واختتم كلمته المرتجلة بقوله: «استودعكم الله جميعاً وأسأله لكم الصحة والعافية، وأرجو أن أراكم قريباً وأن يهبنى الله جل وعلا من القوة ما يعيننى على مشاركتكم فى خدمة البلاد حتى نصل بها إلى مانوده جميعا.»

وغادر سعد وأسرته القاهرة إلى عزبته، وهناك بدأت رحلة النهاية!!

فى منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٨ أغسطس ١٩٢٧ كان ضيوف الرئيس (سعد زغلول) جالسين إلى المائدة بغرفة الطعام «بمسجد وصيف»، واشترك معهم الدكتور أحمد شفيق والدكتور حامد محمود فى فحص حالة دولة الرئيس وكان الضيوف من الصباح متفائلين خيراً فالحرارة فى هبوط والرئيس منشرح عن الأيام السابقة حتى أن الاستاذ عباس محمود العقاد استأذن فى العودة إلى القاهرة.

وصعد إلى الطابق العلوى «بهى الدين بك» (بركات) وفواد بك كمال وكان الضيوف مايزالون جلوساً حول المائدة ثم نزل بهى الدين بك وأبلغهم فى شىء من الأضطراب أن الأطباء بالرغم من ملاحظتهم اطراد التحسن فى صحة الرئيس وعدم وجود ما يدعو للقلق فإنهم يرون ضرورة عودة دولته إلى القاهرة، فاضطربوا لهذه المفاجأة وحاولوا أن يعارضوا فى تنفيذ هذا القرار، وتمثلوا مقدار مايستولى على نفوس الشعب من فزع حين يعلم هذه العودة الفجائية.

وأخذ الحاضرون يتداولون فى ترتيب السفر وكيفية إبلاغ النبأ إلى الأمة، وكانت الباخرة «محاسن» قد وصلت منذ يومين وترسو أمام «مسجد وصيف» لتكون تحت طلب «سعد زغلول» وجاء مهندس الباخرة ورئيسها، ثم تم إبلاغ وزير الأشغال ليصدر الأوامر بفتح الكبارى ورجوا منه أن يتكتم الخبر حتى لا يتسرب إلى الجمهور.

واستدعى «سعد زغلول» الاستاذ .. صبرى أبوعلم .. لمقابلته، وقبل أن يصعد إلى غرفة نوم «سعد» أوصته المدموازيل «فريدا» بألا يدع سعد يتكلم كثيراً حتى لا تعود الحرارة فترتفع.

كان «سعد» جالساً فى سريره والرباط يحيط برأسه، وراح يسأل صبرى أبو علم عن باقى الضيوف، ثم أخذ يتكلم عن ذلك المرض الذى جاء على غير انتظار فنغص عليه راحته وضايقه وقال: «إنى لأ عجب لهذه الأكزيما وسرعة تنقلها كل يوم من جهة لأخرى، لقد جاءت فى وقت بدأت أشعر فيه بطعم الحياة من جديد، فصحتى كانت قد

بدأت تتحسن، وكنت فرحاً بمن يحيطون بى بين قادم وزائر ومقيم ومسافر، ودار الضيافة عامرة بهم ونفسى مرتاحة إلى أحاديثهم ولكن جاء هذا المرض فضايقنى.. وماذا تقول البلد عندما ترانى فى هذه السن أعود للقاهرة فجأة؟!

وحاول «صبرى أبوعلم» أن يرفه عن «سعد زغلول» ثم أخبره أنهم أعدوا بلاغاً ضمنوه ما لاحظه الأطباء من التحسن فى صحته مما دعاه إلى تقرير العودة إلى القاهرة.

وبسرعة تم تمهيد وإعداد الطريق بين العزبة والشاطىء، وركب «سعد زغلول» عربة العمدة وجلس إلى يساره د. أحمد شفيق، ولما وصلوا إلى الشاطىء حاول البعض أن يحملوا .. «سعد» على كرسى أعد لذلك فأبى وقال: دعونى!!

ومشى «سعد» معتمداً على عصاه حتى وصل إلى الغرفة التى أعدت له بالباخرة، ثم وصلت حضرة صاحبة العصمة أم المصريين ومن معها.

واستغرقت الرحلة بالباخرة حوالى ١١ ساعة..

ويقول «مصطفى أمين»: «كانت رحلة شاقة، وجو شهر أغسطس حاد قاتل كثير الرطوبة وكان يضطر إلى تغيير البيجاما وملابسه الداخلية عدة مرات فى اليوم الواحد، وعند وصوله إلى القاهرة أصدر الأطباء بيانا للناس يقولون أن الالتهاب فى أذنه ورأسه قد زال ولكنه يحتاج إلى الراحة بضعة أيام. ويمكنه أن يفارق غرفته ويقابل زواره بعد قليل من الأيام إن شاء الله».

وخرجت صحيفة الأهرام .. تقول فى ١٩ أغسطس:

«يسرنا أن نبشر الأمة العربية بالتحسن المطرد فى صحة حضرة صاحب الدولة.»

وكان القائم بأعمال المندوب السامى البريطانى يتابع تطورات حالة سعد وأرسل إلى وزارة الخارجية ببرقية يقول فيها:

«سعد زغلول معتل الصحة، ويبدو إنه يعانى التهاب فى الأذن مع ارتفاع درجة الحرارة حتى وصلت إلى ٣٩ درجة.»

□□

كان الكل يشعر بقرب نهاية حياة «سعد زغلول»، لكن الكل أيضاً كان يحاول ألا يصدق!!

وكانت الساعات الأخيرة فى حياة «سعد زغلول» رهيبة عليه وعلى من حوله أيضاً!!

يقول «عباس محمود العقاد»:

«كانت ليلة الإثنين (٢١ أغسطس) فاستيقظ ـ سعد ـ حول الساعة الثانية بعد نصف الليل وهو يعانى ألما فى المعدة ثم ذرعه القىء واشتد به التعب وارتفعت الحرارة حتى

بلغت فى الصباح أربعين وخطين، وعادة الأطباء فأوجسوا أن يكون ذلك علامة على سريان الجراثيم وسرعة فعلها فى البنية، وداخلهم الرجاء أن يكون ذلك طارئاً عارضاً فى الأمعاء فعالجوه علاجاً يقاوم سموم الداء ويخفف هذا الطارئ المفروض، ولكن الحرارة لم تهبط.»

ويروى الصحفى «خليل ثابت» حكاية لها دلالتها ومغزاها فيقول:

«ولما أزفت الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى - الإثنين - التفت «سعد» باشا إلى حرمه المصون وقال لها:

- أنا خايف من الساعة الواحدة أيضاً؟!!

فقالت له: دع عنك مثل هذا الأوهام ياسعد فإنه إذا كان المرض قد اشتد أمس الساعة الواحدة فهذا ليس معناه إنه سيشتد عليك الساعة الواحدة من هذا الليل. أيضاً.

فأخذ «سعد» ساعته ووضعها على وسادته وجعل ينظر إليها كل نصف ساعة ويسجل الوقت بصوت مرتفع قائلاً:

- ثمانية ونصف .. تسعة ونصف .. عشرة..»

ولما قربت الساعة الثانية عشرة خشيت أم المصريين إذا أزفت الساعة الواحدة وأشتد المرض على سعد أن يؤثر وهمه فى مرضه تأثيراً سيئاً قد يضر بصحته فتناولت ساعته خفية وأدارتها وجعلتها الثانية بدلا من الثانية عشر.

وفى الساعة الواحدة تماماً اشتد المرض وارتفعت الحرارة فجأة إلى ٤١ فمد يده وتناول ساعته وحدق فيها قليلاً ثم مر على وجهه بكفه وقال:

- أنا لا أزال أملك حواسي.. فمن المحال أن تكون الساعة الثالثة الآن(!!)

وكانت صفية هانم تمسك بيدها الساعة الحقيقية فنظرت إليها فألفتها تسجل الواحدة، فأدارت وجهها لتسنر ما اعتراها من اندهاش وذهول!!

وإدرك سعد الحقيقة وأخذ يتمتم:

- أنا رايح.. أنا رايح!!

فقالت له صفية هانم:

- وهل تحب أن أجيء معك؟!

فتطلع إليها وقد أمسك يدها وقال.

- خليك أنت(!!)

وهنا دخل عليه الطبيب بناء على طلبه، ولكن الداء أعيا الأطباء.

□□

وفى اليوم التالى ـ الثلاثاء ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ تدهورت حالة «سعد زغلول» أكثر وأكثر!!

«استمرت الحرارة فى الارتفاع حتى بلغت الحادية والأربعين وسبعة خطوط، ولوحظ احتباس البول فحقنه الأطباء بمادة الجلوكوز ـ وحسب ما يقول العقاد: «ثم ضعف النبض دفعة واحدة بعد انتظامه فى جميع الأدوار الماضية وتغلب اليأس على الرجاء، وعاده الأطباء للمرة الأخيرة فى التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين ونزلوا إلى المكتب لكتابة تقريرهم الأخير.»

ويكمل .. «مصطفى أمين»:

كانت أم الولدين (رتيبة ابنة سعد بالتبنى) تلازم غرفة نوم خالها مع «صفية» وتتبادلان السهر عليه، كل واحدة منهما تنام ساعة وتسهر ساعة. وإذا بـ صفية تخرج وتهمس فى أذن قريبتها «عطية هانم يكن» بأن تذهب فوراً وتشترى لها مناديل سوداء، وفهم الولدان (مصطفى وعلى أمين) فى هذه اللحظة أن سعد يموت!!

وفتح «سعد» عينيه ونظر إلى صفية ولعله قرأ فى وجهها درجة الحرارة العالية فأطبق عينيه ووجم وأرادت صفية أن تطمئنه فقالت له:

ـ أنت أحسن كثيراً!!

قال سعد : لا مفيش فايدة.. أنا انتهيت!!

□□

ومات سعد زغلول!

وسرى خبر وفاة الزعيم إلى كل أنحاء مدينة القاهرة!!

لم يكن الراديو قد عرفه الناس فى ذلك الوقت، وكان لابد من نشر الخبر بأى شكل، وكانت المطبعة الأميرية مغلقة!! وذهب محافظ القاهرة «محمود صدقى باشا» . إلى مقر جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين خصوم سعد «وطلب من الدكتور محمد حسين هيكل» باشا رئيس تحريرها طبع نعى لتوزيعه على الناس!!

وقام موظفو الحكومة بتوزيع النعى الذى أصدره مجلس الوزراء على الناس فى كل مكان!!

وهكذا عرفت القاهرة بنبأ وفاة «سعد»!!

وكانت «أم كلثوم» تغنى فى ملهى البوسفور أمام محطة مصر وفوجئت بالمتفرجين يتسللون واحداً وراء واحد، وتركوا الصالة خالية، وتلفتت حولها فوجدت الموسيقيين

توقفوا عن العزف ولم يبق إلا الموسيقار «محمد القصبجى» بجوارها مستمراً فى العزف، وتوقفت «أم كلثوم» عن الغناء وسألته ماذا حدث؟! قال القصبجى: مات سعد؟!

وماتت - كما يقول مصطفى أمين الأغنية على شفتى أم كلثوم وانهارت على مقعد جالسة، وبعد ذلك وضع لها الشاعر «أحمد رامى» أنشودة أنا انتهيت، ابدأوا جميعاً .. وقد وزعت شركة جرامفون منها نصف مليون اسطوانة!!

وبعد ظهر اليوم التالى ٢٤ أغسطس ١٩٢٧ شيعت جنازة سعد زغلول فى موكب مهيب لم يحدث أن شاهدت مصر مثله فى تاريخها كله!!

وابتداء من ذلك التاريخ، وحسب ما يقول «هندرسون» القائم بأعمال المندوب السامى البريطانى فقد طويت صفحة جديدة من تاريخ مصر لوفاة سعد زغلول!! مضى الرجل كشمعة احترقت، وليس هناك من يمكن أن يخلف «سعد زغلول» ويملأ مكانه فى زعامة حزب الوفد أو فى رئاسة مجلس النواب، وسيظل الموقف السياسى يغلى فترة من الوقت!!»

كانت مصر كلها حزينة، لكن حزن «صفية زغلول» كان لا حدود ولا نهاية له!!

وإلى الفصل القادم..

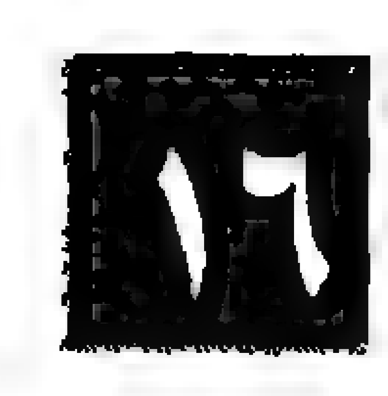


أم المصريين



صفيـة التى لا يعرفهـا أحـد !!

- أخطر مقال كتبه «مصطفى أمين» عن «صفية زغلول» !
- سر كراهية أم المصريين للأميرة «شويكار» !
- «سعد» يتهم «صفية» بأنها مريضة بالنظافة !
- تناجى «سعد»: ألومك وأعتب عليك !



.. إلا «صفية زغلول»!!

كانت «صفية زغلول» آخر من يعلم بأمر ذلك الرثاء الذى نشرته لها جريدة «السياسة» بعنوان «فى غرفة الموت» يوم ٢٧ أغسطس ١٩٢٧.

قرأت مصر كلمات وسطور ذلك الرثاء النبيل من زوجة إلى زوجها، ودمعت أعين كل من قرأ هذا الرثاء البليغ!!

كان لهذا الرثاء قصة مثيرة وغريبة أيضاً!!

كان البطل الخفى فى تلك القصة هو «الأستاذ مصطفى أمين» وكان عمره فى ذلك الوقت حوالى ١٣ سنة وبضعة شهور!!

بعد سنوات طويلة روى «مصطفى أمين» فى كتابه (من عشرة لعشرين) قصة الرثاء الذى اعتبره «أول نصر صحفى فى حياته»!!

هذا النصر الذى قرأه كل مصرى فى نفس يوم نشره ولم تقرأه «أم المصريين» إلا بعد حوالى أربعين يوماً من نشره!!

فى نفس يوم الوفاة دخل مصطفى وشقيقه التوأم على إلى غرفة نوم سعد وسمعا صفية تبكى وتقول لجثمان سعد الراقد على السرير كلمات دامية، كل كلمة تنزف دموعاً!!

وعندما سمع «مصطفى» هذه الكلمات أحس أن هذا الكلام يجب أن يسمعه الناس، وجلس وكتبه على شكل مقال قال فيه على لسان «صفية زغلول»:

«ألومك وأعتب عليك!! كثيراً ما نهيتك عن العمل والكتابة إشفاقاً على نفسى وعليك، ولكنك كنت تكتب وتعمل وتجاهد وتكافح حتى آخر لحظة، وكنت تجيبنى: أنا مسئول وورائى ناس!!

ألم يكتب لك وأنت فى مرضك الأخيرة صاحب حاجة فاضطررت أن تتحامل على نفسك وترد عليه؟! ماكان أغنانى وأغناك عن هذا الذى قضيت على نفسك! وما أشد عتبى الآن عليك ووجيعتى لإصرارك على العمل رغم نصيحة الأطباء!!

يا لمصابى.. لقد قضينا ثلاثين سنة كنت فيها البر كله. لم أسمع خلالها منك كلمة سوء أذكرك بها اليوم. بلغ من برك بى أن كنت تكتم عنى ما يكدر حرصاً على

إحساسى.. فلا أعرفه إلا بعد إنقضاء أمره. ثم كان لى مجدك.. وكان لى عزك.. رفعنى الناس برفعتك وفضلك ومحبتهم إياك ومحبتك إياهم. وكم تمنيت أن يكون لنا ابن يطالعنا ونطالعه. فكان جوابك أنه ليس لك ابن ولكن لك أربعة عشر مليونا من الأبناء. ولبكاء هؤلاء الأبناء اليوم عليك أنا أشد جزعاً وأحر بكاء.. ما أشد شفقتى عليهم وبلواى بحزنهم..

وها أنت تتركنى وتترك أبناءك ولا تترك من ورائك وصية لى ولا لهم، ولم تكلم فى شأننا أحداً.. فهل أعتب عليك لهذا أيضاً؟!

كنت تكره النحيب حتى منعته لما مات ابننا (بالتبنى) سعيد زغلول ولما تأثرت أخته قلت لها بلسانك: «إنى اتفقت وإياك أينا سبق به الموت صاحبه، كان حاله كحال ابننا». وأشد مايحزننى أن ألبس عليك السواد وقد كنت تكرهه، ولكن مالى إلى ذلك من بد وليس أمره فى يدى..

إننى أعدك يا سعد أننى سأصنع مابقيت أيامى ما صنعت أنت طول أيامك، فلك منى آخر نقطة من دمى».

كان هذا هو المقال الذى كتبه «مصطفى أمين» على لسان «صفية زغلول» وعندما نزل إلى السلاملك رأى أمامه الدكتور «محمد حسين هيكل» باشا رئيس تحرير جريدة السياسة فأعطاه المقال.

قرأ هيكل باشا المقال وأعجب به وقام بإجراء تصحيحات لبعض عباراته ثم قام بنشره فى جريدة السياسة فى ٢٧ أغسطس ١٩٢٧ بعنوان «فى غرفة الموت».

وبعد عدة أسابيع من نشر هذا المقال تذكرته صفية زغلول، وكادت تجن: فالكلمات كلماتها.. لكن كيف تسربت خارج بيت الأمة لتجدها منشورة فى جريدة السياسة، وكانت لسان حزب الأحرار الدستوريين خصم الوفد اللدود!!

وطلبت صفية زغلول من أمين يوسف زوج رتيبة والدة على ومصطفى أمين أن يذهب إلى د.هيكل باشا - وكان زميلا له فى مدرسة الخديوية الثانوية ثم مدرسة الحقوق - ليسأله: من هى السيدة التى أملت الجريدة تلك الكلمات التى ناجت بها سعد زغلول؟!

وذعر مصطفى أمين وخشى أن يخبر د.هيكل والده بأنه هو صاحب المقال ومصدره، وبالتالى تقوم قيامة «صفية زغلول» وأمه وبيت الأمة ضده.

لكن الدكتور هيكل - حسب شهادة مصطفى أمين نفسه - رفض أن يذكر لوالده اسم كاتب الكلمة وقال لأمين يوسف:

إن كاتبة الكلمة هى سيدة كانت فى المأتم ولا يذكر اسمها!!

وحتى هذه اللحظة لم يخطر ببال «صفية زغلول» أن المقال الذى نشر بعد أربعة أيام فقط من وفاة «سعد زغلول» لم يكن مصدره فقط مصطفى أمين.. بل أيضاً كان هو الذى كتبه!!

وانتابت الدهشة «صفية زغلول» وهى تقلب باقى صفحات عدد جريدة السياسة، فقد كانت الصفحة الأولى كلها عبارة عن مقال طويل عنوانه «سعد زغلول.. الأمة رجل واحد فى المصاب به.. رجل واحد فى الدفاع عن سياسته. أما باقى الصفحات فقد نشرت كلمات ومقالات ورسائل التعزية من الملك فؤاد والملك عبدالعزيز ملك الحجاز..و..

وراحت «صفية زغلول» تقرأ عشرات القصائد وأبيات الشعر التى قيلت فى سعد زغلول من كبار شعراء مصر والعالم العربى:

وفى قصيدة لشاعر القطرين «خليل مطران» قرأت أم المصريين:

«صفية» الطهر أتاك الجهاد حلى
لم تؤتها فى الخدور الأنفس السقم!
لك الجمالان فى خلق وفى خلق
وزينتاك بكل منهما تـوأم

وفى قصيدة أخرى لشاعر لبنان «شبلى ملاط» قرأت «صفية» هذه الأبيات:

نعى الناعى لنا «سعد» فروّعنا
أن المقطم قد مادت رواسيه
ياأم مصر وبنت الأكرمين يدا
وزوج «سعد» التى تبكى تنائيه
هيهات ينسى ولن ينسى «صفيته»
بيت صفية ركن من مبانيه
قد رافقت سعداً فى أيام محنته
وشاطرته العنا فى ما يقاسيه
يا سعد قل لى وذابت حين قال لها
أنا انتهيت وأغنى فى دياجيه

ولأول مرة تجد «صفية زغلول» نفسها بغير «سعد زغلول»!!

ما أكثر المرات التى كان يغيب فيها «سعد» عن «صفية» لكنه فى كل الحالات كان يملأ حياة «صفية».

وراحت «صفية» تتذكر أيامها مع «سعد» منذ تزوجا فى يناير ١٨٩٦، راحت عشرات الذكريات والمواقف والحوادث تتوالى أمام عينيها، كما راحت تستعيد مشوارها مع «سعد» الذى كان كل حياتها وعمرها!!

تذكرت «صفية» يوم «التنفيض»، اليوم المخصص كل أسبوع لتنظيف بيت الأمة، وكان يوما له أهمية خاصة عندها، وكان «سعد» يضيق بهذا اليوم، فالمطلوب منه أن يترك غرفته مبكراً حيث يبدأ التنظيف من الدور العلوى والبداية من غرفة نوم «سعد»، وهو يعرف أنه لابد وأن يتناول طعام الإفطار بسرعة، ولا يستقبل أى زوار فى ذلك اليوم. وعليه أن يتناول طعام غدائه فى نادى محمد على!!

فى يوم التنفيض كانت «صفية» تدخل غرفة «سعد» وتقف أمامه لاتتحرك ولا تتكلم، ويفهم «سعد» من هذه الحركة ـ كما يقول «مصطفى أمين» ـ أنها تدعوه إلى الجلاء عن البيت بسرعة، وكان «سعد» يسمى «صفية» فى ذلك اليوم «مقلقة الراحات وهادمة اللذات»! فقد اعتاد كل يوم أن يقوم من فراشه بتثاقل ويحمل معه الصحف إلى دورة المياه ويمكث فيها ساعة كاملة ثم يخرج إلى الحمام ويحلق ذقنه بيده، وحتى آخر أيامه لم يكن يعرف ماكينة الحلاقة، بل كان يستعمل الموسى الطويلة التى يستعملها الحلاقون!!

ثم يرتدى ملابسه على مهل وينزل إلى مائدة الإفطار، ويتناول إفطاره الذى يستمر ساعة أو أكثر من ساعة، أما فى يوم التنفيض فلا يستمر فى الحمام إلا دقائق، ولا يبقى على مائدة الطعام إلا لدقائق!!

وكان «سعد زغلول» يقول إن «صفية» مريضة بمرض اسمه «النظافة»، وكانت صفية تضع منفضة من الحديد فى أدنى درجات السلم الخارجى ومنفضة من سعف النخيل فى أعلى، الأولى ليمسح فيها الزائر قدميه من الطين والثانية ليمسح فيها الزائر حذاءه من التراب، فإذا وجدت ـ صفية ـ آثار أقدام على الرخام الأبيض فى سلم السلاملك، نادت «عبدالكريم» فراش السلاملك ليسارع إلى محو هذه الآثار حتى تبدو درجات السلم الرخامية ناصعة البياض تبرق وتلمع وتضىء، فقد كانت ترى آثار الأحذية على الرخام كأنها وصمة عار فى جبين البيت الأبيض النظيف!!

وتذكرت صفية ـ سجل زوجها ذلك فى مذكراته ـ كيف كان سعد يردد دائماً قبل الثورة: «ليس بينى وبين الآخرة إلا القليل، ولا أعلم ماذا ألاقى فيها».

وتذكرت «صفية» كيف غضب «سعد» غضباً شديداً بسبب هدية من المانجو تلقتها صفية. فقد حدث أن أرسل «طاهر بك اللوزى» هدية مانجو فاخرة ومعها خطاب منه

إلى «صفية زغلول» يبلغها تحياته ويطلب منها قبول الهدية، وغضب «سعد» كيف يكتب طاهر اللوزى خطابا إلى زوجته مباشرة، فالمفروض أن يكتب له هو وأن يرسل هدية المانجو له هو، مع أن طاهر اللوزى كان متزوجاً من السيدة وهيبة ابنة أخت صفية زغلول وكان سعد يعاملها كابنته!! لكن التقاليد هي التقاليد وكان ذلك قبل ثورة ١٩.

وتذكرت «صفية» أيضاً أن سعدا كثيراً ما كان يدعو أصدقاءه المقربين لتناول طعام الغداء معهم. وكان سعد يسمح لـ صفية بحضور الغداء والعشاء مع الشيخ «محمد عبده» وقاسم أمين وعبدالرحمن فهمي!!

ولم يكن «عبدالرحمن فهمي» يحضر زوجته معه عند زيارة سعد زغلول، وكان «عبدالرحمن» عندما يجلس يضع عينيه دائماً في الطبق الذي أمامه ولا يرفعهما في وجه صفية!!

بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة وكان يتناول الغداء باستمرار مع سعد زغلول وصفية ولم تحضر زوجة قاسم هذا الغداء مرة واحدة!!

بل كانت زوجة قاسم أمين تتردد على «صفية زغلول» فلا تكشف وجهها أبداً أمام أحد في بيت الأمة، بل إنها إذا تناولت الغداء مع صفية كانت تعد لهما مائدة في غرفة أخرى، وتناول «سعد» الطعام وحده!!

وتذكرت «صفية» كيف زارت مع «سعد» عواصم أوروبا وعرضها على كبار الأطباء فأجمعوا على أنها لن تنجب!!

وتذكرت «صفية» كيف أن الأميرة «شويكار» الزوجة الأولى للملك فؤاد كانت تطارد زوجها سعد باستمرار وكانت تتردد على بيت الأمة وتطلب مقابلة «سعد» وكانت صفية تعتذر لها بأنه مشغول أو نائم أو غير موجود، ولكنها كانت تعود فتطلب مقابلته من جديد وكانت صفية تكرهها، متصورة أن الإنجليز يريدون دسها على «سعد» لتشويه سمعته بين الجماهير.

وكانت «صفية» تستقبلها بأدب وتؤكد لها بلباقة أن سعد سعيد في زواجه!!

ولم يعرف «سعد زغلول» أبداً أن الأميرة شويكار طلبت مقابلته أكثر من مائة مرة وأن صفية اختلقت لها مئات الأعذار!!

وتذكرت «صفية» كيف كان «سعد» يؤمن بالأحلام وكيف كان يقص عليها أحلامه وتقوم هي بتفسير هذه الأحلام، وكان سعد في أغلب الأحوال يصدق ويثق في تفسيرات «صفية» لأحلامه!!

وتذكرت صفية أن «سعد» كان يقول دائماً أمامها «إن لذة الحياة أن يكون للإنسان أصدقاء وأن يكون غنياً عن الناس، ولا يكون ذلك إلا إذا كان قنوعاً».

وقوله أيضاً : افعل المعروف ولا تنتظر عليه جزاء وإلا طال انتظارك وفقدت صبراً، وأسوأ الناس من كان «خيراً» ويعرفه الناس بالشر، وأشرهم من كان شريراً معروفاً بالخير.

وتذكرت صفية كيف كان سعد زغلول طوال سنواتها معه يحترم ويجب ويقدر كل أسرتها، وعندما مات أبوها مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء قال عنه سعد: «فقدت بوفاته حما وحبيباً، مليح الطلعة، جميل الخلقة، رقيق الحاشية لطيف العشرة، دقيق الإشارة، بعيد النظر، بصيراً بالعواقب ، رزينا حليماً، صادق القول، مخلص العمل، لا يقول ما لا يريد، ولا يريد مايسىء».

وتذكرت صفية كيف حزن «سعد» حزنا شديد لوفاة والدتها السيدة «أصاقيش هانم» وكان يقول عنها دائما إنها «طيبة القلب، شغوفة، كريمة، تجمع الكثير من صفات الرجال وكان لها منزلة خاصة بين سيدات مصر.

□□

وهكذا راحت صفية زغلول «تسترجع شريط أجمل وأغلى وأصدق ذكرياتها وأيامها مع «سعد زغلول»!!

فى نفس الوقت راحت الصحافة والمجلات تكتب عن حياة أم المصريين ودورها فى مشوار «سعد» السياسى والاجتماعى!

قبل عام ١٩١٩ كانت صفية زغلول «مجرد زوجة» لـ سعد زغلول أما بعد الثورة فقد أصبحت «أم المصريين» وأصبح اسمها لامعاً وشهيراً ليس فى مصر فقط بل تجاوز الحدود أيضاً!! مما دعا الكاتبة والصحفية الأمريكية «جريس هوستون» إلى عقد مقارنة بينها وبين الملكة «نازلى»، وهكذا التقت الكاتبة الأمريكية «نازلى» وأجرت معها حواراً صحفياً مدهشاً ونادراً وبمجرد نشره قامت الدنيا ولم تقعد بسبب ماجاء فيه وأثار غضب وتذمر الملك فؤاد زوجها واتخذ قراراً بألا تقابل زوجته أى كاتبة أو صحفية بعد هذا الحديث وإلى الأبد!!

وربما كان أخطر ما فى هذا الحديث هو ماجاء على لسان الكاتبة الصحفية الأمريكية عندما كتبت تقول بالحرف الواحد:

«ولقد نشأت الملكة نازلى» وعاشت حتى زواجها فى بيئة عصرية متحررة، وكانت أمها من صديقات «صفية هانم زغلول» الحميمات، كما كانت من مؤيدات حركة المرأة

الجديدة وزعيماتها، ولكنها ككل الزعيمات الوطنيات فى مصر، نفضت يدها من نازلى وأمها بعد زواج نازلى، وذلك لأنها - أى صفية - كانت تؤمن بأن بالملك فؤاد صنيعة البريطانيين وأنه لايحب المصريين».

وعلى مايبدو فإن اسم «صفية زغلول» أو «أم المصريين» قد أثار شهية صحافة أمريكا تجاهها لمزيد من المعلومات والحكايات عنها وعن نساء مصر أيضاً!!

وهكذا جاءت إلى مصر فى نفس العام - ومن أمريكا أيضاً - صحفية لامعة وشهيرة - فى تلك الأيام - هى «جريس تومسون سيتون». وكان هدف زيارتها إعداد كتاب عن نساء مصر بعد ثورة ١٩١٩ التى قادها الزعيم سعد زغلول!!

كانت «صفية زغلول» على رأس من قابلتهن الصحفية الأمريكية، وادارت معها وعنها حوارات متعددة ضمنتها كتابها الذى أطلقت عليه «نساء مصر أو الزغلوليات» نسبة إلى سعد زغلول!!

هذا الكتاب صدر فى الخارج ولم يسمع به أحد فى مصر أبداً حتى كشف عنه النقاب منذ ربع قرن الأستاذ «محمد عودة» وقدم له بحفاوة شديدة!!

بدأت الكاتبة والمؤلفة الأمريكية «جريس تومسون سيتون» كتابها بقولها:

«قيل لى إنه من الصعب جداً أن أستطيع رؤيتها إن لم يكن من المستحيل. وكان من العبث طبعاً أن أحاول الاستعانة بأحد من معارفى الإنجليز أو الأمريكيين، ولم أجد سوى أن أكتب لها من امرأة إلى إمراة، ومن كافحة فى سبيل قضية المرأة الكبرى فى بلادى إلى مكافحة فى سبيل قضية الحرية فى بلادها.

ولم أأتمن أحداً على الرسالة فذهبت بنفسى وسلمتها لبواب «بيت الأمة»، وفى اليوم الثالث جاء الرد مهذباً فى لغة إنجليزية بديعة يحدد لى موعداً لمقابلتها.

وذهبت - ولم أكد ألقى نظرة على ما حولى حتى دهشت، إن الشرقيات كما يصورهن خيالنا الغربى المريض - قد انقرضن، والحوريات المضطجعات فى استرخاء يعرضن فتنتهن على أرائك ناعمة من الحرير وحولهن الجوارى يعزفن العود والطنبور لم تعد توجد إلا فى كتب الأساطير..

واستقبلتنى خادم أنيقة قادتنى إلى سيدتها حيث كانت تجلس وحولها عدد كبير من أركان حربها «والمعجبات».

ووجدت مدام زغلول سيدة متوسطة الطول، ذات شعر تخلله المشيب فى وقار وجمال، وعينين عسليتين نفاذتين وأنف دقيق وشفتين رقيقتين وطراز مثقف مهذب من الجمال.

ومن الوهلة الأولى أحسست أننى أمام سيدة قوية الشخصية ذات كبرياء .. وذات رقة ووداعة أيضاً. وكان صوتها دائما هادئاً لا يعلو ولا ينفعل وكأنه يعبر عن روح انكشف لها الحجاب ورأت الحقيقة .. وصممت على أن تتبعها حيثما تقودها.

ثم تضيف الكاتبة الصحفية الأمريكية «جريس تومسون سيتون» قائلة:

«ولقد اعتقل زوجها «زغلول باشا» للمرة الثانية فى ديسمبر سنة ١٩٢١ بعدما رفض أن يعتكف فى عزبته وشهدت «صفية هانم» اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت.

وخيرت - أى صفية - بين أن تصحب زوجها أو أن تبقى، وكان عليها أن تحسم هذا السؤال الخطير ولكنها بعد تفكير عميق قررت أن تبقى وأن تتم الرسالة التى تركها زوجها، لأنه إذا كانت حاجة زوجها إليها شديدة فإن حاجة مصر أشد.

وكما قالت لى: أن سعداً سجين فى (سيشل) ولكننى هنا، روحه الثانية وزوجته التى تصون مكانه.

ولقد كان ردها على دار المندوب السامى قاسياً تاريخيا، فقد أمسكت بالتليفون وقالت للمتحدث حينما أخبرها أنها تستطيع اصطحاب زوجها:

أخبر سعادة المندوب السامى أننى سأظل فى القاهرة وسأعمل كل ما فى وسعى لأتم عمل زوجى، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسم سعد ولكنكم لاتستطيعون أن تنفوا روحه لأنها تعيش وستظل تعيش وفى بيته، وأنا سأكون «سعداً» حتى يعود، وهو سيعود لأن الشعب لن يسمح بغيابه ولن يمكنكم من إبعاده طويلا. وحتى لو مات «سعد» فسيأتى كثيرون غيره وسيتقدمون الصفوف، وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة فى سبيل استقلال مصر.

وأعدت صفية هانم واللجنة منشوراً وزع فى كل أنحاء البلاد بعنوان «نداء حرم الرئيس»،

وبدأت - صفية - فى غيبة زعماء الوفد الكبار فى المنفى وزعماء الصف الثانى فى السجون صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر بزعامة .. صفية هانم زغلول.

وقد بدأ احتجاجهن يأخذ شكله العملى بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة، وجمعية «محمد على» الأرستقراطيات للكفاح من أجل استقلال حقيقى للبلاد.

وقالت لى مدام زغلول: «إنهن لم يغيرن ملابسهن ولم يعرفن النوم طوال الأسبوع الماضى، وقد انتشرن فى شوارع القاهرة وأثرن فى البدء سخرية البعض، ولكن لم

يمض أسبوع حتى كان التجار يستجيرون بهن وينفذون كل طلباتهن، ولقد نظمن لجاناً في المدن والقرى.. وعقدن اجتماعاً في القاهرة شهدته ألفا سيدة نظمن فيه مقاطعة البريطانيين والبضائع البريطانية حتى ضج البريطانيون.. وأفلس عدد كبير من متاجرهم».

ثم تضيف المؤلفة والصحفية الأمريكية «جريس تومسون سيتون» قائلة:

وبدأت أتردد على بيت الأمة وأتعرف بالمصريات الجدد، وكانت صفية هانم تقدمهن لي وتحدثني عنهن لأنهن كن يأبين الحديث عما يفعلنه وتحمر وجوههن خجلاً إذا أشاد بهن أحد.

وعرفت مدام بركات (زوجة فتح الله باشا بركات) وكانت صفية هانم تسميها «أركان الحرب» لأنها كما قالت لي: ذات مقدرة خارقة على العمل الشاق المتواصل وهي تسكب كل روحها ونشاطها وحماسها في الكفاح لقضيتنا.

وكانت مدام بركات شابة ذات عينين براقتين لامعتين ووجه مستدير وبشرة ناعمة سمراء وخدين بديعين، وحينما قابلتها لأول مرة كانت قادمة منفعلة من الخارج فقد رأت مصريين يشتريان «كرافتات» من محل إنجليزي فاندفعت إليهما وعنفتهما حتى تركا البضاعة وأسرعا بالهرب خجلاً.. وحينما استمعت إليها وهي تروي القصة أحسست أن روح «جان دارك» قوية متفجرة في المصرية الجديدة.

ولقد التفتت إلى صفية هانم. وقالت: إننا لم نعد نشتري شيئاً مطلقاً إلا ماهو مصري وحتى هذه الفطائر نصنعها في بيوتنا هنا لأننا لا نريد التعامل معهم.

ودخلت مدام «اللوزي» ومدام «يوسف» ابنتا شقيقة «صفية هانم» وهما سيدتان ممتلئتان كانتا تساعدان خالتهما كثيراً في كفاحها وقد قبلتاها في خديها ثم في جبهتها وقدمت إليها مدام اللوزي باقة ورد وقالت لها:

- هذا من حديقتنا أرسله أبي إليك!

- وضحكت مدام زغلول والتفتت إليّ قائلة:

- انظري كم تقدمنا، إن رجلاً يقدم لي أزهاراً.

وانتهزت الفرصة وسألتها:

- كيف تتصورين مستقبل المرأة المصرية؟

وقالت لي : رائع.. إنني نفسي لا أكاد أصدق التقدم والتطور الذي حدث ونحن نتقدم إلى الأمام بخطوات واسعة، زوجي رجل متحرر وهو يؤيد حقوق ومطالب المرأة.

وسألتها : وكيف ترين مستقبل مصر؟!

فقالت : سنكافح حتى تنال مصر حريتها وسنسير فى الطريق حتى النهاية.

قالتها بالفرنسية وبتصميم وعزم أكيد، ثم التفتت إلى مدام واصف بطرس غالى بتلك النظرة الحنون التى تجعل الجميع يعبدون صفية هانم.

ويجمع صالون صفية هانم كل النماذج من نساء مصر من كل الطبقات.. من الأميرات حتى الفلاحات البسيطات.

وهن يجلسن معا بلا تفرقة يحتسين القهوة أو الشاى بغير كلفة أو تفرقة ويناقشن ويبحثن معاً، وليس هناك مكان يمكن أن يرى فيه الإنسان حيوية مصر، وثورية مصر والمرأة المصرية الجديدة مثل هذا الصالون.

ولقد ذهبت يوماً فوجدت سيدة ريفية تجلس على الأرض متربعة والجميع يحيطونها بعطف واحترام وكانت ترتدى ملابس الريفيات وتضع مجموعة مذهلة من الحلى الذهبية على صدرها وفى ذراعيها وحتى فى قدميها.

ولم تكن غريبة وسط هذا الجو الأنيق المهذب المثقف المتحمس الذى يحيط بها والذى كان يكف عن الحديث بالفرنسية لكى يتحدث إليها وكان اسمها «الست جبة» وقد جاءت إلى بيت الأمة تحمل مبلغاً كبيراً من المال لتتبرع به لصفية هانم وللثورة، وكانت الست جبة تصحب معها سيدة أخرى ريفية لا تقل حمولتها من الذهب عنها ولكنها كانت أكثر رشاقة وأناقة منها وقد أجلستها صفية هانم إلى جوارها.. وجلست تحتسى القهوة فى رشاقة لا تقل عن رشاقة من حولها، وأخذت أيضاً تسألهن وتستفسر منهن عن أشياء كثيرة وهن يجبن بترحاب عن كل ماتريد.

واشتركت معنا فى الحديث ـ عايدة مرقص حنا ـ ولم أستطع أن استشف أن وراء هذه الفتاة الضاحكة المتفائلة قلبا مثقلا لأن عمها وخطيبها «مكرم عبيد» منفيان مع سعد باشا، وعرفتنى عايدة بأختها «مارى» وهما كريمتا «مرقص حنا» وعمهما «سينوت بك حنا» أحد أقطاب الحركة الوطنية.

وهكذا راحت الصحفية الأمريكية تحكى وتروى تفاصيل عديدة ومثيرة عن هؤلاء النساء ثم تعترف قائلة:

ولقد كان كل هؤلاء يحطن بـ صفية هانم وكانت تبدو بينهن زعيمة حقيقية تحمل هيبة الزعامة العظمى، وتستطيع أن تلهمهن وأن تقودهن وأن تكون لهن الأم والرائدة والقائدة، وأن تجعل تضحياتهن الكبيرة المضطرة للمال والجهد تبدو سهلة محببة أمام هدفهن الأكبر وهو تحرير مصر.. لا من بريطانيا ولكن من كل القيود.

ولم تكن صفية هانم فى الحقيقة سوى أم لكل المصريين ولهذا كانت الزعيمة الروحية للنساء والرجال أيضا فى غيبة زوجها.

وكانت الرسالة الفعلية للجنة السيدات فى يد سيدة مصر الثانية العظيمة مدام «هدى شعراوى» وهى سيدة هادئة ورصينة وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة.

ولقد طفت بالدوائر النسائية فى إنجلترا وأمريكا ولكننى وجدت من الذكاء والحماس والوطنية والجمال والأناقة فى مصر، وفى بيت الأمة أكثر مما وجدت فى أى مكان آخر سيدات وفتيات ومثقفات وفلاحات مصر الحديثة، وكما قالت لى «صفية هانم»:

«إن المصريين مثل رمال الصحراء قد تستطيعين أن تسيرى عليهم، ولكن يوما ما يهبون كعواصف الرمال ويبتلعونك»!!

كانت تلك الكلمات أبرز وأهم ما سجلته الكاتبة الأمريكية «جريس تومسون سيتون» قبل عدة سنوات.

□□

كانت صفية زغلول قد دخلت التاريخ!!

وكان الكل يعلم أنها خزانة أسرار سعد زغلول «زعيم الأمة»!!

وكان الكل عارفا بمكان ومكانة صفية زغلول فى مسيرة ومشوار وكفاح «سعد» منذ زواجهما عام ١٨٩٦ وحتى وفاته!!

وكان السؤال الذى يشغل بال الجميع فى داخل الوفد وخارجه هو:

- وماذا بعد رحيل سعد؟!

- ومن الذى يخلفه؟!

وهل ترك «سعد» وصية سياسية يوصى فيها بمن يخلفه؟!

كانت كلها أسئلة وألغازاً حائرة لا إجابات لها!!

ووسط هذا الجو الملبد بغيوم الحيرة، همس بعض رجال الوفد باقتراح مثير كان بمثابة لغم سياسى.

كان ملخص هذا الاقتراح أن يتم انتخاب «صفية زغلول» كرئيسة للوفد بعد وفاة «سعد» وخاصة أنها قادت الثورة بعد نفى زوجها مرتين وكانت أقوى من ألف رجل!!

كان الاقتراح غريبا وعجيبا ومثيرا فى نفس الوقت!!

وعندما سمعت «صفية زغلول» هذا الاقتراح كان لها رأى ووجهة نظر!!

وإلى الفصل القادم



مصطفى النحاس والسيدة قرينته زينب الوكيل



صفية تحسم صراع الخلافة !

- اقتراح غريب بانتخاب صفية لرئاسة الوفد !
- خلافات عائلية وراء انحياز صفية للنحاس !
- روز اليوسف تهاجم كل خصوم النحاس باشا !
- إغلاق مكتب سعد فى وجه فتح الله بركات !



مات «سعد زغلول» دون أن يوصى بمن يخلفه فى زعامة الوفد!!

وكان السؤال الذى يشغل بال كل مصرى: ماذا بعد سعد زغلول؟!

كان هذا السؤال البسيط والخطير هو الشغل الشاغل للجميع من الملك «فؤاد» إلى المندوب السامى البريطانى، ومن كبار رجال الوفد أنفسهم إلى باقى زعماء الأحزاب الآخرين!!

ومن وسط أحزان «صفية زغلول» وحزنها العميق الذى امتد وطال، لم تكن بعيدة عن هذا السؤال أيضا!!

كانت كل «مصر» عارفة بالمكانة التى احتلتها «صفية زغلول» فى قلب وعقل زوجها زعيم الأمة «سعد زغلول»!!

وكان أول سؤال واجهته «صفية زغلول» وتكرر كثيراً بعد ذلك هو: هل أوصى سعد زغلول باسم معين لخلافته؟!

وكانت إجابة «أم المصريين» واحدة ودائمة ولا تتغير، فقد كانت تقول لسائليها إنها سألت سعد وهو على فراش الموت: من توصى زعيما من بعدك؟!

وقال سعد زغلول - حسب شهادة صفية زغلول - «لقد حملتها على رأسى حياً، ولا أريد أن أحملها ميتا!!»

وكان أغرب ما جاء على لسان القائم بأعمال المندوب السامى البريطانى فى مصر «نيفيل هندرسون» هو قوله: «ليس هناك من يمكن أن يخلف سعد زغلول ويملأ مكانه فى زعامة حزب الوفد أو فى رئاسة مجلس النواب. وسيظل الموقف السياسى يغلى فترة من الوقت.»

□□

كان التقرير السابق قد كتب بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٢٧ أى بعد حوالى أربعة أيام من وفاة سعد زغلول .. لكن أخطر ما جاء فيه هو قوله: «وفيما عدا فتح الله بركات ..» وكذلك عقيلة «سعد زغلول» فليس هناك من يدعى وراثة سلطان «سعد زغلول» أو رواية رغباته الحقيقية.

صحيح أن الوقت كان مبكراً جداً لطرح أية أسماء لوراثة زعامة «سعد»، لكن ترددت أسماء فى كواليس ودهاليز «بيت الأمة»، والأحزاب.. والسراى أيضاً!!

قيل مثلا داخل الوفد إن السيدة «صفية زغلول» - وقد وقفت وراء زوجها حتى وفاته ينبغى أن ترأس الحزب!!

لكن المحافظين من أعضاء الوفد - حسبما يعترف مصطفى أمين - اعترضوا على هذه الفكرة وقالوا إن الفلاحين فى الصعيد سيقولون إن معنى هذا أنه ليس بين أعضاء الوفد رجل واحد، وأنه ليس فى العالم كله أى حزب سياسى ترأسه امرأة!!..

وكانت نصيحة الأستاذ أمين يوسف زوج ابنة سعد زغلول بالتبنى ووالد مصطفى وعلى أمين بأن تنتخب «حرم سعد باشا» للرياسة الفخرية، وأن يكون النحاس باشا سكرتيراً وأن تؤلف لجنة من ثلاثة ليعملوا كرؤساء.

ولم تكن هذه الفكرة مثار ترحيب أو تأييد من أعضاء الوفد لأن مجرد وجود ثلاثة رؤساء لهيئة واحدة كفيل بتقسيمها إلى ثلاث هيئات.

وكان لابد من اختيار شخص واحد لا ثلاثة!!

وفى كتابه «تطور الحركة الوطنية فى مصر» يقول د. عبدالعظيم رمضان».

«كانت المشكلة بعد ذلك مشكلة الاختيار نفسه، ذلك أن زعامة «سعد زغلول» كانت جارفة بحيث لم تسمح بقيام زعامة أخرى بجانبها للخلافة، على أن التنافس كان شديداً بين اثنين من رجالات الوفد أولهما هو «محمد فتح الله بركات باشا» ابن أخت سعد زغلول الذى يذكر عنه الجزيرى سكرتير سعد زغلول أنه كان الرأس المدبر فى الوفد، ولا سيما فى شئون الانتخابات دون أن يكون له فى ذلك رأى يعول عليه، حتى كان الوصف الذائع عنه فى الأوساط الوفدية وفى أوساط خصوم الوفد أنه داهية الوفد».

أما الرجل الثانى فهو مصطفى النحاس الذى كان يشغل عند وفاة سعد زغلول منصب وكيل مجلس النواب. وكان رجلا ميالا بطبيعته إلى التطرف كما يقول د. هيكل.. فقد كان قبل انضمامه إلى الوفد ثم عضويته فيه من المتشيعين للحزب الوطنى المؤمنين بنظريات «مصطفى كامل».

كان «مصطفى النحاس» خارج مصر يوم مات «سعد زغلول»، وما إن علم بنبأ الوفاة من «حمد الباسل باشا» وكيل الوفد حتى عاد بالباخرة إلى مصر.

ويروى «مصطفى النحاس» ما جرى بعد ذلك فيقول فى مذكراته:

«قصدنا من فورنا إلى بيت الأمة وعند دخولنا غرفة مكتب الزعيم الفقيد استولى علينا حزن شديد وبكينا طويلا وبكى معنا جميع الحاضرين ثم كفكفنا دموعنا وصعدنا

إلى الطابق العلوى حيث قابلنا السيدة الجليلة «أم المصريين» وكانت آثار الحزن بادية عليها فقدمنا لها التعزية الخالصة ومكثنا عندها نحو الساعتين ثم انصرفنا والحزن يملأ قلوبنا.»

وبتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ كتب النحاس باشا:

«فى الساعة الخامسة من مساء اليوم عقد الوفد أول اجتماع له بعد وفاة سعد فى مكتب الوفد وحضره جميع الأعضاء الذين كانوا فى مصر، ماعدا فتح الله بركات باشا الذى اعتذر بسبب مرضه وأرسل يؤيد كل قرارات الوفد.

وقد أوقفت الجلسة نصف ساعة حداداً على الزعيم العظيم ثم انتقلنا بكامل هيئتنا إلى الدور العلوى من بيت الأمة حيث قابلنا السيدة الجليلة أم المصريين وأبلغناها عزاءنا وجددنا العهد أمامها أن نسير على مبادىء سعد ولا نحيد عنها قيد أنملة.. و.. .. و..»،

استمر الاجتماع حوالى ست ساعات ثم تقرر تأجيل الاجتماع إلى جلسة تالية.

وفى ١٥ سبتمبر ١٩٢٧ يكتب «مصطفى النحاس» قائلا:

كان حديث الأندية والصحف المصرية والأجنبية - وخصوصاً الإنجليزية - أن فى الوفد جناحين يميناً ويساراً، وأن الجناح اليسارى يرشح مصطفى النحاس لرياسة الوفد، وأن الجناح الأيمن يرشح أحد اثنين، إما «فتح الله بركات باشا» أو «على الشمسى باشا» وكنت - أى النحاس باشا - أسمع هذه الأحاديث فلا ألقى إليها بالا، وكان كل همى منصباً على أن يظل الوفد قائماً بالمهمة التى ألقيت على عاتقه والمسئولية الجسيمة التى تحملها بعد وفاة سعد.

لقد ذكر أحمد شفيق باشا أنه قد ظهرت فى الجو فكرتان حول رياسة الوفد، الأولى تدور حول تأليف لجنة من بعض أعضاء الوفد يعهد إليها بالقيام بأعمال الرياسة احتراماً لذكرى الفقيد العظيم، والثانية ترمى إلى اختيار رئيس له من كبار أعضائه، وأشير فى البرقيات الخصوصية للمقطم والأهرام فى ١٩٢٧/٩/١٤ أنه يحتمل كثيراً أن تسند رياسة الوفد إلى «فتح الله بركات باشا» كما أشار شفيق باشا أيضا إلى تكهنات الصحف الإنجليزية فى هذا الشأن ولكن هذا لم يشغلنى على الإطلاق.

وفى ١٨ سبتمبر ١٩٢٧ يكتب النحاس باشا قائلا:

اجتمع الوفد بكامل هيئته فى مساء هذا اليوم وأخذنا نتناقش فيما يكون عليه الحال: وهل يعين رئيسا للوفد أو تؤلف لجنة من عدد من الأعضاء لإدارة الأعمال، واستقر الرأى على أن يعين شخص واحد رئيساً وهنا أشار «مرقص حنا باشا» إلى ما

نشرته البرقيات الخصوصية للمقطم والأهرام في ٤ من هذا الشهر (سبتمبر) مما يحتمل أن تسند رياسة الوفد إلى «فتح الله بركات باشا» كما تكهنت الصحف الإنجليزية كالتيمس والديلي تلجراف في هذا الشأن!

ورددت أن الجناح الأيمن في الوفد يرشح فتح الله باشا، ورد «على الشمسي باشا» بأن هذه تكهنات لا أساس لها من الصحة وأن فتح الله باشا نشر تصريحاً في الأهرام (١٩٢٧/٩/٧) أن رياسة الوفد تتطلب رجلا قانونياً وأنها إذا عرضت عليه فسيعتذر عنها (!!)

ثم يضيف النحاس باشا قائلاً:

- وعرضت عليّ رياسة الوفد فاعتذرت عنها مفضلا أن أظل سكرتيراً عاماً حتى يمكنني أن أزاول مهنة المحاماة التي أتعيش منها، وقلت: إنكم تعلمون أني لا أملك مالا ولا عقاراً وأن في عنقي أسرة كبيرة أتولى شئونها، ورياسة الوفد تحتاج إلى تفرغ تام وإلى حصر كل الجهد في خدمة القضية، وأخذت أتكلم وقد بلغ بي التأثر مبلغاً شديداً.

وانبرى «مرقص حنا باشا» الذي أخذ يفند ما قاله مصطفى النحاس إلى أن قال: لقد رشحناك رئيساً للوفد بإجماع آرائنا ولابد أن تنزل على إرادتنا وكل عذر لك أو احتجاج غير مقبول.

ثم يعترف النحاس قائلا: «ووجمت وبلغ بي الألم مبلغاً كبيراً حتى سالت الدموع من عيني ورضخت لحكم الحاضرين وصاغوا بيانا ضمنوه رأيهم بالإجماع!! ولكن أرجىء إعلانه أو نشره في الصحف حتى يعرض على حرم الرئيس الجليل «أم المصريين» واتفق على أن يظل الاجتماع ممتداً إلى الغد ١٩ الجاري..

وبتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ كتب مصطفى النحاس يقول:

«اجتمع الوفد في مكتب الزعيم الفقيد وأقر البيان كما وضع بالأمس ووقعه جميع الأعضاء وأرسلناه إلى الصحف لتنشره في اليوم التالي ١٩٢٧/٩/٢٠ وفيه: تقرر بالإجماع انتخابي رئيسا للوفد المصري والهيئة الوفدية كما رشحت رئيسا لمجلس النواب خلفاً للزعيم الراحل..» ...

وكان تعليق د. محمد حسين هيكل باشا على اختيار «النحاس باشا» هو قوله:

تولى بعضهم العجب لهذا القرار، ألم يكن «لفتح الله باشا بركات» مطمع في تولي رياسة الوفد مكان خاله سعد زغلول؟! ألم يذهب آخرون إلى أن رياسة الوفد لن تكون وراثة ولن يتولاها غير وفدي صميم!!

وقد كان نشاط فتح الله باشا بركات فى هذا الوقت ملحوظاً، وكان فتح الله يد سعد اليمنى أثناء حياته، فضلا عن أن سعداً خاله. لكن الذين بيتوا لانتخاب «مصطفى النحاس». احتجوا بأن «فتح الله باشا» لا يعرف اللغات الأجنبية، وأن رئيس الوفد صاحب الأغلبية البرلمانية يمكن أن يتولى الوزارة وهو بهذا معرض للاتصال الدائم بممثلى الدول الأجنبية. كما أنه هو الذى يتولى مفاوضة إنجلترا إذا لم يصل ثروت باشا (رئيس الوزراء وقتها) إلى نتيجة إيجابية لمحادثاته.

وتناقل الناس فى ذلك الحين أن فخرى بك عبدالنور والأستاذ «مكرم عبيد» كان لهما ولطائفة من أعضاء الوفد المقربين منهما أكبر الأثر فى اختيار «النحاس باشا» رئيسا للوفد، وأذعن الكل لهذا القرار، وإن بقيت فى نفوس الكثيرين ندوب بسببه ظهرت آثارها من بعد.

ويتفق مع هذه الرؤية الكاتب الكبير «محمد زكى عبدالقادر» الذى يشرحها قائلاً:

لقد أنتخب الوفد «مصطفى النحاس» رئيسا بالإجماع، ولكن هذا كان شكلا ظاهراً فقط، فقد كانت فى النفوس أشياء وأشياء، كان «فتح الله بركات باشا» وهو ابن أخت سعد زغلول منافساً على الرياسة وكان يطمع فيها، وكان على قدر كبير من الذكاء والدهاء ثم هو أقرب الناس إلى سعد زغلول، ولكن التيار فى الوفد لم يكن معه ولذلك تنحى بل أعطى صوته لمصطفى النحاس..

ولكن هل زالت من نفسه المرارة؟! كلا.. لعله كان يرى أن وراثة «سعد زغلول» يجب أن تبقى فى بيته!!

وكان السؤال فى محله تماماً!!

وفى ذلك الوقت حدثت واقعة غريبة لم يعلم بأمرها إلا من كان قريباً من بيت الأمة، لكن الواقعة الغريبة وجدت طريقها إلى وزارة الخارجية البريطانية!

وأرسل «نيفيل هندرسون» القائم بأعمال المندوب السامى البريطانى برقية هامة إلى لندن كشف فيها تفاصيل الخلاف بين أرملة سعد زغلول وفتح الله بركات وكما سمعها حرفياً من «محمد غزالى بك» الموظف بوزارة الداخلية.

وجاء فى البرقية بالحرف:

«استخدم فتح الله بركات .. مكتب «سعد زغلول» وجلس فى مقعده، وتصرف فى مناسبات كثيرة كما لو كان خليفة سعد المختار، وكان نتيجة الخلاف أن أغلقت «صفية زغلول» مكتب قرينها عندما كان «بركات» خارج المنزل ورفضت السماح باستخدام المكتب».

ولم يكن أحد من الناس أو عامة المصريين على علم بكل هذه القصص التى تدور فى بيت الأمة!!

كان انحياز «أم المصريين» لمصطفى النحاس وموقفها من «فتح الله بركات» ابن أخت سعد زغلول مفاجأة سياسية قبل أن يكون مفاجأة عائلية!!

كان الكل يتوقع من «صفية زغلول» أن تؤيد «فتح الله بركات» لرياسة الوفد فهى أكثر من غيرها تعلم أنه كان «داهية الوفد والرأس المدبر فى الوفد»، وقبل ذلك فقد كان يهاب سعد زغلول كل الهيبة ويحبه كل المحبة، وهو عضو الوفد الثانى الذى لم يكن يخلو منه بيت الأمة يوماً والذى كان يصحب سعد زغلول فى رياضته الصباحية حين لا يكون زميله الأستاذ على الشمسى حاضراً. وقبل ذلك كله وربما بعد. فقد كان ابن أخت سعد زغلول!!

كانت الصدفة والظروف والخلافات البسيطة وراء عدم الحماس لفتح الله بركات باشا!!

تقول د. عفاف لطفى السيد (ابنة شقيق أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد) فى كتابها الهام «تجربة مصر الليبرالية»:

كان فى اعتقاد كثير من المعتدلين أن من الواضح أن اختيار خليفة لسعد زغلول سيقع على ابن أخته «فتح الله بركات» وكان فتح الله بركات سياسياً ذكياً بارعاً فى التعامل مع الناس، كما كان بارعاً أيضاً فى تنظيم المجتمعات الريفية، ولكنه لم يكن مثقفاً ثقافة غربية ولم يكن يعرف أية لغة أجنبية، وهو معوق على المستوى العالمى.

واعترض المتطرفون من الوفديين على ترشيحه على أساس أن زعامة الوفد ليست إقطاعاً وراثياً ينتقل من سعد زغلول إلى ورثته، ومما دعم اعتراضهم «صفية زغلول» التى كانت لا تميل كثيراً إلى فتح الله بركات لأسباب شخصية بحتة.!!

أما السيدة «روز اليوسف» فتعترف فى مذكراتها بأن روز اليوسف - المجلة - هاجمت الصحف المعادية للوفد عندما بدأت ترشح «فتح الله بركات» لرئاسة الوفد وتفضله على «مصطفى النحاس» وكانت صحف حزب الاتحاد بهذه الترشيحات تقصد إيقاع الفرقة بين أعضاء الوفد، وكان الخلاف على اختيار الرئيس موجوداً فعلا ولكنه مستور.

ولم يكن من المصلحة أن يتسع، وكان أغلب الأعضاء يميلون إلى اختيار النحاس لأنه أقرب إليهم من فتح الله بركات.. الذى كانوا يخافون من شخصيته القوية الطاغية.

ولم يكن الدور الذى لعبته «أم المصريين» فى حسم اختيار «مصطفى النحاس» لخلافة زوجها سعد زغلول.. فى قيادة حزب الوفد خافياً على السفارة الأمريكية بالقاهرة.

وكتب نورث وينشيب «القائم بالأعمال الأمريكى» يقول:

ولحسن الحظ لم يترك «زغلول» وصية سياسية، وكان متوقعاً فى البداية أن ينتخب «محمد فتح الله بركات باشا» زعيما للحزب ولكنه كوزير للزراعة حط من قدر نفسه فى أعين الناس لأنه خلال مرض «زغلول» الأخير تقدم بقانون الشركات التعاونية، وتجول فى الأقاليم، وأدلى بتصريحات سياسية أكثر منها زراعية، وأصبح لا يحوز ثقة كافية ولا يحظى بإعجاب الجماهير على حد سواء.

كان من بين المرشحين لرئاسة الوفد الأمير عمر طوسون الديمقراطى والمثالى إلى أقصى حد إلا أن لقبه يبدو عائقاً كبيراً فى الوقت الراهن(!!)

كانت هناك وجهتا نظر واضحتان (يقصد داخل حزب الوفد):

الأولى خطر وجود حزب بدون زعيم.

والثانية هى انسحاب «صفية زغلول» من العمل السياسى الفعال.

وعندما سحبت اسمها أصيب الجميع بدهشة عندما أعلنت - صفية - أنها تقف ليس فقط ضد قيام الهيئة التنفيذية بقيادة الحزب، بل إنها تفضل «مصطفى النحاس» زعيما للحزب.

وفى كتابه الهام «مصر الإمبريالية والثورة» يقول المستشرق «جاك بيرك»:

«كان هناك مرشحان لخلافة زغلول، فتح الله بركات .. و«مصطفى النحاس» ولكن بركات فقد الثقة بسبب بعض الإشاعات التى تقول إن له صلة وثيقة بالقصر، وإن كانت الحقيقة أن السبب الرئيس فى إسقاطه كان خلافه مع «صفية زغلول» بسبب نزاع على الإرث!!

ولقد التزمت الأجيال التالية - مراعاة لواجب اللياقة - بالصمت العميق تجاه السبب الأخير، ولكن هذه النتيجة كانت تلتقى مع عناصر أخرى تعزز اختيار «النحاس» - ويبدو أن أحد هذه العناصر كان تأييد أقباط الوفد لمكرم عبيد وفخرى عبدالنور.

إن أقل ما يمكن أن يقال فى هذا الاختيار - حسب كلام جاك بيرك - إنه لم يقع على الشخصية القوية.

كان انحياز «صفية» للنحاس باشا ومعارضتها لفتح الله بركات يعود لتبنيها لرأى سعد زغلول زوجها فى أسرة «فتح الله بركات».

وكانت «صفية» تسمع من «سعد» عشرات القصص والحكايات التى جعلتها بمرور الزمن تشارك رأى سعد فى عداوته لعائلة فتح الله بركات!!

لقد حرص «سعد زغلول» فى مذكراته على تسجيل وتدوين عشرات المواقف بينه وبين «فتح الله بركات»، وإلى الدرجة التى قال فيها سعد بالحرف الواحد:

«إنى برىء من كل شخص يتردد على عائلة بركات من عائلتى»!!

ولم يكن الخلاف بين «سعد» وعائلة «بركات» سياسياً بل كان خلافاً حول مسائل بسيطة بمقياس هذه الأيام!!

وربما تكشف هذه الحكاية البسيطة عن مغزى ما أقول!!

تبدأ الحكاية يوم ١١ سبتمبر ١٩١٦ عندما كان «سعد زغلول» يقيم فى عزبة مسجد وصيف.. ويرويها سعد فى مذكراته بقوله:

«كنت عائداً من الغيط على حمار، وخلفى محمود باشا صدقى (زوج أخت صفية زغلول) على حماره، فعثر بى حمارى وهوى إلى الأرض فهويت معه ثم أردت النزول فلم أستطع حيث انقلب الحمار علىّ وجاءت رجلى تحته فتألمت .. و.. و

وبعد أن تمشيت شعرت بتزايد الألم وأحسست بعسر حركة الرجل اليسرى، فصعدت السلم بكل صعوبة، وألقيت بنفسى فى السرير، ولكنى لم أنم طول ليلى لشدة الألم.» وطوال عدة أيام لم ينقطع الناس عن السؤال عن «سعد زغلول» وزيارته للاطمئنان عليه وعلى قدمه.

وحرصت جريدة الأهرام فى ١٩ سبتمبر على نشر خبر وقوع سعد من فوق الحمار وقالت إنه أصيب برضوض خفيفة لا توجب القلق، وتلقت صفية زغلول برقية من أرملة شقيق سعد زغلول تسأل عن صحته..

باختصار شديد سأل الجميع عن «سعد زغلول» إلا ابن أخته فتح الله باشا بركات، ويكتب «سعد» فى مذكراته بتاريخ ٢٨ سبتمبر يقول:

«حضر أمس «فتح الله باشا بركات» من مصر، وعلمت منه أنه لم يعلم بالحادثة إلا من جريدة وادى النيل وأن ابنه أخبره بأنها بسيطة ولا شىء فيها، وأنه قرأ خطابى الذى كتبته بتفصيل واقعتها للشيخ عبد الكريم. ولم يفاتحنى فى الحادثة عند قدومه!!

ولم يسأل عن الصحة بل تجاهلها بالكلية (أى كلية) حتى ذهبت لقضاء حاجة ثم عدت وأنا أعرج، فوجدت الست (صفية زغلول) قد فتحت الكلام معه فيها، ورأيت من تردده وتجاهله أنه كان عالماً ولكنه تهاون وأراد أن يخفى تهاونه».

وهكذا غضب «سعد» لأن «فتح الله بركات» لم يسأل عنه عندما وقع من فوق الحمار ثم جاء موقف عائلى آخر زاد الطين بلة!!

كان الموقف هذه المرة يتعلق بأمر زواج ابن فتح الله بركات باشا نفسه!!

هذا الخلاف العائلى جداً يكشف تفاصيله الأستاذ «مصطفى أمين» فيقول:

كان نجل «فتح الله باشا» الأكبر الدكتور بهى الدين بركات من أقرب شباب الأسرة إلى «سعد زغلول»:

وفكر بهى الدين بركات - بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه فى الحقوق - فى أن يتزوج، واستأذن سعد زغلول فى الزواج، وعرض عليه اسم الفتاة التى اختارها بصفته عميد الأسرة، ووافق سعد زغلول.

وتم عقد القرآن وحضره «سعد زغلول» وبارك الزواج، وإذا بالعروس تموت فجأة!!

وكانت صدمة قاسية على الشاب الرقيق «بهى الدين بركات»، ورأى «فتح الله بركات» باشا أن يسارع إلى تضميد جراح ابنه فخطب له أبنة «أحمد عفيفى» باشا ناظر خاصة السلطان حسين، ورحب بهى الدين بالعروس الجميلة الصغيرة.

وغضب «سعد زغلول» لأن بهى الدين لم يستأذنه فى الزواج بصفته عميد الأسرة وأنه خطب ابنه «أحمد عفيفى باشا» وهو رجل يكرهه منذ كان الاثنان يعملان مستشارين فى محكمة الاستئناف! وكان معروفاً أن أحمد عفيفى باشا كان يلغى كل حكم تصدره دائرة «سعد زغلول»!!

ودهش «سعد زغلول» أن يختار ابن أخته مصاهرة رجل كان «سعد» معه على طرفى نقيض وعلى خلاف مستحكم!!

ورفض «سعد زغلول» حضور الزواج، ومنع صفية من حضور الزفاف، كما منع رتيبة وسعيد من حضوره أيضا، رغم أنها كانا يعتبران «بهى الدين» بمثابة شقيق أصغر لهما وأصدر سعد أمره بمقاطعة أسرة فتح الله بركات.

ولقد كان «فتح الله بركات» فلاحاً وكان يعرف تقاليد الفلاحين التى تقضى بألا يتم زواج فى الأسرة إلا بعد موافقة عميدها، ولكن ابنه «بهى الدين بركات» كان قد درس فى فرنسا وعاد بآراء جديدة لا تتفق مع هذه التقاليد البالية، منها أن من حق كل شاب أن يختار عروسه بغير أن يحصل على موافقة أبيه وعميد الأسرة.. ثم إنه ارتبط بكلمة، وكرامته أن يحافظ على كلمته. فالرجل هو الكلمة التى يقولها.

وأيد فتح الله بركات ابنه فى موقفه ضد خاله سعد زغلول!!

□□

كان «سعد زغلول» حزيناً وغاضبا ومتألماً لهذا الموقف!!

وحسب تقاليد وأخلاق ذلك العصر فقد كان ماجرى جريمة لا تغتفر بالمرة!!

وفى مذكراته بتاريخ ٢٤ مايو ١٩١٨ قال «سعد زغلول»:

«من أخبار فتح الله باشا بركات أنه زار بعد جفاء طويل عبدالله زغلول ودعاه لحضور كتب كتاب ابنه «بهى الدين» وحمل شقيقه (عاطف) أن يرسل له دعوة تلغرافية فحضر لذلك ولكنى وبخته توبيخاً شديداً.»

بتاريخ ٢٥ مايو ١٩١٨ كتب «سعد زغلول»:

«تم أمس كتب كتاب «بهى الدين» على «بنت عفيفى باشا» وما حضر عبدالله زغلول ولا حتاتة بيك! كما أنه لم يحضر أحد من ذوى الحيثيات، واقتصر الأمر على أهل الطرفين وقال بهى الدين لأقاربه من أولاد حتاتة بيك إنه لم يكن يعلم أن لى نفوذاً على العائلة يمكن أن يمنع أفرادها من الاشتراك فى كتب كتابه!

إن حادثة تلاؤم - لؤم - هذه العائلة أهمتنى أول أمرها، وشغلت من فكرى مكاناً عظيماً لأنى لم أفعل شيئاً فيها سوى كونى ربيت أفرادها صغاراً، وساعدتهم كباراً، وأشركتهم فى الكثير من نشاطى وكثيراً ما انتفعوا باسمى وجاهى، وما كلفتهم على ذلك أجراً.

ولا شيء أثقل على قلب اللئيم من رؤية من أحسن إليه، ولا آلم لنفسه من تصوره، وليس أشوق منه لانتهاز الفرصة التى تساعده على الهرب منه أو إنكار معروفه وجحود فضله.

ولقد عقدت النية على أن لا أقيم لهم وزناً، وأن أعتبرهم أجانب بالمرة عنى، وأنسى كل شيء يتعلق بهم، تاركاً الأمر لله فيهم.»!!

وفى نفس الوقت قابل «أمين يوسف» - والد مصطفى وعلى أمين - بهى الدين ونصحه أن يسترضى سعد زغلول لكنه «أبى ورفض فأسمعه كلاماً مُراً»

وحسب مذكرات سعد زغلول فإن بهى الدين كان يطعن فى عرض الفتاة التى تزوجها طعناً مشيناً.!!

وبعد ثلاثة أيام بالضبط (فى ٢٨ مايو) كتب سعد زغلول يقول:

«نشر المقطم خبر الاحتفال أول أمس بزواج بهى الدين بعبارة مختصرة، وصفت العروسة بكونها بنت عفيفى باشا وحفيدة محمود باشا خليل.

ولست راضياً عن نفسى لاشتغالها بهؤلاء الناس (عائلة بركات) وزواج بعضهم بعد أن أعلنت كبيرهم بأنه لا شأن لى فى هذا الزواج وأنه يخص والديهما، لأن انفصال

هؤلاء عنى أمر كان متوقعاً من بضعة أشهر إن لم يكن من بضع سنين، لأنى كنت أشعر أنهم يعملون على منافستى، ويسرهم ما يحزننى، ويحزنهم ما يسرنى .

وكانوا يتعمدون فى مجالستى الاستخفاف وقلة الاحترام، فيسكتون حينما يجب الكلام ويتكلمون حيث يلزم الإصغاء!! وإذا ذكرت محصولا جنيت قالوا: جنينا مثله أو أزيد منه!! أو متاعاً اشتريت قالوا اشترينا أنفس منه!! وإذا مُدح صديق لى ذموه أو عدو امتدحوه، إلى غير ذلك مما أخذت منه!! إن فيهم ميلا للمنافسة والظهور علىّ»

ولقد جروا على مبدأ الاستقلال فى كل ما يتعلق بشئونهم، فلم يطلعونى على مشروع يخصهم ولا سر بينهم، وتظاهروا بذلك - خصوصاً فيما يختص بالزواج - حيث عاملونى فى كل ما يتعلق به معاملة الأجنبى عنهم.

فلا حق لى بعد ذلك أن أنتظر منهم غير هذه النهاية، ولا وجه فى أن أشغل فكرى بشأنهم وما أريد أن يتصلوا بى بعد هذا الانفصال، لأنى مقتنع كل الاقتناع بلؤم طباعهم وخبث نياتهم، وإذا اتصلوا فلا يغير الاتصال شيئاً من طباعهم.. فواجب على نفسى أن أنساهم أصلاً..»

كانت المرارة تملأ كلمات «سعد زغلول»!!

ولم يكن «سعد» مستعداً أن ينسى هذه الأمور ببساطة أو سهولة، بل كانت تلح عليه وتؤرقه فى صحوه ومنامه!!

وبعد يومين عاد «سعد زغلول» ليكتب أيضا:

«لا محل لاستغراب ما وقع من عائلة بركات، فعميدها - فتح الله - لحداثة عهده بالنعمة، وشدة تشوقه للظهور وتوهمه أن اتصاله بمثلى الآن يمنع من ظهوره بالمظهر الذى يحبه لنفسه، وربما عاق بعض مصالحه لشعوره بأن أصحاب النفوذ من الإنجليز غير راضين عن سياستى، وقد سبق أن هرب من الجمعية التشريعية عند نظرها قانون النقابات الزراعية خوفاً أن ينضم إلى رأيى».

وأما عاطف (بركات) فإنه شخص يحب ذاته كثيراً، فخور جداً بعمله، طماع فى العلو، قليل الذوق، حقود، سيىء التربية، محتقر للغير، وقح للغاية وخائن لا يرعى للذمم عهداً ويستبيح كل شىء، ولقد عرفت ذلك فيه عقب عودته من أوروبا، وكلما طال اختبارى له ظهرت لى فيه هذه الصفات وتأكدت منها، وهو من الذين يرون أن الوقاحة حرية!! وأن احترام الصغير للكبير ضعف!! وأن التأدب مع الغير حطة وضعة، وأن المقاصد تبرر الوسائل.

وأما نجله «بهى الدين» ففتى مفتون بنفسه، مملوء من الإعجاب بها، سريع الانفعال للغاية، تربى على الاستخفاف بكرامات الناس والتهجم على حرماتهم، وقد ورث عن أبيه التملق والطمع والخداع، وأخذ عن عمه قلة الأدب، وخلط الكبر بعزة النفس، والوقاحة بالحرية، والذلة بالتواضع، والخوف بالاحترام!!

وما شككت بعدما وقفت عليه من أحواله فى أن يصل فى سلوكه معى إلى هذه الغاية، فقد كان يسلم علىّ بتقبيل اليدين سراً وعلانية، ثم اكتفى فى العلانية بالشروع فى التقبيل!! ثم بعدم المصافحة، والسلام من بعد!! وكان يتجه إلى أقرب مكان لى نجلس فيه ولا يجلس إلا على كرسى كبير (فوتيه) ثم إذا جلس يعبث بسلسلة ساعته الذهبية!!

وإذا تحدثت تشاغل عنى ولم يحسن الإصغاء، وإذا أتيت بدليل على شىء سألنى أقوى من هذا!! وفى أغلب الأحيان يناقش رأيى مناقشة من يرغب الظهور ثم لا يقتنع بحق ظهر على غير رأيه!! وإذا لم يجد حجة وأفحم القول، كان يسكت - لا سكوت المقتنع أو العاجز - بل سكوت المستخف المستهين، وإذا صادفته فى مجلس وانصرفت عنه تخلف عن مصاحبتى، ولا يحضر عندى إلا قليلاً.

هذه الوقائع - لا يزال الكلام لسعد زغلول باشا - وإن كانت صغيرة، إلا أنها فى رأيى كبيرة الدلالة، ولا أصدق منها فى الدلالة على أخلاق الفتيان.

وإنى كلما فكرت فى شأن هذه العائلة كلما زدت اقتناعاً بصواب القرار الذى اتخذته من أول الأمر فى شأنهم، ومسألة تركهم لشأنهم، وعدم الفكر فيهم فى جميع الأحوال.»

إنتهى ما كتبه «سعد زغلول»!!

صحيح أن الأيام والشهور التى تلت ذلك قللت المرارة والأسى الذى كان يشعر به سعد زغلول!!

لكن ما فى القلب ظل فى القلب!!

ولم تكن كل هذه الأمور بطبيعة الحال خافية على «صفية زغلول» ومن هنا جاء انحيازها، ومساندتها لمصطفى النحاس خليفة لسعد زغلول!!

وإلى الفصل القادم..



مقال مصطفى أمين يهز بيت الأمة!

- إفطار صفية: شاى ولبن.. وتعشق المانجو!
- «صفية» لـ«مصطفى أمين»: عيب أن يعرف الناس متى أنام؟
- المندوب السامى: صحة سعد تتقدم مع الأزمات!

سر خوف «سعد زغلول» من مجئ الساعة الواحدة!



فوجىء كل من فى بيت الأمة بالسيدة الجليلة «صفية زغلول» وهى فى قمة الغضب والثورة والسخط والهياج!!

لم يحدث أبداً أن شاهد أحد «صفية زغلول» وهى غاضبة أو ثائرة أو هائجة، كانت دائمة قمة فى الهدوء!!

إلا هذا اليوم.. فقد كات « صفية زغلول» فى حالة غير الحالة، وحار الجميع فى فهم سبب أو أسباب ثورة وغضب «أم المصريين»!!

ولم يتصور أحد أن مقالاً منشوراً فى «مجلة» كان سر هذه الثورة العاتية!

ولم يتخيل أحد بالطبع أن المقال المنشور يتعرض لأدق تفاصيل حياتها كزوجة لزعيم الأمة.. ماذا تأكل.. كيف تعيش!!

لم يكن قد مضى على رحيل زوجها «سعد زغلول» أكثر من تسعة شهور بالضبط حين صدرت مجلة «كل شىء والدنيا» وهى تنشر هذا المقال المثير!!

قلبت «صفية زغلول» صفحات المجلة بسرعة حتى وصلت إلى عنوان المقال الذى قلب كيانها وكان عنوانه «كيف تعيش أم المصريين فى بيتها»؟!

وبدأ المقال كما سيلى، وراحت «صفية زغلول» تلتهم سطوره وكلماته وعباراته بكثير من الغيظ وقليل من الهدوء!

كان المقال المنشور يقول:

«ليس لصاحبة العصمة «صفية هانم زغلول» ساعة معينة تستيقظ فيها، ولكنها تنهض من فراشها بين الساعة السادسة والنصف والساعة السابعة، ويتألف فطورها من الشاى مع اللبن، وهى تشرب القهوة أربع مرات فى اليوم. المرة الأولى فى الصباح والثانية بعد الغداء، والثالثة بعد العصر، والأخيرة عند المغرب!!

وتتغدى عصمتها فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، وهى تأكل جميع أنواع الطعام على السواء، ولكنها تؤثر الخبز المقمر على سواه، ولا يزيد ما تأكله منه فى الغداء عن رغيف أفرنجى صغير.

ولعصمتها إلمام بشئون الطهى مما يجعلها لا تبخل على الطاهى بالملاحظات والانتقادات من وقت إلى آخر، وبهذه المناسبة نذكر أنها استبقت فى خدمتها جميع

الخدم الذين كانوا يعملون فى بيت الأمة فى حياة قرينها. أما فيما يتعلق بالفاكهة فإن عصمتها تميل ميلاً خاصاً إلى الخوخ والموز والبرتقال!

وإذا لم يكن «لصفية» موعد معين للفطور، وكذلك ليس لها وقت محدد للعشاء ولكنها تتعشى عادة عشاء بسيطاً لا يتألف فى معظم الأحيان إلا من اللبن الزبادى، وتنام عصمتها مبكرة فى الأحوال العادية إلا إذا دعت الحاجة إلى مكوثها مستيقظة فتتغلب على نعاسها وتظل ساهرة ولو إلى الهزيع الأخير من الليل، وهى تفعل ذلك كلما اجتمع الوفد المصرى ليلا، فلا يغمض لها جفن قبل أن يطلعوها على خلاصة مناقشاته وفحوى قراراته، ولعصمتها مقدرة عظيمة فى حفظ الأسرار وعدم الإباحة بالأخبار..

وتمقت «أم المصريين» التدخين، وتأنف رائحة الدخان، وهى تنصح دائماً الذين تقابلهم وتحادثهم بعدم شرب السجائر، كما توصيهم بعدم احتساء الخمر. ومن أقوالها المأثورة فى هذا الصدد: «إنه لو علم الرجل المتوسط الحال الذى يدخن كل يوم بما قيمته خمسة قروش صاغ، أن هذه القروش الخمسة تصير مائة وخمسين قرشاً فى آخر الشهر، وثمانية عشر جنيهاً فى آخر السنة، لأقلع عن التدخين إذا كان عاقلاً، إذ ما الفرق بين رجل يمسك ورقة بنكنوت بثمانية عشر جنيهاً ويحرقها بعود كبريت، ورجل آخر يدخن من السجائر ما قيمته ثمانية عشر جنيهاً»!!

وقد خصصت صفية هانم يوم الجمعة لضيافة أفراد أسرة قرينها العظيم، فيتغدى كل من كان منهم فى العاصمة فى ذلك اليوم على مائدة عصمتها، وخصصت يوم الأحد لضيافة أفراد عصمتها، فيتغدون أيضاً على مائدتها، وكثيراً ما تحدثهم عصمتها عن ذكرياتها فى نعومة أظفارها إذ لا يخفى أنها كانت أصغر أخواتها، وقد كان لها أخ أصغر منها ولكنه توفى قبل ترعرعها.

ومما ترويه عصمتها عن نوادرها فى حداثتها أنها كانت تحب «المنجة» حباً شديداً، وكانوا لا يعطونها منها إلا واحدة فى الغداء وأخرى فى العشاء، فكانت تتسلل إلى قاعة الطعام بين مواعيد الأكل وتأخذ ما يطيب لها من المنجة وتلتهمها، ثم تقصد إلى غرفة أخواتها وتمسح يدها وفمها بملابسهن، حتى إذا بحثوا فيما بعد عن «السارق» وقعت التهمة عليهن!!

وتستقبل أم المصريين يوم الأحد كل سيدة تقصد إليها، ولكن العادة جرت فى سائر أيام الأسبوع ألا تستقبل أحداً إلا بموعد متفق عليه..

وعصمتها تدافع عن مقدرة المرأة دفاعاً شديداً قائلة عنها إنها لا تقل عن الرجل كفاءة. وقد استاءت مرة لما بلغها أن بعض التلميذات يلبسن فى إحدى المدارس

«مرايل» من الحرير، وجاهرت إلى بعض المقربين بأن الفتاة فى المدرسة يجب أن تكون مجردة من مظاهر الترف والزخرفة. وأنه يحسن بالفتاة مهما كانت أحوالها أن تتعود على شىء من الخشونة فى مأكلها وملبسها!!

ونظراً لما تعانيه صفية هانم من الآلام فى رجليها فإنها تمضى وقتها ممددة على كرسى طويل شيزلونج وإذا نهضت إلى المائدة وضعت كرسياً صغيراً تحت قدميها، وإذا أرادت أن تصلى - وهى شديدة الحرص على تأدية فروض الصلاة - وضعت وسادة على مقعد، واستعاضت بالانحناء عليها عن السجود على الأرض لما تعانيه من الآلام فى قدميها. ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن جميع الوسادات التى فى بيت الأمة من صنع «أم المصريين»، وقد مهرت منذ شبابها فى صنعها وتطريز غلافها..

وتطلع «أم المصريين» يومياً على أهم ما تكتبه الجرائد والمجلات فى مختلف الشئون والموضوعات ويتلوها على مسامعها إما «مأمون أفندى الريدى» سكرتير بيت الأمة أو «صالح أفندى» وهو شاب عنيت عصمتها بتربيته وتعليمه، وهى لا تقرأ الروايات إلا نادراً، وإن شاءت أن تتسلى بالقراءة اختارت لذلك بعض الكتب الأدبية.

وعصمتها تعرف العربية والفرنسية والتركية، وقد حفظت بعض الكلمات باللغتين الإنجليزية والألمانية من الأحاديث التى كانت تدور بهاتين اللغتين بين الفقيد العظيم ووصيفته الألمانية مدموازيل «فريدا»!!

وتمضى «أم المصريين» جانباً كبيراً من أوقات فراغها بلصق الصور العائلية فى الألبومات الكثيرة التى أعدتها لذلك، وعندها من هذه الألبومات عدد كبير، وهى تحتوى على كمية عظيمة من الصور الفوتوغرافية العائلية لأسرتها وأسرة قرينها..

وتعنى عصمتها بلصق هذه الصور بنفسها وتبذل فى سبيل تنسيقها عناية شديدة وهى تحتفظ أيضاً بمجموعة من المصورات «اللوحات» لونتها بيدها لما كانت فى العاشرة من عمرها. ويحتوى بيت الأمة على أجزخانة لا تقل عن الأجزخانة التى تحويها عيادة أحسن طبيب. ولأم المصريين إلمام واسع بالشئون الصحية، حتى أنه كثيراً ما تصف دواء ويأتى الدكتور ويصف نفس الدواء، ولكنها لا تستطيع أن تعمل «إبرة» حقنة لأحد ما!!

وقد طبعت أم المصريين على حب الإحسان والبر، وهى تحسن كل شهر إلى نحو خمسين عائلة بمبالغ مختلفة من المال يحملها الحاج أحمد «خادم سعد الخاص» فى اليوم الأول من كل شهر، وهذه العائلات التى تشملها عصمتها بعطفها ورحمتها لا يعرف أمرها غير الحاج أحمد. وقد كان أفرادها إما أصدقاء الهانم ثم أخنى عليهم

الدهر بكلكلة أو خدماً فى بيت والدها المغفور له «مصطفى فهمى باشا»، وتقيم الآن مع «أم المصريين» فى بيت الأمة الدموازيل «فريدا» وصيفة سعد زغلول باشا الألمانية، ووالدة الدموازيل «فريدا» التى تؤنس عصمتها، بينما تكون «فريدا» تهتم بشئون الدار وتشرف عليها..

وأم المصريين شجاعة، وقد تجلت شجاعتها فى ظروف عدة فى أثناء الحركة الوطنية وخصوصاً لما أبلغها اللورد «اللنبى» أن فى استطاعتها اللحاق «بسعد باشا» فى سيشل فكان جوابها أنها ستبقى فى بلادها لتقوم مقامه إلى أن يرجع»..

□□

كان هذا هو المقال المنشور فى مجلة «كل شىء والدنيا» الصادرة فى ٧ مايو سنة ١٩٢٨.

لكن ما سر غضب وحنق وضيق وثورة صاحبة العصمة «أم المصريين» من هذا المقال؟!

بمجرد انتهاء «صفية زغلول» من قراءة المقال السابق قامت القيامة فى بيت الأمة وطلبت «صفية» من الخدم أن يبحثوا عن «مصطفى» ويأتوا به من تحت الأرض!!

وبدأت السيدة «رتيبة» والدة مصطفى تبحث عنه فى كل شبر من بيت الأمة.

وفجأة ظهر «مصطفى» خائفاً، مضطرباً، منزعجاً، لا يعرف ماذا جرى بالضبط؟! ولماذا كل هذا الاهتمام به!

ودخل «مصطفى» إلى حيث توجد «صفية زغلول» وما إن رأته حتى انفجرت فيه: وهى تصيح بغضب: «لن تدخل هذا البيت بعد الآن»!!

ويروى «مصطفى أمين» الذى كان بطل هذه الكارثة تفاصيل سر ثورة أم المصريين فيقول:

«.. وفتح الولد «أى مصطفى أمين نفسه» فمه فى دهشة ونظر إلى أمه «رتيبة» فوجد الدموع تغطى عينيها، والتفت حول الجالسين بجوار صفية زغلول فرأى فى وجوههم الغضب والسخط والاستنكار، وفهم الولد الصغير أن جريمته الكبرى أنه أهان أم المصريين وشتم سعد زغلول.»

ولم يفهم مصطفى أمين شيئاً وأمسك بالمجلة وراح يقلب صفحاتها حتى وجد المقال الأزمة وكان بتوقيع حرف «ك» والتقط أنفاسه وقال: المقال بإمضاء حرف «ك» وأول حرف من اسمى هو «م»..

وفوجىء «مصطفى أمين» حسب شهادته ـ بـ صفية زغلول تقول:

- إننى كلفت «على الشمسى باشا» وزير المعارف بأن يحقق فى هذا الموضوع، وعلم أنك كاتب المقال، وأنك أمليته على «كريم ثابت» وطلبت منه أن يوقعه باسمه وهو حرف «ك» حتى لا يعلم أحد أنك كاتب المقال!!

وبهت مصطفى أمين تماماً ومضت «صفية زغلول» تعنفه وتوبخه قائلة:

- إن هذا المقال لا يجوز أن يكتبه شخص ولد فى بيت سعد زغلول، وعاش فى بيت سعد زغلول إنه إهانة لشريكة سعد زغلول!! إن عظام سعد زغلول «تنتفض الآن من الغضب فى قبره»!!

وحتى تلك اللحظة لم يكن «مصطفى أمين» قد قرأ المقال الذى أثار كل هذا الغضب وتلك الثورة، ومن ثم راح يقرأ المقال لعله يكتشف بنفسه ما هى الحكاية بالضبط!!

وانتهى مصطفى من قراءة المقال ورفع رأسه وقال لـ صفية زغلول:

- كل شىء فى المقال حقيقى!! وماذا فيه يجعل عظام جدى تنتفض فى قبره!!

قالت صفية وقد فوجئت بجرأة مصطفى أمين:

- هذه أمور سرية لا يجوز نشرها!!

وعاد «مصطفى» ليقول بنفس البرود والهدوء:

- هذه ليست أسراراً، هذه أشياء من حق الشعب أن يعرفها!!

وانفعلت صفية واحمر وجهها غضباً وانفعالاً وقالت:

- هذه شئون بيتى ومن حقى أن أحتفظ بها لنفسى!!

وتصورت «صفية زغلول» أنها حسمت الأمر بكلماتها لكنها فوجئت بمصطفى يقول:

- هذا ليس بيتك أولاً هو بيت الأمة، ومن حق الأمة أن تعرف ما يجرى فيه، وأنت أم المصريين ومن حق المصريين أن يعرفوا كيف تعيش أمهم!!

وعلى ما يبدو فقد كان فى لهجة مصطفى بعض المنطق وشىء من الصحة مما دعا «صفية زغلول» إلى التراجع قليلاً عن موقفها وعادت تقول:

- ولكن المقال مكتوب بلهجة غير لائقة! كيف تقول إنى كنت أسرق المانجو وأنا طفلة!!

ضحك «مصطفى أمين» لأول مرة منذ بداية الحديث مع «صفية زغلول» وعاد يقول:

- أنت يا ستى التى رويت لنا هذه القصة عن طفولتك وأنت طفلة صغيرة، ولو كان فيها أى شىء يمسك لما رويتها لنا!!

وبحسم ردت «صفية زغلول»:

- أنتم أولادى!!

وعاد «مصطفى» ليقول:

- والمصريون كلهم أولادك وتأكدى أن هذه النادرة المضحكة لا تقلل من مقامك!!

وعادت «أم المصريين» تقول متسائلة:

- وكيف تكتب وتقول إننى أضع ساقى على كرسى طويل، وأضع وسادة تحت قدمي.. سيتصور الناس أننى «مكسحة»!!

لم يستطع «مصطفى» أن يمنع ابتسامة مفاجئة لكنه أخفاها بسرعة وقال:

- ممكن لأى سيدة أن تشعر بالخجل أن يقال لها إنها مريضة بالروماتيزم، وا الناس كلها تراك ماشية على قدميك، ولا يشينك أبداً أن تريحى ساقيك على مقعد!!

ولم تقتنع «صفية زغلول» بهذا الرد وقالت:

- أنا أعتقد أنه من العيب أن تقول إن صفية زغلول عجوز شمطاء عاجزة عن المشى!! ومن العيب أن يعرف الناس حياتى الداخلية، ماذا آكل ومتى أنام ومتى أستيقظ؟!

ولم ييأس «مصطفى أمين» من محاولة إقناع «أم المصريين» بأن كل التفاصيل التى قرأها الناس فى مقال مجلة «كل شىء والدنيا» ليس فيها ما يشين أو يمين فعاد يقول:

- إن مجلة «تيت بتس» الإنجليزية كتبت مقالاً فى صفحتين بعنوان «كيف تعيش الملكة مارى» كتبت فيه أدق التفاصيل عن حياة ملكة إنجلترا، وجريدة «النيويورك تيمس» كتبت مقالاً عن حياة «مسز كولدج» زوجة الرئيس كولدج رئيس جمهورية أمريكا. ومجلة الإلبستراسيو نشرت عشر صفحات عن زوجة رئيس الجمهورية!!

وبنصف اقتناع قالت «صفية زغلول»:

- ولكننا نحن فى مصر لا فى أمريكا ولا إنجلترا ولا فرنسا!!

وبينما كانت التفاصيل الصغيرة والإنسانية عن حياة «أم المصريين» هى حديث كل الناس فى مصر حسبما قرأوها فى المجلة، يعترف «مصطفى أمين» فى كتابه «من عشرة لعشرين» بأنه ظل عاماً كاملاً يحاكم فيه كل يوم يدخل فيه بيت الأمة على هذا المقال، وتلومه أم المصريين لأنه أذاع أسراراً لا يجوز أن تكتب، وأصبحت «امه» - رتيبة - كلما تلتقى به تقرعه وتلومه على أنه كتب هذا المقال الذى أغضب أم المصريين!!

□□

وبعد فترة من وفاة «سعد زغلول» قامت «صفية زغلول» بفتح مكتب زوجها الراحل ووجدت فيه ثلاث وصايا كتبها بخط يده..

كانت الوصية الأولى عبارة عن خطاب من «سعد» موجه لها قال فيه سعد:

عزيزتى..

أرجو إذا حم القضاء وأدركتنى الوفاة أن تصرفوا من تركتى مبلغ خمسمائة جنيه للحاج أحمد تابعى، وخمسمائة إلى «محمد أحمد» ومائة إلى «على الفراش» إذا كانوا فى خدمتنا عند حلول الأجل.»

«سعد زغلول»

وفى نفس هذا الخطاب الوصية - وحسب شهادة مصطفى أمين.. فقد أوصى للموازيل «فريدا كابس» وصيفة «صفية زغلول» بمبلغ خمسمائة جنيه وأوصى بمبلغ خمسمائة جنيه لطاهيه الأسطى «أحمد بدران»، والمعروف أن الحاج أحمد هو خادمه الخاص مدة خمسين سنة، ومحمد أحمد هو الخادم الذى صحبه فى منفاه فى جزيرة مالطة، والأسطى بدران هو طاهيه الذى صحبه فى منفاه فى جزيرة سيشيل ثم فى منفاه فى جبل طارق..

أما الوصية الثانية فكانت أيضاً لزوجته «صفية» وفيها يقول بالحرف:

قد أوصيت بالثلث من جميع الأموال التى أتركها سواء كانت ثابتة أو منقولة إلى كل من سعيد «ورتيبة» ولدى شقيقتى، لكل منهما النصف، أى نصف الثلث المذكور، وصممت فى ذلك، وأشهدت الله عليه، والله خير شاهد وأعدل قاض»..

«سعد زغلول»

كانت هذه الوصية مؤرخة فى سنة ١٩١٠، ثم وصية أخرى مؤرخة سنة ١٩٢٠، ثم مات «سعيد زغلول» ابن سعد بالتبنى عام ١٩٢٣ دون أن يتزوج أو ينجب فلم يغير سعد زغلول شيئاً فى الوصية وأبقاها كما هى!!

وكانت وصية «سعد زغلول» بمثابة خطاب موجه إلى مدير البنك الأهلى، تقول سطوره:

حضرة المحترم مدير البنك الأهلى.

من المبالغ المودعة طرفكم باسمى مبلغ عشرة آلاف جنيه مصرى هو ملك «حرمى» «صفية زغلول» ولها حق استلامه متى شاءت.

«سعد زغلول»

تحريراً فى أول يونيو ١٩٢٠

وكانت هذه الوصية بالذات مثار أزمة ومشكلة، فقد اتضح أن «سعد زغلول» قام فى سنة ١٩٢٥ - أى بعد ٥ سنوات من كتابة هذه الوصيـة - بوقف - أربعين فداناً - على أقاربه الفقراء والمحتاجين وعلى تعليم أهل قريته «إبيانة».

بدأت الأزمـة عندمـا كـان من رأى «أمين يوسف» «والد مـصطفى وعلى» أن من حق زوجته رتيبة أن تتقاضى من التركة ثمن الأرض التى أوقفها سعد زغلول على أقاربه!!

وذهب «فتح الله باشا بركات» ابن أخت سعد بك ناظر الوقف إلى الشيخ «محمد مصطفى المراغى» رئيس المحكمة الشرعية العليا وروى له المشكلة الطارئة وكان رأى الشيخ المراغى «أن الأربعين فدانا هى ملك لـ رتيبة زغلول، وسعيد زغلول» شقيقها ويجب أن تتقاضى «رتيبة» ثمنها أو تلغى الوقفية!!

وكانت المفاجأة التى أدهشت الجميع هى أن رتيبة رفضت هذا الرأى تماماً الذى كان يقضى بإلغاء ما سبق أن طالب به «سعد زغلول»، بل أصرت على أن تتنازل عن حقها فى ثمن هذه الأربعين فدانا!!

وأصر زوجها «أمين يوسف» على رأيه وأضاف مؤكدا بأنه ليس من حق الأم أن تتنازل عن حقوق أولادها!!

أكثر من هذا قامت «رتيبة» بتمزين الورقة التى كتبها سعد زغلول معترفاً فيها بأنها تملك الأربعين فداناً!!

ولم تكن تلك أولى الأزمات فى تركة «سعد زغلول» بل سرعان ما فجر «أمين يوسف» الذى كان غاضبا كل الغضب من موقف زوجته، مفاجأة مذهلة حين قال للورثة «إنه من بين أموال سعد زغلول المودعة فى البنك مبلغ أربعين ألف جنيه هى أموال الوفد الخاصة، وأن سعد أودعها باسمه لأن أحد المحامين الأمريكيين الكبار وهو مستر فولك أراد أن يحجز على أموال الوفد ليتقاضى مبلغاً ضخماً وهو ثمن دفاعه عن القضية المصرية أثناء ثورة ١٩١٩.

ولم يجد الورثة ورقة واحدة بين أوراق سعد زغلول تشير إلى هذا الموضوع من قريب أو بعيد، لكن فى نهاية الأمر وافقوا على أن يتنازلوا عن هذا المبلغ!!

وبعد عدة أسابيع عاد «واصف باشا غالى» أمين صندوق الوفد من أوروبا وسمع بهذه القصة، وراح يبحث ويفتش فى أوراقه، ووجد ورقة بخط سعد زغلول وإمضائه يشهد فيها الله على أن من المبالغ المودعة بالبنك الأهلى مبلغ أربعين ألف جنيه هى ملك للوفد المصرى وله حق استلامه وقتما شاء!!

ووجدت هذه المشاكل والتفاصيل الصغيرة طريقها إلى خارج بيت الأمة!! ووصلت إلى مسامع خصوم «سعد زغلول» التى وجدوها فرصة ثمينة للتشهير بـ سعد وهو فى قبره.. وراجت شائعات كثيرة عن تركة «سعد زغلول»..

لم يستطع خصوم «سعد» أن يهزموه حياً فحاولوا هزيمته «ميتاً»!!

لم يستطع هؤلاء الخصوم طعن سعد فى ذمته السياسية، فقرروا طعنه فى ذمته المالية!!

وكانت «صفية زغلول» فى غاية الغضب والسخط لهذه المحاولات الرخيصة، فقررت الاتصال برئيس الوفد الجديد «مصطفى النحاس» واستدعائه فوراً إلى «بيت الأمة».
حاول «مصطفى النحاس باشا» أن يعرف من أم المصريين تليفونياً ما هو سر غضبها وثورتها فلم ينجح، وعلى الفور ذهب إلى بيت الأمة..

وبمجرد أن وصل «النحاس باشا» إلى بيت الأمة حتى فوجىء بـ صفية زغلول تقول:

- إن خصوم سعد زغلول يحاربونه ميتاً بالإشاعات!! وأنا أريد أن أصدر للأمة بياناً أعلن فيه عن كل قرش ورثته من سعد، وورثته من أبى «رئيس الوزراء»

حاول «النحاس باشا» أن يهدىء من غضب «أم المصريين» قائلاً:

- هذه إشاعات حقيرة يحتقرها الشعب ويدوسها بالأقدام!!

لم تقتنع «صفية زغلول» بمنطق «النحاس باشا» وعادت تقول:

- ولكن أنا «أم المصريين» جميعاً، ومن واجبى كأم أن أقول لأولادى كم أملك! ومن أين أتيت بهذا.. هذا حقهم علىّ!!

ورضخ «النحاس باشا» لمنطق ورغبة «صفية زغلول» وتم إعداد بيان بهذا المعنى على لسان «أم المصريين» جاءت سطوره كما يلى:

لم يكف بعض ذوى الأغراض ما نكبت به بفقد قرينى العزيز، وما دهى الأمة بوفاة زعيمها الكبير، حتى سولت لهم أنفسهم - وإن النفس لأمارة بالسوء - أن يطعنونا فى مكان الأمانة منا، وهى أقدس شىء لدينا، فاختلقوا الأكاذيب حول تركة الراحل الكريم، ذلك الذى عفت يده ونفسه، وضحى بكل عزيز لديه فى سبيل أمته، وأسندوا له البنوك وجود أموال طائلة، وسندات من أسهم قناة السويس باسمى فى البنوك، موهمين أنها من أموال الأمة، وحددوا مقاديرها بما ابتدعه تصويراً تضليلاً للأفهام.

وإنى - قطعاً لألسنة السوء - وإجلالاً لوفاء الشعب لزعيمه، رأيت أن أنشر على الأمة وهى مصدر فخره، والأمينة على ذكره البيان الآتى:

٧.٧٨١ جنيهاً و٣٣ مليما قيمة ما خصنى فى تركة المغفور له زوجى بحق الربع، ١٤.٧٧٩ جنيهاً و١٥٧ مليما قيمة ما هو باق لى من سنة ١٩١٥ إلى الآن من إيرادات عزبتى بمسجد وصيف البالغ مقدارها ٢١٠ فدادين و٢١ قيراطاً وثلثى سهم، وهى التى خصتنى فى وقف المغفور له والدى، ويدخل فى ذلك مبلغ ٣.٠٥٠ جنيهاً قيمة إيرادات هذا العام، والتى حصلت بعد وفاة المرحوم زوجى، ومبلغ ١٩٢٧ جنيهاً قيمة ما ورثته فى النقود المخلفة عن المرحوم والدى.

هذا وليس لى مال ولا عقار غير ذلك، ولم يكن لى فى حياة المغفور له زوجي ولا بعد وفاته مال ولا سندات غير ما ذكر..

بيت الأمة فى ٣ فبراير ١٩٢٨.

«صفية زغلول»

□□

لم يكن سراً انحياز روزاليوسف - السيدة والمجلة - إلى سعد زغلول!!

وبعد وفاة سعد زغلول - صدرت روزاليوسف مجللة بالسواد، تحمل على صدرها صورة مهيبة لـ سعد، فكانت أول مرة تظهر فيها صورة رجل سياسى على غلاف المجلة..

وفى ذلك الوقت أثارت بعض الصحف المعارضة للوفد حكاية المعاش الذى تتقاضاه صفية زغلول عقب وفاة زوجها، وبالاتفاق مع روزاليوسف انبرى الصحفى الكبير «محمد التابعى» للرد على هذا الهجوم وكتب يقول:

«بعض الزميلات - يقصد المجلات - يكثرن من الحديث عن معاش حضرة صاحبة العصمة صفية هانم زغلول بلهجة ليس فيها شىء كثير من الذوق ومراعاة الظروف بل وتعمدت إحداها أن تجرح عواطف السيدة الجليلة بالكلام عن نصيبها من متاع الدنيا وما هى فيه من سعة العيش وخرجت من هذا كله بأن أم المصريين ليست فى حاجة إلى معاش استثنائى يربط لها..

وفي إنجلترا وفرنسا بل ومعظم أمم العالم تقرر الحكومات والبرلمانات معاشات استثنائية أو هبات مالية طائلة للذين أدوا خدمات عظيمة لأمتهم.. ولعل القراء يذكرون نبأ المائة ألف جنيه التى أهديت للمارشال «اللنبى» عقب انتصار إنجلترا فى الحرب العظمى وكذلك الهبات المالية الكبيرة التى منحت لورثة القواد الذين توفوا أثناء الحرب بعد أن أبلوا فيها بلاء حسناً. ولم ينظر فى تقدير وتقرير هذه الهبات المالية والمعاشات الاستثنائية إلى سعة رزق أو ضيق ذات يد الذين منحت لهم، وإنما نظر قبل كل شىء إلى خدماتهم وإلى ضرورة اعتراف أمتهم بجميلهم عليها..»

وفى النهاية كتب التابعى يناشد «صفية زغلول» قائلاً:

«أم المصريين تقبل هذا المعاش من أجل مصر، ومن أجل بيت الأمة، من أجل الأمة فقط تقبل صفية زغلول هذا المعاش وفى سبيل الأمة تنفقه».

وإذا كان هذا المقال الذى كتبه «محمد التابعى» لم يغضب «أم المصريين» ولم تشك لأحد مما جاء فيه، فإن التابعى أيضاً كان سبباً لبكاء «صفية زغلول» فى مقال آخر نشره أيضاً فى روز اليوسف!!

لم يكتب التابعى اسمه على المقال، ولذلك كان غضب وحزن «صفية زغلول» من روزاليوسف - المجلة والسيدة - لا حدود له..

يقول «محمد التابعى» عن هذا المقال:

«توفى سعد باشا زغلول فى يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧ وكنت يومئذ موظفاً بقلم الترجمة بمجلس النواب، وبعد أسبوع من وفاته رحمه الله طلبت السيدة قرينته من المرحوم «فؤاد بك كمال» سكرتير عام مجلس النواب وكان متزوجاً من ابنة شقيقتها.. طلبت منه أن ينتدب اثنين من موظفى المجلس لتنظيم وترتيب غرفة مكتب المرحوم زوجها لأنه تركها فى حالة فوضى.

ووقع اختيار «فؤاد بك كمال» على اثنين من زملائه فى قلم الترجمة وهما «فريد قرعونى» و«إسماعيل رمزى»، وغاب الاثنان نحو أسبوع أنجزا فيه مهمة ترتيب وتنظيم مكتب سعد باشا وعادا إلى عملهما فى مجلس النواب وكان الاثنان يعملان معى فى غرفة واحدة.

وبدأ الاثنان يتحدثان أمامى عما وجداه فى مكتب زعيم الوفد الراحل، ومنه مذكراته المكتوبة بخطه فى بضعة كشاكيل، وأرهفت أذنى لتسمع.. ولما انتهيا من حديثهما أسرعت إلى دورة المياه ومعى دفتر صغير وقلم رصاص ودونت فيه كل ما سمعته وكان كثيراً..

وفى اليوم الثانى استدرجتهما فى الحديث مرة أخرى عن المذكرات.. واستوضحت بعض النقاط، وكنت يومئذ أحرر مجلة روزاليوسف.. وكان كل واحد فى مجلس النواب يعرف أننى رئيس التحرير الفعلى للمجلة المذكورة رغم أننى لم أكن أوقع مقالاتى، كما أن اسمى لم يكن منشوراً فى المجلة..

وصدر عدد روزاليوسف وفيه ٤ صفحات كاملة عن مذكرات «سعد باشا»، وكان ثمن النسخة من مجلة روزاليوسف قرشاً واحدا ولكنه بيع يومئذ بعشرة قروش!!

وفى صباح اليوم التالى استدعانى «فؤاد بك كمال» إلى مكتبه ودعانى للجلوس - وهو مالم يكن يحدث قبل ذلك - وقدم لى سيجارة وطلب لى واحد قهوة ثم قال:

- أنا لا أطلب منك أن تكذب ما نشر فى مجلة روزاليوسف لأنه صحيح.. بل إن بعض العبارات تكاد تطابق كلمة بكلمة وحرفاً بحرف ما جاء فى مذكرات سعد باشا، ولكنك لو رأيت أمس «صفية هانم» لأدركتك الشفقة عليها، لقد كانت تبكى وتقول إنها خانت أمانة زوجها الذى لم يكن يريد أن تنشر مذكراته أو أى جزء منها فى هذه الأيام. والآن كل ما أرجوه منك هو أن تكف عن نشر أى شىء من هذه المذكرات.. فهل تعدنى بذلك؟!

ووعدته طبعاً لأنه لم يكن قد تبقى عندى أى شىء من هذه المذكرات، ذلك أننى كنت نشرت كل ما سمعته»..

وإلى الفصل القادم..



زينب هانم الوكيل

١٩

زعيم الأمة يبحث عن زوجة !

- □ خطابات «النحاس» الغرامية للصحفية السويسرية !
- □ رجال الوفد يعترضون على زواج «النحاس» من مطلقة !
- □ سر فشل خطوبة «النحاس» الأولى !

«مكرم عبيد» وراء زواج النحاس من زينب الوكيل !



بعد وفاة سعد زغلول واختيار مصطفى النحاس خليفة له فى زعامة الوفد وقيادة الأمة، وقعت أكبر ورطة وأزمة ومشكلة لم تخطر ببال أحد!!

لم تكن ورطة سياسية، ولم تكن أزمة دستورية، ولم تكن مشكلة حزبية!

كانت الورطة والأزمة والمشكلة ببساطة أن زعيم الحزب غير متزوج حتى هذه اللحظة!!

فى ذلك الزمن لم يكن من اللائق أو المقبول أن يكون رجال الحكم والسياسة وقادة الأحزاب بلا شريكة حياة!!

كانت «العزوبية» هى إحدى الثغرات التى ينفذ منها الخصوم وتنهال سهامهم على الزعيم الأعزب أو السياسى الأعزب!!

وعندما أصبح الأمير أحمد فؤاد سلطاناً على مصر كان مطلقاً، وكانت سمعته فى كل مصر أنه زئر نساء، ولذلك ذهب إلى زوجة المستشار البريطانى لوزير الداخلية يرجوها ويلح عليها أن تبحث له عن عروس فوراً حيث إن بقاءه بغير زواج يهدد سمعته!! وهكذا تزوج أحمد فؤاد من «نازلى»!!

لكن «مصطفى النحاس» كانت سمعته فوق مستوى الشبهات، وكان رجلاً مستقيماً، نزيها، يصلى ويصوم، لم تقترب منه أى شائعة أخلاقية.

وهكذا أصبح زواج «النحاس» قضية مصر كلها!

بعد فترة قصيرة من انتخاب مصطفى النحاس باشا زعيماً للوفد، قرر السفر فى جولة إلى الوجه القبلى..

وكانت تزور مصر وقتها «صحفية نمساوية» اسمها فيرا وطلبت أن تصحب النحاس باشا فى جولته وتغطيها صحفياً، ورحب النحاس بطلب الصحفية!

وأثناء الرحلة - التى طالت لبضعة أسابيع - توطدت الصداقة بين رئيس الوفد والصحفية النمساوية الحسناء!!

وانتهت الجولة إلى الوجه القبلى، وعاد النحاس إلى القاهرة، وعادت «فيرا» إلى النمسا بعد أن كتبت بالفعل عدة موضوعات صحفية نشرتها فى وقتها!!

وبعد فترة قصيرة تولى النحاس باشا رئاسة الوزارة، وبالصدفة علم «محمود فهمى النقراشى باشا» من كبار رجال الوفد بأن النحاس باشا وفيرا تبادلا بعض الخطابات الغرامية بعد انتهاء الرحلة، والأخطر أن هناك مفاوضات سرية تدور فى كتمان شديد بين القصر الملكى وهذه الصحفية لكى تبيع هذه الخطابات الساخنة التى كتبها النحاس باشا ليتم نشرها وهدم سمعة زعيم الوفد الجديد!!

وعندما فاتح النقراشى باشا، النحاس باشا بهذا الموضوع اعترف النحاس له بأنه أنهى علاقته بهذه المرأة، وأنه لا يهمه أن تنشر هذه الخطابات فهى مسائل شخصية لا علاقة لها بالناس، وهو- أى النحاس - مسئول أمام الشعب عن دفاعه عن حقوق الشعب لا عن تصرفاته الشخصية!!

واجتمع كبار رجال الوفد «مكرم عبيد وأحمد ماهر والنقراشى» وقرروا أنه لابد من الحصول على هذه الخطابات بأى ثمن حتى لا تقع فى يد الملك فؤاد فيستغلها ضد رئيس الوفد. وتم تكليف النقراشى بمتابعة وإنهاء هذا الموضوع.

وهكذا تولى «النقراشى» المفاوضة مع الصحفية النمساوية «فيرا» وفوجىء بها تطلب ستة آلاف جنيه ثمناً لتسليم خطابات النحاس باشا، واقترح «مكرم عبيد» دفع المبلغ من المصاريف السرية، ورفض النحاس هذه الفكرة تماماً وقال إنه يفضل الفضيحة الغرامية على أن يمس مليماً واحداً من أموال الدولة فتصبح فضيحة سياسية!!

وحسب ما يقول «مصطفى أمين» فقد تقرر جمع ستة آلاف جنيه من أعضاء الوفد تسلمتها الآنسة «فيرا» بعد أن سلمت خطابات النحاس باشا الغرامية، ثم قام النقراشى باشا بإحراق هذه الخطابات بنفسه!!

لم تكن مشكلة عاطفية، بل كانت مشكلة عاصفة لا تهدد مستقبل خليفة «سعد زغلول» وحده بل تهدد حزب الوفد بأكمله!

كان كبار رجال الوفد ضد فكرة زواج «مصطفى النحاس» من سيدة مطلقة تعيش فى الإسكندرية كان يتولى الدفاع عنها فى قضية طلاقها من زوجها، وأحبته وأحبها وكان ذلك قبل أن يصبح النحاس زعيماً للوفد ورئيساً للوزراء!!

كان عمر هذه السيدة «٣١ سنة» طويلة القامة، جميلة التقاطيع، حسنة السمعة، ولا تخرج من بيتها إلا نادراً لزيارة أقاربها وأشقائها، وهى من أسرة محافظة متمسكة بالتقاليد والأخلاق..

وطلبت السيدة الطلاق من زوجها بسبب «سوء سمعته ومغامراته المتعددة مع راقصات وسيدات لسن فوق مستوى الشبهات».

ولم تكن كل هذه المعلومات والتحريات غائبة عن كبار رجال الوفد وأصدقاء مصطفى النحاس فى نفس الوقت..

كان الكل من رجال الوفد رافضاً تماماً لفكرة زواج زعيم الأمة من هذه السيدة التى كان قد خطبها بالفعل من شقيقها القاضى.

وكان رأى الجميع أن زواج الزعيم مسألة سياسية وليست مسألة شخصية!!

وكان النحاس يرد على معارضيه فى هذا الموضوع بقوله: أنا لا يهمنى رأى الناس فى مسألة زواجى فأنا الذى سيتزوج وليس الناس!! ولا أسمح لأحد أن يتدخل فى هذه المسألة أو يفاتحنى فيها بعد الآن!!

وهكذا كان النحاس مصراً على رأيه، وأعضاء الوفد مصرين على رأيهم، وقرر كبار رجال الوفد اللجوء إلى أم المصريين «صفية زغلول» فهى موضع احترام كل أعضاء الوفد وفى مقدمتهم النحاس باشا، يستشيرونها فى هذه المسألة!! ويلتمسون رأيها وحكمتها وحنكتها!!

كانت «صفية زغلول» تقيم فى عزبتها بمسجد وصيف، وفوجئت «صفية» بوصول وفد من كبار رجال الوفد يطلبون مقابلتها على وجه السرعة لأمر خطير جداً..

وبدأت «صفية زغلول» تستمتع لرجال الوفد، الذين راحوا يحكون لها عن خطوبة النحاس باشا من سيدة مطلقة، وكيف أن الملك فؤاد حصل على تقارير وصور فوتوغرافية تؤكد أنها سيئة السمعة، ثم إنهم لا يستطيعون مصارحة أو مفاتحة النحاس بهذه المعلومات وأنها وحدها بصفتها أم الجميع تستطيع أن تصارح النحاس بذلك كله.

بهتت السيدة صفية زغلول مما سمعته واستولى عليها دهشة واستغراب، وحسب ما يرويه الكاتب الراحل مصطفى أمين فقد قالت:

- إن لسانى لم ينطق طوال حياتى باتهام أى امرأة بأنها سيئة السمعة، كيف تريدون منى فى نهاية عمرى أن ألوث لسانى بهذا الاتهام؟! ثم إننى أم المصريين يعنى أم كل رجل وامرأة فى مصر.. كيف تطلبون منى أن أقول عن واحدة إنها سيئة السمعة؟

قالوا لها: ولكن سمعة الزعيم هى التى تهمنا؟!

قالت صفية زغلول: وسمعة كل امرأة فى مصر تهمنى كما تهمنى سمعة الزعيم!!

وطالت المناقشة وألح الحاضرون على صفية زغلول أن تتدخل وذكروها أن النحاس هو خليفة سعد، وأن أى شيء يمس خليفة سعد، يمس سعد زغلول نفسه!

وردت «صفية زغلول» على كلامهم السابق بقولها:

لقد كان سعد أباً للمصريين كلهم، ولا يرضيه فى قبره أن أتهم إحدى بناته فى شرفها وبأى حق تحاكمونها وتحكمون عليها غيابيا؟! هل سمعتم دفاعها؟! ما الذى يدريكم أنها ليست مظلومة؟! وما يدريكم أن الحكومة عرفت أن «النحاس باشا» يريد أن يتزوجها فلفقت لها هذه التهم، كيف تطالبون بالعدالة لأنفسكم وتأبونها على امرأة ضعيفة وأنتم تحكمون على شرفها بالإعدام؟!

وكان ردهم على أم المصريين هو: أن المسألة هى شرف الأمة!!

وقال «صفية زغلول» بهدوء شديد:

ـ إن شرف الأمة هو شرف كل رجل وامرأة فيها، وتلويث شرف امرأة بريئة يلوث شرف الأمة بأجمعها، إننى أتحدث معكم كأم، أم لكم وأم لجميع المصريين، ومهمة كل أم أن تحمى شرف كل أبنائها، لا أن تلوث هذا الشرف، ولا أن تأخذهم بالشبهات والإشاعات!!

وقال أحدهم كمن يسترضيها:

ـ لقد كنا نتمنى أن تختارى أنت بنفسك الفتاة الصالحة لتكون زوجة الزعيم!!

وبحسم شديد قالت «صفية زغلول»:

ـ إننى لا أوافق على مبدأ أن تختار الأم لأولادها زوجاتهم، أو تتدخل فى هذه الشئون وإلا انقلبت من أم إلى حماة!!

وعاد أحدهم يعارض «أم المصريين» قائلاً:

ـ كنا نتمنى أن يتزوج الزعيم من «أم مصريين صغيرة» من فتاة تصلح أن تكون «زوجة زعيم»!!

ودهشت أم المصريين من هذه الإجابة وقالت:

ـ أمهات المصريين وزوجات الزعماء لا يبعن فى الدكاكين كعرائس المولد!! والمصنع الذى يصنع زوجة الزعيم هو الزعيم نفسه!! وعندما تزوجنى «سعد» كنت صفراً، كنت لاشيء، كنت أشعر أنه القمة وأنا السفح.. وقد يدهشكم أن تعلموا أننى لم أمارس مهمة زوجة الزعيم فى وجوده أبداً، إننى كنت أجلس تحت قدميه كقطة صغيرة لا أتدخل فى شئونه، لأنه ليس من حق التلميذة أن تدير المدرسة..

ولمعت عينا «صفية زغلول» وكانت عيناها ـ حسب وصف مصطفى أمين ـ سوداوين واسعتين، واحتفظتا بالرغم من الزمن بجمالهما، وكانت ترتدى ثوباً أسود لم تخلعه من يوم وفاة زوجها يغطى قدميها ويصل إلى راحتيها، وكان فى عنقها عقد طويل من

اللؤلؤ، تلعب بحباته، وهى تتحدث. وكانت كلماتها تسيل طيبة ورقة وحناناً وراحت تقول:

ـ وعندما نفى الإنجليز زوجى مارست مهمة زوجة الزعيم دون أن يطلب منى ذلك، ودون أن يخطر بباله أننى أصلح لقيادة الثورة. وفى كل مرة يعود من منفاه، كنت أعود إلى مكانى الطبيعى تحت قدميه، أنسى أننى فى يوم من الأيام كنت أستقبل الوفود، وكنت أصدر المنشورات الثورية، وكنت أقود المعركة، وعندما مات سعد زغلول فعلت ما تفعله كل أم عندما يموت أبو أولادها، فتضطر إلى أن تكون أباً وأماً فى نفس الوقت!

وقال أحد كبار الرجال الوفديين لها:

ـ نحن نعتبرك زعيمة ثورتنا!!

وعلى الفور ردت عليه «صفية زغلول» قائلة:

ـ أنا لست زعيمة الثورة، ولا أحد زعمائها، أنا أعتبر نفسى ضميرها، أنا أتحرك كما يتحرك الضمير، وأرضى كما يرضى الضمير، وأؤنب كما يؤنب الضمير، ولكنى لست عقلاً ولا يداً.. أنتم عقولها وأنتم أيديها!!

وعاد أحدهم ليقول لها بسخرية:

ـ وهل يرضى ضمير الثورة أن ترتدى زوجة الزعيم بنطلوناً؟!

وبهتت «صفية زغلول» بالسؤال لكنها قالت فى هدوء:

ـ الزوجة لا ترتدى البنطلون إلا إذا خلع الزوج بنطلونه وأعطاه للمرأة!!

وعاد الرجل ليسألها:

ـ هل ارتديت أنت بنطلوناً فى يوم من الأيام؟!

ابتسمت صفية زغلول ولم تعتبر أن ما سمعته يدخل فى نطاق الوقاحة أو السخرية وردت على السؤال قائلة:

ـ زمانى يختلف عن زمانكم، ولا أستطيع أن أقيد بتقاليدى من يجيء بعدى بخمسين سنة، كل ما أقوله إن مبادىء الأخلاق لا تتغير أبداً، ولكن الأزياء تتغير دائماً!! أنا مثلاً لم أضع بودرة على وجهى فى يوم من الأيام، حتى عندما كنت عروساً فى ليلة زفافى، ولكننى أعتبر المرأة التى تضع البودرة فاسدة الأخلاق!

ورغم كل ذلك الحديث الطويل عاد أحدهم ليقول فى حرارة لأم المصريين:

ـ نحن فلاحون ولا يرضينا أن يتزوج زعيمنا من سيدة مطلقة! لا يرضينا أن يتزوج من سيدة التقطت لها صورة وهى فى بنطلون!! لا يرضينا أن يتزوج سيدة أثير حولها

كلام فى المحاكم، وكتبت عنها التقارير.. لا يهمنا هل هى خاطئة أو مظلومة. الذى يهمنا أننا لن نستطيع أن نرفع رؤوسنا فى بلادنا إذا تزوج رئيسنا مثل هذه السيدة، سنمشى ورؤوسنا منكسة إلى الأرض..

وحسمت «صفية زغلول» المناقشة التى طالت بقولها:

- ليست كل امرأة اتهمت ظلماً وعدواناً تحل عليها اللعنة وتعامل معاملة المنبوذات!!

وعاد أحدهم يسألها مستنكرا:

- وهل ترضين أن تجلس هذه السيدة في مقعد أم المصريين بعد وفاتك بعد عمر طويل؟!

ابتسمت «أم المصريين» وردت:

- إن لقب الأم، هو اللقب الوحيد الذى لا يورث!!

وعاد نفس صاحب السؤال ليقول:

- أخشى أن يقول التاريخ فى يوم من الأيام، هذا رجل رفعته أمه وأسقطته امرأة!!

وقالت «صفية زغلول» بعناد شديد:

- إن المرأة لا تسقط الرجل إلا إذا كان عنده استعداد للسقوط، ولكنى أخشى أن يقول التاريخ فى يوم من الأيام، هذه امرأة بريئة داسها رجال ظالمون بأقدامهم وهم يهتفون مطالبين بالعدالة للملايين.

ويؤكد مصطفى أمين فى شهادته قائلاً:

«ولم يقتنع الغاضبون الساخطون بوجهة نظر السيدة صفية.. إنها أمهم فعلاً وهم يحترمونها، ولكنها لم تعش فى الريف المصرى لتعرف مقدار تمسك الأسر القديمة بالتقاليد. إنها تجهل أن بعض الرجال الكبار لا يزالون إلى اليوم يلومون الزعيم سعد لأنه أيد سفور المرأة، وأنه طالب المرأة فى زمن الثورة برفع الحجاب.. إن بعض الأعيان انفصل عن الثورة لهذا السبب وحده.

وكان أعضاء الوفد يخافون منها كما يخاف الأولاد الصغار من أمهاتهم، ولهذا وضعوا فيها كل آمالهم، إنها وحدها التى تستطيع أن توقف هذا الزواج، وأدهشهم عنادها ورفضها أن تتدخل لتوقف الكارثة.»

وفشلت أم المصريين فى إقناع كبار رجال الوفد بأن المرأة التى أحبها النحاس باشا بريئة ولا تستحق كل هذا الهجوم عليها!!

□□

وكتب النحاس باشا يقول فى مذكراته:

كنت قد فكرت فى الزواج بعد أن كبر أولاد شقيقتى وتزوج بعض بناتها فحدثونى عن سيدة من أسرة الشيخ بالإسكندرية رأيتها فأعجبنى شكلها مبدئياً وانتويت أن ألتقى بها لنتحدث فى مسألة الزواج.

وفعلاً كلفت بعض الوسطاء فى أن يعدوا لنا لقاء لإنهاء هذا الموضوع، وبينما أستعد لمقابلة السيدة المذكورة جاء إلى من يخبرنى بألا أفعل لأن الحكومة تنصب لى كميناً وبثت جواسيسها وبوليسها لمراقبتى ومداهمتى وأنا مجتمع بالسيدة المذكورة فعجبت لهذا الإجرام وهذه التصرفات القذرة وأرجأت هذا الموضوع إلى فرصة أخرى.

زارنى الدكتور محمد فاضل رئيس لجنة الوفد بالرمل وزوجته السيدة إجلال وتحدثا معى بخصوص الزواج وقال لى الدكتور فاضل أن أعدل عن هذا الزواج نهائياً لأن السيدة المشار إليها تجلس على الشاطىء يحيط بها عدد كبير من السيدات والفتيات وتجاهر بأنها ستتزوج الزعيم وأنه هو الذى يلح عليها فى هذا الزواج وإن كانت غير راغبة فيه، فضلاً عن أن المعارضة والحكومة تريد أن تستخدمها لمعرفة أسرار الوفد!! ونقلها إليهم وأن زوجته «إجلال» قد سمعت عن هذه الحكايات من أقرب المتصلين بها ومن أفراد أسرة الشيخ نفسها..

وعند سماع هذه الأنباء تأكد لى أن تلك الزوج لا تصلح شريكة حياتى وحمدت الله الذى أدركنى فى أول الشوط.»

انتهى ماكتبه النحاس باشا!!

لكن بعد فترة وفى ذروة الخلاف السياسى بين الكاتب الكبير «عباس محمود العقاد» مع حزب الوفد، حدث تراشق بالمقالات على صفحات الجرائد والمجلات، وانتهى الأمر بأن تم فصل «العقاد» من حزب الوفد، وراح «مكرم عبيد» الرجل الثانى فى الوفد يهاجم العقاد، وبدوره راح العقاد يهاجم مكرم هجوماً لا حدود له، وتسللت إلى أسلحة الهجوم حكايات غريبة حول «النحاس» وقصة خطوبته، ويقول العقاد متسائلاً: «من أين جاء النحاس بالسبعمائة جنيه التى بذلها بين مهر وشبكة هدية لخطيبته الأولى قبل أن يحال بينه وبين الزواج منها لأسباب لا يعنينا بحثها فى هذا المقام؟! أى والله على هدايا الغرام ومهور الزواج وعرابين الوسطاء والشفعاء ينفقون ويعيرون العقاد على ثلاثين جنيهاً يأخذها حين تحاربه القوة فى رزقه ويلفظها حين يجد الكفاية من عمل صحفى يؤديه»

ومضى العقاد يقول:

منذ سنتين عرفت السيدة عايدة مكرم عبيد صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا إلى فتاة يخطبها الباشا للزواج، ثم فسخت الخطبة لأسباب، ولكنها لم تفسخ حتى

بذلت الهدايا ودفعت مقدمات المهور ونفح الوسطاء والشفعاء بالهبات من مال الجهاد ومن مال الوفد..»

□□

وباقى ما جرى فى كواليس بيت الأمة يرويه مصطفى أمين قائلاً: وشعر «مكرم عبيد» بأن النحاس يمضى أياماً تعسة وشقية، وقال إنه لم ير النحاس من قبل فى هذه الحالة المؤلمة حتى فى أشد الأزمات السياسية التى مرت به وإنه لهذا ألح عليه أن يتزوج ليبدأ حياة جديدة.

وتولت السيدة «شريفة هانم رياض» رئيسة لجنة السيدات الوفديات البحث عن عروس، واشتركت عضوات اللجنة فى عمليات الاستقصاء وتقدمت باسم سيدة ممتازة هى أرملة أحد كبار الموظفين، ومن أسرة عريقة، ومعروفة بقوة الخلق وفيها صفات الشجاعة والصمود وقوة الشخصية التى تشترط فى زوجة زعيم أمة..

ورفضها النحاس باشا لأنها أرملة، وهو يريد عروساً بكراً لم تتزوج بعد واعترض أيضاً لأن لها أربعة أولاد من زوجها الأول!

وكانت السيدة «إلزا مقار» إحدى قريبات مكرم عبيد تسكن إلى جوار أسرة عبدالواحد الوكيل وكان مكرم قد كلفها بالبحث عن عروس للزعيم! ورأت الآنسة زينب الوكيل إحدى بنات النائب الوفدى وأعجبت بجمالها، وسألت الأسرة هل تقبل أن تتزوج زينب من النحاس فرحبت الأسرة.

وطلبت إلزا مقار صورة فوتوغرافيه لزينب فأعطت الأسرة الصورة لها وحملت «إلزا مقار» الصورة إلى مكرم عبيد والسيدة عايدة زوجة مكرم عبيد مع معلومات عن الأسرة وحمل مكرم عبيد الصورة للنحاس الذى ماكاد يرى الصورة حتى فتن بصاحبتها وأعجب بجمالها!

وشجعه مكرم عبيد فقد أطرى جمالها الفتان وأشاد بشبابها وأثنى على أسرتها، وتحمس النحاس للزواج وخاصة أن الأسرة لم تشترط شروطاً مالية لا يستطيع أن يتحملها النحاس، فقد كان يعيش عيشة متواضعة على معاش قدره ألف وخمسمائه جنيه فى العام وكان يقيم فى بيت فى مصر الجديدة استأجره من شركة مصر الجديدة بإيجار شهرى قدرة ثمانية جنيهات فى الشهر!

ولم تطلب أسرة العروس الجديدة شبكة غالية ولا مهراً كبيراً، وطلب النحاس جهازاً مقبولاً، منه غرفة صالون فيها طقم أوبيسون، وكان ثمن الطقم لا يتجاوز مائتى جنيه ـ بأسعار ذلك الوقت ـ وأصبح النحاس سعيداً بعروسه الشابة الجميلة ونسى مأساته الماضية!!

وحسب شهادة «مصطفى أمين» فى مذكراته «من عشرة لعشرين» قوله: وفوجىء أعضاء الوفد بعد وقت قليل بالنحاس يقرر اعتزامه على فسخ الخطبة. وذعر زعماء الوفد لهذا القرار، فلم يمض على الخطبة سوى بضعة شهور، وقد نشرت أنباؤها فى الصحف بالعناوين الضخمة وانهالت برقيات التهانى من جميع أنحاء البلاد!!

وتصور أعضاء الوفد أن سبباً خطيراً أدى إلى هذا القرار المفاجىء، وإذا بالنحاس باشا يقول لهم إن أسرة العروس وعدت بشراء طقم أوبيسون ولم تقدم سوى نصف طقم أوبيسون!!

وتدخلت صفية زغلول وقالت إن البلد فى ضائقة مالية، وإنه لا يصح ولا يجوز فسخ خطبة زعيم الأمة من أجل نصف صالون أوبيسون!!

وقال النحاس إنه لم يطلب صالون أوبيسون ولا نصف صالون أوبيسون، وإن أسرة العروس هى التى عرضت أن يكون الجهاز مشتملاً على صالون أوبيسون كامل، وإنه لو قالت له الأسرة من أول الأمر إنها عاجزة عن شراء كرسى واحد، لرحب بالعروس وحدها بلا جهاز ولكنه رجل يحب الصدق ويرفض أن يعده أحد بشىء ولا يرتبط بالكلمة التى قالها، وإنه يتمسك بالمبدأ وليس بالكنبة والمقعدين!!

واتفق أعضاء الوفد على أن يشتروا هم الكنبة والمقعدين حتى لا يمضى النحاس فى قراره بفسخ الخطبة، وكان مكرم عبيد أكثر أعضاء الوفد حماساً لهذا الزواج، فهو الذى اكتشف العروس وهو الذى خطبها وهو الذى مهد العقبات لإتمام الزواج وهو الذى أقنع النحاس بفكرة الزواج وهو الذى لعب الدور الأول فى منع زواجه من سيدة الإسكندرية..

وفى مذكرات السيدة «روزاليوسف» سطور تزيد الصورة وضوحاً فتقول:

إن مكرم عبيد لعب الدور الأول فى حياة النحاس والوفد، وتأثيره فيه لا يمكن أن تمحوه الأيام بل إن مكرم عبيد هو الذى زوّج مصطفى النحاس من السيدة قرينته!

وتضيف: «وكانت أم المصريين قد رشحت له قبل ذلك سيدة أخرى أقرب إليه سناً وأكثر تجربة - إذ سبق لها الزواج ولكن المشروع فشل، وقد تزوجت هذه السيدة فيما بعد أحد الزعماء الراحلين، وكانت له زوجة موفقة لا يعرف الناس عنها إلى الآن شيئاً حتى صورتها.»

وتضيف السيدة روزاليوسف قائلة:

كان النحاس يكره أن يتعرض الناس لحياته الشخصية. حدث بعد أن أعلنت خطوبته إلى السيدة زينب الوكيل أن نشرت روزاليوسف المجلة بعض تفاصيل شخصية

طريفة عن حياة النحاس.. وأنواع الأطعمة التي يفضلها، وحبه الخاص للبن الزبادى وما إلى ذلك، وإذا بالنحاس يحدثني في التليفون غاضباً في الصباح ويقول لي:

- يا ست هو أنا زى «أمينة البارودى» و«سهير رياض» علشان تنشروا عنى الأخبار دى؟!

يريد بذلك أنه ليس من زهرات المجتمع البارزات حتى تروى عنه هذه القصص.

ولم يستمر هذا الموقف طويلاً من ناحية النحاس باشا، وبعد فترة قصيرة حدثت قصة بسيطة في جوهرها وتفاصيلها، لكنها ذات دلالة بالغة وتدل على التغير الذى طرأ على شخصية النحاس باشا!

كتب النحاس يقول في مذكراته:

«كان اليوم ذكرى عيد ميلادى ولم أكن قد تعودت أن أحتفل بهذه المناسبة لأنها في نظرى لا تستحق العناية، ولكن الأسرة أصرت على أن تقيم حفلة عشاء تدعو إليها بعض الأخصاء ويغنى فيها المطرب محمد عبدالوهاب احتفالاً بشفائي وعارضت بأن ظروف الحرب لا تسمح بمثل هذه الأشياء، ولكنهم تكاثروا عليّ واستعانوا ببعض أعضاء الوفد والهيئة الوفدية وأبدوا جميعاً حماسة ورغبة ملحة في إقامة هذه الحفلة، فنزلت على إرادتهم والأمر لله..

كانت «حرمى» قد سهرت عليّ الليالى الطوال التي قضيتها كلها في المستشفى وكانت كلما تألمت أرى الهلع على محياها والألم على وجهها ثم تدارى وجهها عني وتبكى بكاء شديداً. أثرت هذه المظاهر في نفسى تأثيراً عميقاً وهزت قلبى هزاً شديداً فأخذت أفكر بيني وبين نفسي كيف أظهر لها تقديرى لهذا الشعور وتأثرى من هذه العواطف الجياشة فهدانى تفكيرى إلى أن أكتب لها على صفحات المصرى «الجريدة» رسالة شكر خاصة.

واستدعيت كامل البنا وعهدت إليه أن يحضر مسودة رسالة بهذه المعنى ولكنه قال إنه لم تجر العادة أن يشكر زوج زوجته مهما قدمت له لأن هذا واجبها الأول، ولكن إذا كنت مصراً على أن تخص السيدة حرمك بشيء فلنكتب نحن من قلم التحرير كلمة بإمضاء أو بغير إمضاء، ونصف فيها ما قامت به وما أسدته وما أظهرته أثناء مرضك، وراقت هذه الفكرة لديّ ووافقت عليها وكلفته أن يكتبها لكى تظهر غداً في المصرى.

ظهرت جريدة المصرى وفي صفحة رئيسية من صفحاتها مقال ضاف تحت عنوان «حنان» قرأته وأعدت قراءته فأعجبتني عباراته المنسجمة وكلماته المعبرة عما في صدرى تماما وقد سألت عن كاتب هذا المقال فقيل لي إنه عباس حافظ، «فاتصلت به تليفونياً وشكرته على المقال».

كانت «أم المصريين» تكره بشدة زواج المصريين من أجنبيات!!

كان مصطفى أمين لايزال طالباً فى الجامعة الأمريكية وكان منضماً لفريق التمثيل بها وعهد إليه المخرج فتوح نشاطى بالدور الأول فى مسرحية الذبائح التى اشتهر بها الفنان المسرحى الكبير يوسف وهبى..

كانت أحداث المسرحية تدور حول مساوىء زواج المصرى من فتاة أجنبية، وكان مصطفى أمين قد أغلق عليه باب حجرته وأخذ يحفظ دوره فى المسرحية بصوت جهورى: وهو يصف سلوك الأجانب:

- دول بيكتبوا من الشمال لليمين.. واحنا بنكتب من اليمين للشمال!! دول لما بيخشوا كنايسهم بيقلعوا برانيطهم واحنا بتقلع جزمنا لما بنخش جوامعنا! ده شيء في الدم!!

وسمعته أم مصطفى وصفية زغلول وهو يصرخ بهذه الكلمات وفتحتا باب الغرفة بهدوء وفوجىء مصطفى بأم المصريين تقول له:

- أكتب إلى أخيك على هذا الكلام، وحذره من أن يتزوج إنجليزية!

ابتسم مصطفى أمين ولم يعلق بشىء على كلام «ستـه» أم المصريين لكنه كتب خطاباً إلى توأمه «على أمين» الذى كان يدرس فى لندن الهندسة بجامعة شيفلد قائلاً:

«حذار»!! إن السكسونيات خطر على الهيئة الاجتماعية المصرية. لدينا فى مصر فتيات أرقى من الإنجليزيات اللاتى عندكم. كنا اليوم فى بيت الأمة وحضر شاب مصرى وفتاة نمساوية وأمها، وقال الشاب لأم المصريين إنه تزوج فى النمسا من هذه الفتاة أثناء طلب العلم وعاد إلى مصر معها، ولكن والده وهو من أكبر أغنياء الاسكندرية رفض أن يعطيه مليماً واحداً، وهو الآن لا يجد قوت يومه!

وطلب من أم المصريين أن ترجو «النقراشى» بك أن يرجو الوالد المليونير أن يعطيه قوت يومه ولكن أم المصريين رفضت التدخل!! فحذار أيها الفتى حذار!».

وإلـ الـ ـ ـ القادم..

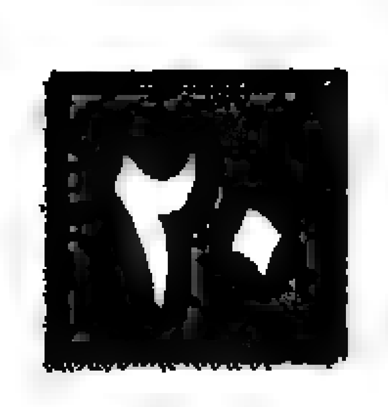


النحاس باشا وزينب الوكيل



ليلة القبض على «صفية» !

- سر انقلاب رفاق «سعد» على أم المصريين !
- «صفية» لوكيل الحكمدار الإنجليزى : أموت فداء لمصر !
- توبيخ «على أمين» لاشتغال «مصطفى» بالصحافة !
- الملكة «نازلى» لـ«صفية» : مقالات «مصطفى» بتضحكنى خالص !



كان على رأس من لم تسترح لهم «صفية زغلول» كل من «محمد محمود باشا» وإسماعيل صدقى باشا.. كان كلاهما من أقرب المقربين إلى الزعيم سعد زغلول قبل ثورة ١٩١٩ وبعدها بقليل ثم تحولا عنه إلى خصومة عنيفة وعداوة شديدة!!

وبعد وفاة سعد زغلول تناهى إلى مسامع أم المصريين أن «محمد محمود باشا» كان يقول أنا أستطيع فى خلال ثلاث سنوات قابلة للتجديد أن أشفى الشعب من حمى سعد زغلول التى رفعت درجة حرارة الشعب فجعلته يهذى بحياة الدستور وحكم الشعب!!

صحيح أن «مصطفى النحاس باشا» كان قد أصبح رئيساً للوزراء ابتداء من مارس ١٩٢٨ وكان «محمد محمود باشا» أحد الوزراء فيها لكنه راح فى الخفاء يحيك ويدبر المؤامرات حتى تسقط حكومة النحاس، وحسب ما قاله المندوب السامى البريطانى بعد ذلك «محمد محمود» لم يعد يتردد الآن فى التآمر ضد رئيسه النحاس الذى عامله بقدر كبير من الاحترام.

وعاشت «صفية زغلول» تجربة الاضطهاد والمعاناة من خصوم زوجها الزعيم!!

لم يكن قد مضى على وصول «أم المصريين» إلى باريس للاستشفاء سوى عدة أسابيع حتى علمت بإقالة الملك فؤاد «لوزارة» مصطفى النحاس باشا، وتولى «محمد محمود باشا» رئاسة الوزارة فى يونيو ١٩٢٨.

قررت «أم المصريين» قطع رحلة استشفائها والعودة فوراً إلى مصر، وكان أعضاء الوفد قد رتبوا وأعدوا لها استقبالاً شعبياً كبيراً عند وصولها إلى ميناء الإسكندرية.

وفى اليوم المحدد لوصول «أم المصريين» إلى ميناء الإسكندرية، استقلت جموع الناس القوارب والمراكب والزوارق لتخرج إلى عرض البحر لتكون فى استقبالها.

وفوجئت هذه الجماهير بلنشات السواحل تمنعها من الاقتراب من السفينة التى تقل «أم المصريين» بل كان هناك تهديد واضح وصريح بأنها ستطلق النار فوراً على كل من يقترب من سفينة أم المصريين!

وحدث فى ذلك الوقت أن وصل «لنش» يحمل «حسين صبرى باشا» محافظ الإسكندرية وعدد من كبار الضباط الإنجليز وصعدوا فوراً إلى سطح السفينة، وتقدم

«حسين صبرى باشا» ناحية السيدة «صفية زغلول» وقال لها إن المدينة بأكملها فى حالة غليان وهياج وثورة ولابد أن تنزل معهم فى هدوء وبدون ضجة!!

وقالت «أم المصريين» لمحافظ الإسكندرية ومن معه:

- ولماذا لا تقول إنكم جئتم لتلقون القبض على أم المصريين!!

بهت المحافظ وارتبك وقال لها:

- نحن جئنا لنحرسك يا سيدتى:

وردت صفية زغلول عليه قائلة:

- لن أنزل معكم.. والشعب وحده هو الذى يحرسنى!!

ولم ينطق المحافظ أو يعلق بكلمة واحدة، وهنا تدخل وكيل الحكمدار الإنجليزى وكان اسمه «الأميرالاى ريموندا» وقال لها ببروده الإنجليزى:

- آسف يا مدام!! إن لدينا تعليمات وأوامر باستعمال القوة إذا رفضت النزول معنا!!

وفوجىء الجميع بصفية زغلول وهى تتحول إلى كتلة من الغضب والثورة وهى تصرخ فى وجوههم.

- أنا أموت فداء لمصر!!

وفوجئت «صفية زغلول» بالضباط الإنجليز يدفعونها أمامهم فى قسوة وعنف لا تتناسب مع مكانتها أو سنوات عمرها الكبير وصاحت تهتف وتصرخ:

- اشهدوا يا عالم!! اشهد يا وطنى.. السلطة الغاشمة تمنع أولادى من استقبالى.. الأقوياء لا يخافون الشعب.. الجبناء فقط هم وحدهم الذين يرفضون أن يواجهوا الشعب!!

وبينما كانت «أم المصريين» تواصل هتافها وصراخها وكان بالعربية والفرنسية، فجأة هجم المحافظ «حسين صبرى باشا» والضباط الإنجليز على «أم المصريين» وخطفوها من فوق ظهر السفينة ووضعوها داخل «لنش» المحافظ واتجهوا بها خارج الميناء بعيدا عن ألوف الناس التى جاءت لتكون فى استقبالها، وكان على رأس هؤلاء النحاس باشا وكبار رجال الوفد!!

ثم سرعان ما تم وضع أم المصريين - بعد إنزالها من سيارة المحافظ - فى سيارة مسدلة الستائر، واتجهوا بها إلى محطة صغيرة بجوار الإسكندرية اسمها «محطة خورشيد»، وكان القطار القادم من الإسكندرية إلى القاهرة لابد وأن يمر بهذه المحطة الصغيرة لكنه لا يتوقف بها، لكن الأوامر الإنجليزية جعلت القطار يتوقف فى هذه

المحطة، ثم قاموا بحمل «صفية» إلى داخل القطار فى صالون مغلق النوافذ حتى وصلت إلى القاهرة.

وفى محطة سكة حديد مصر كانت الحكومة قد منعت النا . . التواجد فى المحطة، بل وأحاطتها بالجنود حتى لا يكون أحد فى استقبال «أم المصر . ‌. .. الركاب المتواجدين استعدادا للسفر هتفوا بحياتها وحياة «سعد زغلول»!!

وقام البوليس السرى «المخبرين» بالقبض على بعض الموجودين، وكان من بينهم الصبى الصغير «على أمين» (١٤ سنة)، وهرب شقيقه «مصطفى» وجرى إلى أمه «رتيبة» يروى لها تفاصيل ما جرى ولدهشته فوجيء بها تقول:

- إن «على» ليس أحسن من «أم المصريين» زوجة سعد، وإذا كانوا قد قبضوا عليها وخطفوها فيشرفنا جميعا أن يقبضوا على ابنى ويحبسوه!!

وكان من أغرب الأشياء وأعجبها هو ذلك الموقف لمحمد محمود باشا من «أم المصريين» وهو الذى كان صديقا حميما لسعد زغلول قبل الثورة، بل وصل الأمر بوالده «محمود سليمان باشا» انه كان يغار من علاقة ابنه بسعد باشا ويقول:

- يعنى لازم يشوف سعد قبل ما يشوف والده وزوجته وأولاده وإخوته!!

وكان سعد زغلول يطمئن لمحمد محمود باشا كثيرا فى سنواته الأخيرة، لكن الزمن كان غير الزمن، وهكذا أصبح «محمد محمود باشا» من حزب أعداء الدستور والحريات!!

ومن أغرب الأشياء فى ذلك الوقت هو وفاة والدة النحاس باشا، وانهالت برقيات العزاء عليه من كل المصريين، وكان الوحيد الذى لم يرسل ببرقية عزاء للنحاس هو رئيس الوزراء محمد محمود باشا نفسه!!

وبسرعان ما يستقيل رئيس الوزراء فى ٢ أكتوبر ١٩٢٩.

..ان «الوفد» فى المعارضة!!

.ى ذلك الوقت كانت مصر كلها تعارض حكم إسماعيل صدقى باشا «رئيس الوزراء»، الذى كان أول ما قام به هو إلغاء دستور ٢٣ الذى ينص على أن الأمة مصدر السلطات، وأصدر دستورا جديدا هو دستور ١٩٣٠.

وكان إسماعيل صدقى باشا يكره كل ما يمت بصلة إلى الزعيم «سعد زغلول» والوفد وثورة ١٩١٩.

وفى أبريل سنة ١٩٣٢ انضمت نساء مصر إلى الرجال وقمن بمظاهرات غاضبة تهتف بسقوط إسماعيل صدقى ودستوره وديكتاتوريته، حاولت الشرطة ورجال البوليس

منع النساء من التظاهر، لكن النساء اقتحمن صفوف هؤلاء الجند ولم يأبهن للسلاح المدجج!

وقرر «صدقى باشا» فى سابقة غريبة لم تحدث بالقبض على هؤلاء السيدات ووضعهن فى أقسام البوليس المخصصة للنشالات والعاهرات رغبة فى الحط من مكانتهن الاجتماعية أمام أزواجهن وأسرهن!!

وعلمت أم المصريين بهذا الأمر، وفى الحال ذهبت على الفور إلى قسم بوليس السيدة زينب، وأصرت على البقاء مع المتظاهرات تضامنا وتأييدا لهن!

وسرى نبأ وجود أم المصريين إلى أفراد الشعب فى المنطقة، والمناطق المجاورة، وما هى إلا دقائق حتى تجمعت الألوف من الرجال والنساء تحيط بقسم البوليس تريد اقتحامه!

وخشى رجال الأمن أن يتطور الموقف وينفجر وأخيرا قرروا الإفراج عن النساء وفى مقدمتهن صفية زغلول «أم المصريين»!

وكان الإفراج عن صفية زغلول هو حديث كل بيت مصرى!!

وبعد عدة أسابيع وكانت المناسبة هى «عيد الأضحى المبارك» عندما ذهبت «أم المصريين» إلى قبر زوجها سعد زغلول تقرأ الفاتحة ثم ناشدت كل المصريين أن يستمروا فى جهادهم ضد الإنجليز وضد حكم صدقى باشا ثم قالت:

- لا تظنوا أننى امرأة ضعيفة لا قبل لى بالنضال، إننى وهبت روحى ومالى، كما وهبت زوجى نفسه من قبل فى سبيل نضال الإنجليز.. واستخلاص حرية الوطن من أعداء الوطن.

ولم تمض أيام قليلة على نداء «صفية زغلول» حتى اجتمع طلاب جامعة القاهرة من كليات الحقوق والآداب والطب والهندسة، وكان ذلك فى ٢٨ أبريل، وهتفوا بسقوط كل ما هو إنجليزى وعميل للإنجليز!!

واعتقدت الحكومة أن هذه المنشورات تعد وتطبع فى بيت الأمة، وهو نفس ما كان يحدث أثناء ثورة ١٩١٩ بالضبط، وكان «إسماعيل صدقى باشا» شاهدا على ذلك وقتها، وهكذا أمر «صدقى باشا» رجال البوليس بمحاصرة «بيت الأمة» ومهاجمته وتفتيشه تفتيشا دقيقا للعثور على هذه المنشورات!!

وفى ساعة متأخرة من الليل داهم المحققون ورجال البوليس بيت الأمة الذى كان بابه الحديدى الضخم مغلقا، وقرر المحققون والبوليس إحضار عدة سلالم ليصعدوا عليها ويفاجئوا أهل البيت قبل أن يحسوا بهم ويخفوا المنشورات!!

كانت هذه الحملة بقيادة اللواء «رسل باشا» حكمدار القاهرة الإنجليزى نفسه، وطالت عملية التفتيش لعدة ساعات.. وطلع النهار عليهم ولم يجدوا منشورا واحدا.

وبعث «رسل باشا» إلى «أم المصريين» يطلب منها مفتاح الباب الرئيسى لبيت الأمة حتى يتمكن المحققون والجنود من الخروج. ورفضت «أم المصريين» تسليمه المفتاح!!

وقال «رسل باشا» لأم المصريين وقد فوجىء بموقفها:

- نحن الان بالنهار، والموظفون يمرون من هنا للذهاب إلى مكاتبهم فى الوزارات، ولا يصح أن يروا المحققين والضباط وهم يقفزون من السور كاللصوص.

وردت عليه «صفية زغلول» بسخرية قائلة:

- من جاء من الحيطان فليذهب من الحيطان، أما الباب فإنما يفتح لمن يأتون البيوت من الأبواب!!

وحسب ما يقول «مصطفى أمين» فقد اضطر المحققون والضباط ورجال البوليس أن يصعدوا على السلم الخشبى متعثرين، وتجمع الناس بأعداد غفيرة يضحكون على هذا المنظر الغريب من نوعه: رجال الحكومة والبوليس وهى تغادر بيت الأمة كما اللصوص.

وأرسل «صدقى باشا» إنذارا إلى أم المصريين جاء فيه أن منزلها يؤمه دوما خليط من الأشخاص الذين لا تربطهم بحياتها المنزلية أية علاقة، ويقيمون فيه من المظاهرات ما يتنافى مع ما تتميز به المنازل الخاصة، ويدخله فى عداد المنتديات العامة. وطالبها «صدقى» بأن يكون منزلا قاصرا على استعماله كسكن وإلا فإنه سينفذ اللوائح المعمول بها فى هذا الشأن.

وكان رد «أم المصريين» على هذا الإنذار أنها رفضته تماما!! وأشادت صحيفة «الجهاد» التى نشرت رد أم المصريين به ونددت بإجراءات الحكومة ضد الحريات!

وقرر إسماعيل صدقى باشا الانتقام من «سعد زغلول» وهو فى قبره!!

أرسل «صدقى باشا» خطابا إلى أم المصريين يقول فيه إنه خصص ضريح سعد ليدفن فيه فراعنة!! ورفضت «صفية زغلول» هذا الاقتراح الغريب وكتبت لصدقى باشا خطابا عنيف اللهجة تقول له فيه:

إن ضريح سعد أنشىء ليدفن فيه سعد، ولتدفن هى بجانبه بعد أن تموت، وهى ترفض أن يتحول هذا الضريح إلى متحف توضع فيه الفراعنة!!

كما نشرت الصحف الوفدية هجوم «أم المصريين» على صدقى باشا وقولها له:

- كنت أحسب أن الخصومة السياسية بالغة ما بلغت مرارتها لا تتعدى محاربة الرجل للرجل فى حياته ولا تصل إلى حد حرمانه من مرقده الذى خصص له فى مماته.

□□

لم تكن السياسة وحدها هى سر الخصومة بين «صدقى باشا» و«أم المصريين» كان هناك سبب اخر أخطر وأهم وتعود تفاصيله إلى ما قبل سنة ١٩١٩ وأثناء الثورة!!

كان «سعد زغلول» يؤمن بعبقرية وكفاءة «صدقى باشا»، لكن حدث ذات يوم أن ضبط البوليس «صدقى باشا» فى عوامة مع ابنة أحد زملائه الوزراء، وانتحرت هذه السيدة المتزوجة فى اليوم التالى، وكانت فضيحة، وتم طرد «صدقى باشا» من الوزارة، واضطر إلى اعتزال الحياة العامة، وعندما هبت ثورة ١٩١٩ ألح أعضاء الوفد على سعد إلحاحا شديدا حتى يقبل تعيين إسماعيل صدقى عضوا فى الوفد!!

ورغم أن سعد كان لا يستطيع أن يفرق بين الرجل وأخلاقه وسلوكه فقد وافق على مضض، لكن صفية زغلول لم تبلع أبدا أو تغفر هذا الموقف لصدقى باشا!!

وكما لم يستطع «صدقى باشا» أن يتحدى «سعد زغلول» جيا فقد فشل فى أن يتحداه وهو ميت!!

وهكذا انتصرت «صفية» فى معركتها مع «صدقى» باشا فى نقل رفات زوجها!!

وسقطت وزارة صدقى ثم تلتها وزارات وجاءت وزارة النحاس للحكم!!

وفى ١٠ يونيو سنة ١٩٣٦ أصدر مجلس الوزراء فى نهاية إحدى جلساته هذا القرار:

«اعترافا بدين مصر نحو الزعيم الأكبر المغفور له «سعد زغلول باشا» وإكبارا لمآثره وتخليدا لذكراه، قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٣٦ نقل رفات المغفور له «سعد زغلول باشا» من مقرها الحاضر إلى الضريح الذى بنى من أجله بجوار مسكنه ببيت الأمة، والذى سوف يحمل اسمه، مع استصدار قانون بتخصيص هذا الضريح على وجه الدوام له ولزوجته من بعده دون غيرهما، على أن يعهد إلى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بالتماس إذن حضرة صاحبة العصمة حرم المغفور له «سعد زغلول باشا فى ذلك النقل».

وفى نفس هذه الجلسة وافق المجلس على استصدار قانون بنقل رفات المغفور له «سعد زغلول» إلى ضريح سعد باحتفال رسمى على نفقة الدولة يوم الجمعة ١٦ يوليو ١٩٣٦، واعتبار هذ الضريح مخصصا على وجه الدوام لدفن المغفور له وزوجه من بعده دون غيرهما.

وفى نفس الوقت كتب رئيس الوزراء رسالة الى صفية زغلول يعلمها بما جرى قائلا:

«حضرة صاحبة العصمة حرم المغفور له سعد زغلول باشا:

أتشرف بأن أبلغ عصمتك أن مجلس الوزراء اعترافا بدين مصر نحو الزعيم الأكبر المغفور له سعد زغلول باشا، وإكباراً لمآثره عليها وتخليدا لذكراه، قرر أن ينقل رفاته من مقرها الحاضر إلى الضريح الأكبر الذى بنى بجوار مسكنه ببيت الأمة والذى سوف يحمل اسمه.

ولما كان الضريح المذكور قد بنى لهذا الغرض وحده، وكان من أفضل الواجب أن يُتفق على ذلك بحيث لا يشارك «سعد» فيه أحد إلا زوجه وشريكته المخلصة فى حياته بعد عمر طويل إن شاء الله، فقد قرر مجلس الوزراء أن يستصدر قانونا يثبت هذا التخصيص.

وقد عهد إلى مجلس الوزراء بالتماس إذن عصمتك فى ذلك النقل، وإنه ليسعدنى أن يقع هذا القرار من عصمتك موقع الرضى، وأن تجدى فيه لذكرى الفقيد العظيم بعض الوفاء، ولنفسك بعض العزاء.

وأرجو أن تتفضلى بقبول عظيم احترامى وفائق إخلاصى وصادق تمنياتى.

رئيس مجلس الوزراء

مصطفى النحاس

تسلمت السيدة «أم المصريين» رسالة مصطفى النحاس وقرأتها ثم ردت عليها برسالة جرت كلماتها وسطورها على النحو التالى:

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا:

رئيس مجلس الوزراء

تشرفت بكتاب دولتكم الرقيق الذى تبلغنى به قرار مجلس الوزراء بنقل رفات زوجى المغفور له «سعد زغلول باشا» إلى الضريح الذى بنى من أجله، وقد كان لهذا القرار أبلغ الأثر فى نفسى فلدولتكم وللمجلس جميعا أوفر الشكر وأجزل الحمد.

على أننى نظرا للحوادث التى جرت فى هذا الشأن وشعورا بواجبى نحو فقيدى وفقيد البلاد، لا يسعنى أن آذن بهذا النقل إلا إذا كنت على يقين من أن ما تفضلتم بتقريره من تخصيص الضريح بزوجى وبى، يظل باقيا أبد الدهر فإن تكفل القانون بذلك فحبا وكرامة. وعندى أنه مهما تكن حرمة مثل هذا القانون فى ذاته فإنه يجب أن تصان وأن توطد بالإشارة فى صلبه إلى هذا الشرط الذى لا أرى بدا منه أو مندوحة عنه، فإن فعلتم فقد جعلتم تغيير القانون أو تعديله ممن يهم به نقضا للعهد، ونكثا بالوعد، وكفى بالله شهيدا.

وتفضلوا دولتكم بقبول فائق الاحترام.

«صفية زغلول»

وقد أرفق الكتابان المشار إليهما بالقانون رقم ١٩٥٣ لسنة ١٩٣٦ الذى صدر بنقل الرفات إلى الضريح، ونص فيه على أن يكون الضريح المذكور ومبانيه وحرمه وطبقا للرسم الموضوع لهما وطبقا للشرط المقرر فى الكتابين المرفقين بهذا القانون مخصصا على وجه الدوام لدفن المغفور له ولزوجه من بعده دون غيرهما.

ونقل رفات سعد إلى الضريح فى احتفال كبير يوم الجمعة ١٨ يونيو ١٩٣٦ وقرر مجلس الوزراء بهذه المناسبة إجراء تخفيض عام قدره ٥٠٪ من أجور تذاكر الذهاب والإياب بالسكك الحديدية من سائر محطات القطر المصرى إلى العاصمة فى مختلف الدرجات ابتداء من يوم الخميس ١٨ يونيو على أن تكون العودة لغاية يوم السبت ٢٠ منه.

واستصدر المجلس مرسوما فى ٥ يونيو ١٩٣٧ بتغيير اسم شارع «ناظر الجيش» بقسم السيدة زينب بمدينة القاهرة باسم شارع ضريح سعد.

ووافق المجلس على إنشاء وظيفة من الدرجة الخامسة فى ميزانية الديوان العام لوزارة المالية تحت عنوان «أمين ضريح سعد» يعين فيها «محمد مأمون الريدى أفندى» فى السلك الدائم مع منحه ماهية ٣٠ جنيها فى الشهر«!!!».

وفجأة شهد بيت الأمة كارثة لم تخطر ببال أحد!!

كان «مصطفى أمين» هو بطل الكارثة، فقد اكتشفت أسرته أنه يعمل بالصحافة!!

وقامت القيامة فى بيت الأمة وانتاب الغضب كل أفراد الأسرة، وكان مصطفى أمين وقتها خارج مصر.

ومن القاهرة كتب «على أمين» لشقيقه التوأم «مصطفى أمين» يقول له:

ـ ذهبت إلى الاسكندرية لاستقبال «ستى أم المصريين» لمناسبة وصولها من أوروبا، صعدت إلى الباخرة واستقبلتنى «ستى» فى الصالون الخاص. أجلستنى إلى جانبها وهنأتنى بنجاحى وحصولى على بكالوريوس الهندسة، وهات يا تهنئة أمام «النقراشى باشا» وهات يا قبلات!

وفجأة تبدل الجو، وإذا بأم المصريين تحدثنى عن مقالات الحشاشين. الكتابات الفكاهية التى تنشر بإمضاء «مصمص» و«السندباد البحرى» كيف يجوز لأحفاد «سعد زغلول» أن يكتبوا مقالات فكاهية مضحكة؟!

هذا فيه إهانة للأسرة ولتقاليدها!! كيف يجوز لأحفاد سعد زغلول أن يصبحوا بهلوانات ويضحكون الناس كأنهم نجيب الريحانى وشارلى شابلن وعلى الكسار!!

ونزل الهجوم على كالصاعقة!! لم أتصور أن تنقلب فى لحظة قبلات «أم المصريين» إلى صفعات.

وأنكرت أننى أكتب فى مجلة «آخر ساعة» وادعيت أنك أنت الوحيد الذى تكتب فى العائلة، وأنه لا علاقة لى بالصحافة!!

ولكن أم المصريين قالت إنها متأكدة وعارفة تماما إن على أمين هو الذى يوقع مقالات فكاهية فى آخر ساعة بإمضاء السندباد البحرى!!

وقالت أم المصريين إن الأسرة تشعر بخجل وعار لأن اثنين من أولادها يكتبان فى مجلات فكاهية، وإنه إذا كان يجب أن أكتب، فلأكتب فى الأدب والشعر وبس!!

وأردت أن أقول إن «برنارد شو» و«مارك توين» و«فولتير» من الرجال المحترمين، ومع ذلك كتبوا بأسلوب فيه سخرية، وأن ذلك لم يؤد إلى احتقارهم بين الناس.

ولكنى لم أستطع أن أفتح فمى وسط هذا الهجوم العنيف على الصحافة الأسبوعية الفكاهية الهزلية التى لا يصح أن يعمل فيها أولاد الناس الطيبين!!

بل إن أم المصريين استنكرت أن يعمل أى واحد منا فى الصحافة كلها، ونصرنى النقراشى باشا وقال إن «على» مالوش دعوة بالصحافة، وإنه إذا كان يجب أن يكتب فعليه ألا يكتب إلا فى الهندسة التى تخصص فيها!

ومضى «على أمين» يروى لشقيقه مصطفى فى نفس الخطاب باقى المصائب وكتب يقول له:

وبعد ذلك قذفت أم المصريين فى وجهى بقنبلة!

وهى المقالة التى كتبتها أنت لمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة «سعد زغلول» بعنوان «سعد على فراش الموت» قالت أم المصريين إن المقال مكتوب بأسلوب فكاهى، وفيه عبارات ساخرة تثير ضحك الناس، مع أن المفروض ألا يكتب عن «سعد زغلول» إلا بأسلوب كله وقار ودموع!!

ثم قالت «أم المصريين» ما يأتى بالحرف الواحد تقريبا:

«مصطفى أهان سعد بتلك المقالة!! إزاى يكتب ابن سعد عن سعد بهذا الأسلوب عندما قرأت مقالة مصطفى لم أنم الليل، وكنت سأكتب بيانا فى الصحف أعلن باسم [illegible] مصطفى [illegible] أن مصطفى لا هو ابنى [illegible] والدتك من شر الفضيحة».

ولم يساعدها النقراشى باشا فى اتهامها، إنه قرأ المقال ورأى أنه لا يسىء إلى «سعد زغلول» صحيح أنه ليس فيه دموع وبكاء ويا دهوتى كما يفعل الذين يكتبون

الرثاء فى هذه الأيام، إنه وصف للساعات الأخيرة لحياة «سعد زغلول» بأسلوب صحفى فيه الوقائع الحقيقية، تماما كما يكتب أندريه موروا عن «نابليون» أو كما يكتب «برنارد شو» عن قيصر فى ساعاته الأخيرة.

ولكن «النقراشى» كما قال لى بعد ذلك لم يجد من الحكمة أن يصدم أم المصريين فى ساعة ثورتها. وخاصة أنها ترى أن اشتغالنا بالصحافة عار أصاب الأسرة، وفضيحة ما بعدها فضيحة.

وكل ما فعله النقراشى باشا أنه أخذ يحامى عنى ويؤكد أننى ولله الحمد رجل عادل وأننى سأعمل مهندسا، وأنه لن يكون لى علاقة بالصحف والمجلات! ولم أدافع أنا عنك كما هى عادتى شعرت ألا فائدة من الحديث.

وقالت أم المصريين : اطلب من مصطفى ألا يكتب اسمى ولا اسم الباشا فى مقالاته الفكاهية وإن كان مصمما أن يخرج على الأسرة ويستمر فى الكتابة فى الصحف فليكتب كلام الحشاشين!

وقالت إنها تتألم عندما تسمع الناس يقولون إن مقالات مصطفى الفكاهية التى يوقعها بإمضاء «مصمص» ويرسلها من أمريكا تعجبهم، إن «أم المصريين» غاضبة لأن أحد أولادها أصبح على آخر الزمن «مضحكا» وقالت إنها ذهبت تقابل الملكة «نازلى»، وإذا بالملكة تقول لها إن مقالات مصطفى التى يكتبها من أمريكا ويصف فيها الحياة فى أمريكا بأسلوب ساخر تعجبها!!

وسكتت «أم المصريين»، واستمرت الملكة نازلى تقول:

- والله المقالات دى بتضحكنى خالص!!

فردت أم المصريين قائلة: يا أفندم المقالات دى بتسمنى وتسم أمه!

وسكتت الملكة وقد أحست أنها أغضبت أم المصريين عندما قالت إن قريبها «مصطفى أمين» يكتب مقالات فكاهية.

ولم تقتنع «الهانم» بكلام «الملكة نازلى»!

الفصل القادم

الهانم الأيام الأخيرة



الهانم ضد الوفد!

- خلاف غريب بين «صفية زغلول» و«النحاس»!
- فشل كل محاولات الصلح بين «صفية» ورجال الوفد!
- «صفية» تخرج عن صمتها وتهاجم «النحاس» باشا!
  «النحاس» يقاطع أم المصريين حتى وفاتها!



فى سنة ١٩٣١ قرر مصطفى النحاس فصل غالبية أعضاء حزب الوفد!!

ووقفت «صفية زغلول» فى صف «النحاس» باشا والأقلية فى مواجهة الأغلبية، وفى ذلك الوقت كان على أمين فى بريطانيا يدرس الهندسة بجامعة شيفلد، ومن هناك أرسل ببرقية غاضبة نشرتها جريدة البلاغ بحفاوة بالغة!

كانت البرقية تتهم النحاس بأنه طاغية ومستبد لأنه لا يخضع لرأى الأغلبية، كما أنه لا يجوز لحزب ديمقراطى - كالوفد - أن يقبل استبداد الأقلية ضد الأغلبية!

وعندما قرأت «صفية زغلول» برقية «على أمين» جن جنونها واعتبرت مافعله على أمين حفيد زوجها سعد زغلول قلة أدب وعملا عدائياً موجها ضدها بالدرجة الأولى، وأرسلت تطلب إليه أن ينفى صدور هذه البرقية عنه، لكنه رفض!! وعادت تطلب إليه أن يكتب برقية اعتذار للنحاس باشا لكنه رفض أيضاً!!

وكتب على أمين إلى أم المصريين رسالة طويلة قال فيها:

«تعلمت فى بيتك أن أقول ما أعتقد وأن أفعل ما أؤمن به، وإنى أعتقد وأؤمن بأن مافعله النحاس باشا بفصل أغلبية الأعضاء هو اعتداء على الشورى والديمقراطية. كيف نحارب إسماعيل صدقى (رئيس الوزارة) لأن أقلية تستبد بالأغلبية، ترتكب نفس جريمة إسماعيل صدقى فتستبد أقلية النحاس بالوفد؟!».

حتى ذلك الوقت كان إيمان «أم المصريين» بالنحاس باشا لا حدود له، ولم ينس لها أنها وقفت بجواره فى أعقد أزمة سياسية مر بها!!

ونشب أغرب خلاف سياسى بين «عباس العقاد» كاتب الوفد الأول وبين مكرم عبيد. وكان العقاد يكتب مقالات نارية وملتهبة على صفحات مجلة روز اليوسف يهاجم جريدة الجهاد التى تهاجمه بإيعاز من مكرم عبيد، وتدخلت أم المصريين محاولة أن تنهى هذا الخلاف فاستدعت إليها العقاد ورجته فى إيقاف الحملة على «الجهاد» وكما تعترف السيدة روز اليوسف:

وتوقفنا عن الحملة فعلاً، ونشرنا كلمة فى الصفحة الأولى من العدد ٢٠٠ نقول فيها إننا نسكت بناء على تدخل شخصية جليلة المقام!!

وعادت «الجهاد» للهجوم على روز اليوسف، وبادر العقاد بالهجوم على «مكرم عبيد» الذى ذهب للنحاس باشا يشكو إليه، وصمم النحاس على أن تفصل روز اليوسف من الوفد!!

وتقول السيدة روز اليوسف: وسمعت السيدة «أم المصريين» بقصة الأزمة فاستدعت إليها النقراشى واتصلت بمكرم وعرضت عليهما أن تتوسط للصلح بين الوفد وبينى ولكن النحاس رفض أية وساطة.. وصمم على رأيه تصميما مطلقاً!!.

وفشلت كل المحاولات!! وفى نفس الوقت كانت هناك بوادر صدام يلوح فى الأفق بين النحاس وعدد من رجال الوفد كان على رأسهم «النقراشى» باشا!!

وفى تلك الأيام كان الكاتب الصحفى الكبير محمد التابعى قريبا جداً من كافة أبطال الأزمة.. من النحاس ومكرم عبيد إلى النقراشى وأم المصريين.

وتكشف شهادة التابعى» عن جوانب مجهولة تماما، تضىء وتكشف بعض ما كان يجرى فى الخفاء، ولم تتسرب تفاصيل إلى الصحافة والناس عن خلاف النحاس والنقراشى وموقف صفية زغلول.

فى كتابه «من أسرار الساسة والسياسة» كتب محمد التابعى يقول:

ولقد كان لاختلاف النقراشى مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد نتيجة لم تخطر ببال أحد فى أول الأمر.

لقد توقعوا مثلا ـ وهذا ما حدث فعلاً ـ أن يغضب أحمد ماهر لغضب صديقه وزميله النقراشى وأن يقف إلى جانبه يؤيده ويدافع عنه وعن رأيه.. ولكن أحداً لم يتوقع أن تغضب السيدة الجليلة صفية زغلول كل هذا الغضب من أجل النقراشى إلى حد أن تهدد بإغلاق بيت الأمة أو بيت سعد فى وجه الوفد ومصطفى النحاس إذا استمر هذا الخلاف، وهو ماحدث فعلا بعد ذلك ببضعة شهور.

إن أحداً من أعضاء الوفد لم يكن يتوقع هذا الغضبة من جانب «أم المصريين» ولكنها غضبت ولم تخف انتقادها المر لمصطفى النحاس ومكرم عبيد وسياسة الاثنين التى توشك أن تمزق الوفد ـ تراث سعد ـ شيعا وأحزاباً.

وقيل يومئذ إن السيدة الجليلة ـ أم المصريين، لم تكن تنتظر سوى حادث ما ـ أى حادث لكى تعلن سخطها وغضبها على مصطفى النحاس ومكرم عبيد.. وأن حكاية النقراشى لم تكن السبب الحقيقى، وإن كانت السبب المباشر لغضب السيدة أم المصريين.

ثم يروى محمد التابعى أن الأستاذ مكرم عبيد قال فى حديث طويل إن السيدة الجليلة غاضبة من الوفد منذ زمن طويل وأنها كانت تتحين الفرصة التى تعلن فيها هذا الغضب! لقد ادخلوا فى روعها أنها «جان دارك» مصر!!

وعندما سأله التابعى مندهشاً: من هم الذين أدخلوا هذا فى روعها؟!

قال مكرم عبيد : بعض أقاربها وأنسبائها، لقد قالوا لها إننا أخطأنا فى حقها يوم سافرنا إلى لندن لإمضاء المعاهدة - معاهدة ١٩٣٦ - ولم نصحبها معنا لكى تشترك مع بقية زعماء مصر فى إمضاء المعاهدة بصفتها أرملة «سعد زغلول» .. ولقد عاتبتنا حضرتها على هذا كما لامنا بعض الناس أننا لم نطلب من مجلس الوصاية الإنعام عليها بالوشاح الأكبر من نيشان محمد على أسوة بالذين أنعم عليهم منا بالوشاح المذكور!!

وذات مرة استدعتنى إلى مقابلتها وقالت لى إنها لاحظت أننا لم نعد نستشيرها فى أمورنا وفى أمور البلد كما كنا نفعل من قبل، وإنها قد أصبحت فى نظرنا «كمية مهملة».

واستغفرت الله وأكدت لها أنها مازالت عندنا كما كانت موضع الاحترام والتقدير ولكن إذا كنا لم نعد نستشيرها كما كنا نفعل فذلك لأنه ليس هناك مانستشيرها فيه وقد كنا نسألها الرأى أيام كنا فى المعارضة، وكنا نعرض عليها بيانات الوفد ونداءات رئيس الوفد إلى الأمة وما أشبه!! أما اليوم ففى أى الأمور أستشيرها أنا مثلاً؟! هل أذهب إليها كوزير مالية وأستشيرها فى أمر الاعتماد المخصص لبناء دار جديدة لمحكمة مصر الشرعية؟! أو يذهب إليها زميلى وزير الخارجية ويستشيرها فى أمر فتح قنصلية جديدة لمصر فى مدينة ميلانو؟!

إذن فقد كانت السيدة الجليلة غاضبة ساخطة على الوفد ورئيسه وسكرتيره ولم تكن تنتظر سوى الفرصة الملائمة لإعلان هذا الغضب!!

وقد سنحت الفرصة وأعلنت أم المصريين غضبها وأنها تقف إلى جانب النقراشى، وكان النقراشى رحمه الله من أنسبائها وزوجاً لسيدة كريمة من بنات الأسرة.

وكان تعليق «محمد التابعى» بعد كل الذى سمعه هو قوله:

وهكذا كسب النحاس ومكرم خصما جديداً قوياً فى شخص زوج سعد وأم المصريين وكانت صفية هانم زغلول صديقة لنازلى ملكة مصر.. وكانت نازلى تحترم أم المصريين احتراماً شديداً، ولا عجب فقد كانت الآنسة «نازلى صبرى» تقبل يد صفية هانم زغلول قبل أن تصبح سلطانة مصر وزوج السلطان أحمد فؤاد.. وزارت أم المصريين القصر، واستقبلها فاروق وأمه نازلى بالتحية والإكرام.

ولم تخف السيدة الجليلة رأيها وخيبة أملها في مصطفى النحاس ومكرم عبيد وسياستهما التى توشك أن تمزق الوفد شيعاً وأحزاباً.

وأدرك فاروق إنه إذا وقع خلاف بينه وبين الوفد وحكومة الوفد فإن أرملة «سعد زغلول» أم المصريين سوف تقف إلى جانبه وتؤيده أمام الشعب الذى كان ولايزال يقدس ذكرى زوجها الراحل العظيم.

وتضيف د.لطيفة سالم : راح الملك فاروق يظهر التأييد العلنى للسعديين، فهو يرفع الستار عن تمثال سعد زغلول فى ٢٧ أغسطس ١٩٣٨ فى وقت كان النحاس متغيبا عن مصر، لما جرت التقاليد على عدم دعوة السيدات إلى الحفلات الرسمية، صدر الأمر الملكى بإقامة مقصورة خاصة بصفية زغلول مستقلة عن السرادق العام، ورغم عدم حضورها، إلا أنها نفت أن يكون ذلك نتيجة لموقف سياسى يستشف منه تضامنها مع الوفد، وذهبت إلى قصر المنتزه ورفعت آيات الإخلاص للملك.

□□

كتب مصطفى النحاس فى مذاكرته يقول:

«اجتمعت مع زملائى أعضاء الوفد ماعد النقراشى وماهر وشرحت لهم بالتفصيل المعلومات التى تجمعت لدى من عدة مصادر عن المؤامرة التى يعدها النقراشى وماهر لطعن الوفد وتمزيقه، فتحمسوا جميعا قائلين: ليفعل مايشاء، وإذا سولت له نفسه أن يخرج علينا فإن الزعامة لاتتعدد والبلد يثق بك خليفة لسعد ومن حولك مؤمنون مؤيدون فلا يضيرك أن يخرج واحد أو اثنان أو ثلاثة!!

«قابلت السيدتين حرم «اسماعيل حب الرمان» وحرم «حسن حمزة» وهما من اللجنة العامة للسيدات فى القاهرة وقد سألتانى عن الخلاف بيننا وبين النقراشى وماهر فقلت لهما: لا خلاف ولا شىء!! فقالتا إن «أم المصريين» أخبرتهما أن النقراشى غضبان من تصرفات النحاس باشا معه، وأنه شكا إليها أكثر من مرة وأبدى رغبته فى ترك الوفد لأنه أصبح لا يحتمل وأن أم المصريين طيبت خاطره ونصحته بالتريث وهى تقول إذا أغضبوا محمود (النقراشى) وهو بمنزلة ابنى وخرج من الوفد فلن أسمح لهم بالاجتماع فى مكتب سعد وسأغلق الباب واعتزل الناس.

إذن المسألة انكشفت والمؤامرة طبخت واستطاع النقراشى بحكم صلة النسب التى بينه وبين حرم سعد زغلول باشا أن يؤثر عليها وأن يجعلها تنساق فى تيار ضار..

قررت فى نفسى شيئا لم أطلع عليه أحد، وهو إنه إذا صح ما نقل من حديث أم المصريين وفعل النقراشى فعلته واستقال وفشلت المجهودات لإثنائه عن عمله، هنالك

سأعلن لأم المصريين قبل أن تعلن هى أننا سنترك لها البيت ولن نجتمع فى مكتب الزعيم «سعد» ولن ندخل البيت عليها إذا انحازت إلى جانب صهرها ضد أغلبية الأعضاء».

وبدأت أغرب حرب كلامية بين النقراشى باشا والنحاس باشا:

قال النقراشى باشا فى خطاب له بالإسكندرية: «لست أبغى وزارة ولا زعامة، وسأواصل خدمتى فى الحركة الوطنية تحت قبة البرلمان، وسأراقب أعمال الحكومة».

وجاء رد النحاس فى غاية الحدة، فقد كان يزور مديرية بنى سويف (فى صعيد مصر) عندما خطب فى رجال الوفد قائلاً:

«إنى لا أعبأ بأى إنسان يخرج علىّ إذ لا يهمنى أن ينفض الجميع من حولى ولو بقيت وحدى وسيظل الوفد قائماً، مادمت على رأسه سأعمل على بتر كل عضو فاسد من جسم الوفد حتى يبقى الجسم سليماً قوياً».

وكانت «أم المصريين» فى قمة الحزن والغضب لما يحدث بين أبناء «سعد زغلول»!

وحاولت صفية زغلول التخفيف من حدة الخلافات والانقسامات، وقررت دعوة الزعماء الأربعة إلى بيت الأمة فى محاولة منها للم الشمل والصلح أيضاً.

ووصل الزعماء النقراشى والنحاس وأحمد ماهر ومكرم عبيد، وأعلن «النقراشى باشا فى الاجتماع وعلى مرأى ومسمع من الجميع أنه لا توجد خلافات مطلقاً بينه وبين مكرم عبيد لأنه يعتبر مكرم أخاً وصديقاً ولكنه لا يستطيع أن يعمل مع مصطفى النحاس باشا!!

وردت صفية زغلول على كلام النقراشى بقولها:

- أرجو أن يعود الحال والصفاء بينكم إلى ما كان قبل تأليف الوزارة!

وقال «مصطفى النحاس» معلقاً على هذا الكلام

- لا يمكننى أن أعمل مع النقراشى باشا فى وزارة واحدة، ولكن العلاقة بينى وبين النقراشى ليست قائمة على الوزارة وحدها، وأنا أرحب بتعاونه معى داخل هيئة الوفد!!

واستبد الغضب بالنقراشى الذى صاح قائلاً:

- وأنا أرفض البقاء فى الوفد!!

كان كل يوم يمضى كانت أم المصريين تقترب أكثر من النقراشى باشا وتزداد ابتعاداً عن النحاس باشا!!

فلم يكن سراً أن النقراشى باشا كان قد تزوج بنت عم صفية زغلول عام ١٩٣٤، بل إن «أم المصريين» كان لها دخل فى هذا الزواج، فقد كانت تعلم كل صغيرة وكبيرة عنه

منذ أوفده سعد زغلول باشا عام ١٩٠٧ فى بعثة دراسية إلى جامعة نوتنجهام بإنجلترا، ومع ثورة ١٩١٩ احتل النقراشى عدداً من المراكز الإدارية والسياسية الهامة!

وقد رشحه «سعد باشا» لمنصب وكيل محافظ القاهرة عام ١٩٢٤ وقال سعد يومها فى حديث صحفى: «إنى مارقيت النقراشى لعلاقة شخصية بينى وبينه، وإنما رقيته لعلاقة بينه وبين الوطن، ولعلاقة بينه وبين أداء الواجب والإخلاص فى العمل فهو كفء رزين يؤدى الواجب ويخلص فى القيام به».

كانت زوجة النقراشى باشا ابنة على بك زكى شقيق مصطفى باشا فهمى والد صفية زغلول، وكان عمرها ٣٩ سنة يوم تزوجت النقراشى.

أنجب النقراشى ولداً وبنتاً أطلق على الولد اسم «هانى» أما البنت فقد أطلق عليها اسم صفية احتراماً وتقديراً وإعجاباً بـ صفية زغلول التى انحازت له بغير حدود!

وكتب مصطفى النحاس فى مذكراته يقول:

«عدت إلى بيت الأمة، وكان فى انتظارى بعض الزملاء من أعضاء الوفد وصعدنا إلى الطابق العلوى للسلام على أم المصريين وتقديم العزاء لها فى ذكرى سعد.

ولم نكد نجلس حتى بادرتنى بقولها:

«إننى متألمة جداً لخروج محمود النقراشى وأحمد ماهر من الوفد، ولقد فتحت لكم هذا البيت وتركت مكتب سعد تجتمعون فيه عندما كنتم كتلة واحدة، ويداً واحدة، أما وقد اختلفتم وانقسمتم فلا يسعنى إلا أن أغلق بابى علىّ وأمنع الاجتماعات فيه.

فأجبتها وأنا أضغط على أعصابى:

- أنت حرة فى ماتريدين!! ولقد خصصنا بيت الأمة لسكنك بعد سعد لأنك شريكة حياته، ولست أقول كما قال: عبداللطيف الصوفانى لسعد حين قال كيف تخاطبنى بلهجة عنيفة فى بيتى، ولكنى أقول لك إن البيت بيتك ولك أن تدخلى من تشائين أما عنى فلن أدخل هذا البيت بعد الآن، ولن يكون للوفد اجتماع فيه».

كان ما جرى بين مصطفى النحاس وأم المصريين فى بيت الأمة قد وصل إلى مسامع كل رجال ألوفد.. وكان الحزن والأسى والوجوم يظلل الجميع!!

كان واضحاً تماماً أن علاقة النحاس بأم المصريين قد انكسرت ولن تعود كما كانت أبداً ولم يكن غريباً أن يطلب الوزير الوفدى عثمان محرم باشا من مصطفى النحاس الإذن بأن يسمح له هو وزملائه بزيارة أم المصريين من وقت لآخر.

وحسب مذكرات النحاس «٢٤ أغسطس ١٩٣٧» فقد كانت إجابته:

- لكم هذا. ولست أمنع أحداً من أن يؤدى أمراً يريده وليس بينى وبين أم المصريين شيء إلا أنها كما سمعت وكما رأيت طلبت إلينا ألا نجتمع فى بيت الأمة وهذا كل ما فى الأمر، أما أنت وإخوانك من أعضاء الوفد والهيئة الوفدية فليذهبوا ليزوروها متى شاءوا فهى أولا وقبل كل شيء حرم سعد زغلول ولها احترامها ومنزلتها، ولا ينقص من قدرها انحيازها للنقراشى نظراً لعلاقة المصاهرة التى تربط بينهما.

ومضى «النحاس» باشا يقول مؤكداً للوزير الوفدى «عثمان محرم باشا»:

«وأؤكد لك أن هذه العلاقة من الأسباب التى جعلت النقراشى يتشجع ويخرج على الوفد ويطعن فى مبادئه وزعامته».

□□

فى يوم واحد فقدت «أم المصريين» شقيقتيها!!

فى يوم واحد ماتت شقيقتاها زكية هانم و«فهيمة هانم»!!

كان ذلك قبل منتصف شهر مايو ١٩٣٨، واحتفل بتشييع جنازتهما فى يوم واحد، وحسب وصف صحافة ذلك الوقت «كان منظر النعشين» أحدهما وراء الآخر من أفجع المناظر.

وأشارت الصحف وقتها إلى ذهاب الملكة «نازلى» والدة الملك فاروق إلى زيارة أم المصريين لتقديم واجب العزاء قائلة:

قصدت صاحبة الجلالة الملكة نازلى فى الساعة السابعة بعد ظهر أمس ١٤ مايو ١٩٣٨ إلى بيت الأمة لزيارة صاحبة العصمة السيدة الجليلة أم المصريين وتعزيتها فى وفاة شقيقتيها الكريمتين.

وقد استقبل جلالتها لدى الباب الخارجى صاحب المعالى «محمود فهمى النقراشى» وصاحب العزة طاهر اللوزى بك، والأستاذ محمد مأمون الريدى، وموظفو بيت الأمة.

وكانت صاحبة العصمة «أم المصريين» واقفة لدى الباب الداخلى للترحيب بمقدم جلالتها».

كان موت شقيقتيها بمثابة زلزال داهمها بقسوة!!

واعتكفت صفية وقل استقبالها للمعارف والأقارب!!

ولم تنجح كل المساعى والوساطات للتقريب بينها وبين «مصطفى النحاس» وزاد الخلاف واحتدم!!

وكانت قد مضت حوالى خمس سنوات كاملة على آخر لقاء جرى فى بيت الأمة بين السيدة «صفية زغلول» ومصطفى النحاس.

وفجأة طلب عدد من كبار الوفديين من «مصطفى النحاس» القيام بزيارة إلى قرية «إبيانة» بلدة سعد زغلول ووافق النحاس على الفكرة، وجاء من القاهرة «بهى الدين بركات» باشا ليكون فى استقبال النحاس وليسأله أيضاً عن سر الخلاف بين أم المصريين وبينه.

وحرص «مصطفى النحاس» على تسجيل ذلك كله فى مذكراته فكتب يقول:

«وصلت يوم ٢١ الجارى «أغسطس ١٩٤١» إلى إبيانة ولم أكد أصل إلى مشارفها حتى داخلنى شعور رهيب وإحساس غريب فقد رجعت بذاكرتى إلى الماضى أيام كان «سعد» قاضياً ومستشاراً ووزيراً.. و.. وقد حضر من القاهرة بعض أعضاء الوفد كما حضر «بهى الدين بركات» باشا وهو النجل الأكبر لفتح الله بركات باشا وهو رجل قانون كبير وعالم ضليع وفيه طابع الرزانة وعليه سيماء الوقار، مرتب الحديث هادىء النبرات قوى الحجة، استمعت إليه يحدثنى عن حياة جده سعد وأجداده من أسرتى «سعد زغلول» و«بركات».. فعرفت معلومات قيمة وتاريخاً مشوقاً.. وأثار بركات حديث ترك الوفد بيت الأمة والاجتماع فى النادى السعدى وسأل عن سر الخلاف بيننا وبين السيدة أم المصريين؟!

فقلت «أى النحاس» له إن هذه مسألة طويلة وقد مضى عليها أكثر من خمس سنين!!

فقال «بهى الدين بركات باشا»: أريد وتريد الأسرة أنْ تعرف سرها لأننا إلى الآن نتصور أن «أم المصريين» لم تمنع اجتماعات الوفد فى بيت الأمة ولا زيارة رئيس الوفد له؟!

فقلت «أى النحاس» أما وقد سمعتم هذا وتصورتموه فاسمع القصة بحذافيرها: «لما سافرنا إلى لندن فى عام ١٩٣٠ لمفاوضة هندرسون وزير خارجية بريطانيا فى عقد معاهدة مع مصر.. تركنا للنقراشى الأمر فيما يتعلق بشئون الوفد. واتفق مجلس الوزراء ألا يدون هذاالحديث حتى لا يعلم به أحد ولكن النقراشى - سامحه الله - قابل الملك فؤاد مقابلة لم تنشر وأخبره بهذه التفاصيل وأبرق «فؤاد» بدوره إلى هندرسون يخبره..

وراح النحاس باشا يروى حكايات ومواقف عديدة خاصة بـ النقراشى باشا ثم يضيف.

«وكان كلما اختلفنا فى رأى يذهب إلى أم المصريين ويشكونا إليها، وتكلمنى - أى أم المصريين - مدافعة عنه مخطئاً ومصيباً وعبثاً حاولت بكل الطرق أن أوجه نظرها إلى

أن السياسة شيء واحترامنا لك بصفة كونك شريكة سعد فى الحياة شيء آخر ولكن بلا جدوى.

وكان آخر مرة تحدثنا فيها أننا قصدنا بيت الأمة لاجتماع الوفد بعد خروج النقراشي منه وصعدنا إلى الدور العلوى لمقابلة أم المصريين فقالت لنا:

- فتحت بيت سعد لأبناء سعد وهم مجتمعون أما وقد اختلفوا وخرج النقراشي منهم فلن أسمح باجتماعكم فيه بعد اليوم.

وسكت - أى النحاس - ولم أتكلم، وكلمها بعض الأعضاء بأن النقراشي هو المتجنى وهو البادىء، وتجرأ مكرم «عبيد» وقال لها إننا نربأ بك أن تتحيزى لواحد من أجل صلة قرابة أو مصاهرة ونريد أن يكون أبناء سعد كلهم لديك سواء، فركبت - أم المصريين - رأسها وصممت على رأيها..

وأخيراً قال النحاس فى ختام روايته لأفراد أسرة فتح الله باشا بركات:

- وقلت - لأم المصريين - مادامت هذه رغبتك فلن نجتمع فى بيت الأمة ولن ندخله بعد اليوم!!

وخرجت وتبقى الأعضاء ومن هذاالتاريخ لم أرها ولم أقابلها!!

وينسب النحاس لعبدالمنعم بركات أنه قال: لقد سمعت أنها كانت تشهر بوالدى بعد وفاة سعد باشا، وعند انتخاب رئاسة الوفد!!

فقلت «أى النحاس» هذه مسألة عائلية بينكم لا أحب أن أخوض فيها.

وعلق عبدالله بركات «الابن الأكبر» فقال: «للنحاس»:

- أن تصرفكم لا غبار عليه وأن أم المصريين قد أصبحت فى زوايا النسيان بعد أن منعت الوفد من الاجتماع فى بيت الأمة لأنه ليس بيتها، وأنتم الذين جعلتموه ملكاً للدولة وقررتم أن تظل فيه إلى آخر حياتها ثم يؤول للحكومة!!

وقال النحاس: لقد فعلنا هذا إحياء لذكرى سعد وتكريماً لجهاده!

وبعد فترة يعود النحاس ليسجل فى مذكراته

«قابلت عثمان محرم باشا - وزير وفدى - وأخبرنى أنه كان فى زيارة السيدة أم المصريين وجاء ذكر الحرب وآثارها، والوفد وموقفه منها وقالت فى معرض الحديث إن النحاس باشا فهم كلامى عندما اختلف مع ماهر والنقراشي على غير مقصدى فلم أقصد أبداً أن أمنعهم من الاجتماع فى بيت الأمة ولكنى أحببت ألا يختلف أبناء سعد وأن يظلوا كما أوصاهم يداً واحدة، وأنى لا أزال أتمنى أن يعودوا إخواناً مجاهدين كما كانوا، وبيت الأمة مفتوح لهم دائماً. وأجابها - أى عثمان محرم - بأن صلحهم

الآن غير ممكن بعد أن ألفوا حزباً واشتركوا مع «محمد محمود باشا» رئيس الوزراء في تزوير الانتخابات وخضعوا لفاروق «الملك» وأصبحوا يؤيدونه ويشيدون به في كل مكان، وقالت «أم المصريين» إن الظروف الآن سيئة للغاية فهل إذا انتصر الألمان ودخلوا مصر ووجدوها ممزقة على أحزاب مختلفة ألا تكون مهمتهم أيسر واحتلالهم أمكن؟! فأجبتها: إن المسألة فات أوانها ولم تعد فائدة للكلام فيها بعد أن قطع كل فريق شوطاً كبيراً في عداء الفريق الفريق الآخر وشكرت لها تمنياتها.

□□

واحتلت «صفية» مكانة هامة في الدراسات الأكاديمية والجامعية!

يقول د. محمد صابر عرب في كتابه الهام «حادث ٤ فبراير والحياة السياسية المصرية».

«ولعل من أهم العوامل في تقوية الهيئة السعدية هو مناصرة السيدة «صفية زغلول» - حرم «سعد زغلول» لهذا الحزب وكراهيتها الشديدة للنحاس، ومما يستوقف النظر أنها رفضت أن تهنىء النحاس عقب توليه وزارة ٤ فبراير عندما ذهب ليتلقى تهنئة «أم المصريين» وقال النحاس هو يقبل يدها:

- جئنا لنتلقى من أم المصريين تهانينا!!

فقالت له: أنا أعزيكم ولا أهنئكم، ليس خليفة «سعد زغلول» هو الذي يتولى الحكم على أسنة الرماح البريطانية!!

فقال النحاس: نحن أنقذنا العرش، وأنقذنا الاستقلال!

فقالت: لن تثبت الأيام إلا أن خليفة سعد تولى الحكم على دبابات الإنجليز!!

ويبدو أن السيدة «صفية زغلول» كانت تناصر الدكتور أحمد ماهر على اعتبار أن الهيئة السعدية هي الرصيد الوطني الباقي من تراث «سعد زغلول» ولذا فقد فتحت أمامهم النادي السعدي وراحت تستقبل أعضاء الهيئة السعدية وتزودهم بنصائحها، وحدث في ذكرى «سعد» سنة ١٩٤٣ أن هاجم الشباب الوفديون، الشبان السعديين أثناء زيارتهم لبيت الأمة وراحوا يقولون في مواجهة الدكتور أحمد ماهر:

- النحاس - النحاس!!

فما كان من الدكتور ماهر إلا أن قال: إنجليزي.. إنجليزي!!

وردد السعديون هذا الهتاف فأرسلت الحكومة قوات البوليس واقتحموا بيت الأمة وضربوا الشبان السعديين أمام «أم المصريين»!

«ومن هنا كان إصرار أم المصريين على إعلان عدائها الصريح للنحاس وحكومته وذلك من خلال المواقف التالية:

* أولاً: أنها طلبت من الوفد أن يبحث عن مكان آخر غير بيت الأمة للاجتماع!!
* ثانياً: إنها ذهبت عقب ٤ فبراير إلى القصر الملكى واعتذرت باسم «سعد زغلول» عما فعله خليفة سعد وقالت لحسنين باشا «رئيس الديوان الملكى»:
- قل للملك إنه ليس من مبادىء «سعد» أن يتولى الوفد الحكم على الدبابات، وقد اختلف «سعد» كثيراً مع «الملك فؤاد» ولكنه لم يلجأ مرة واحدة للأجنبى وكان يقول:
- الملك هو رايتنا جميعاً!
وأضافت السيدة «صفية زغلول»: إننى منذ يوم ٤ فبراير لا أنام الليل، وإننى أعجب كيف ينام الرجال؟!
أما الوسائل التى أتبعها «النحاس» مع السيدة «صفية زغلول» فقد قاطع بيت الأمة ومنع جميع وزرائه من زيارتها وصدرت الأوامر إلى الرقابة بأن تحذف مقالات الثناء عليها أو مجرد ذكر اسمها!!
ويبدو أن النحاس قد حاول إعادة العلاقات مرة ثانية مع بيت الأمة، فقد حاول «عثمان محرم» أن يبذل الوساطة تمهيداً لعودة العلاقات إلا أن السيدة «صفية زغلول» أجابت بأنها لا تضع يدها فى يد النحاس وأنها تغفر له إساءته لشخصها أما إساءته لمصر ولملك مصر فهى لا تستطيع أن تنساه.
ويبدو أن السيدة «صفية زغلول» قد تأثرت كثيراً من أحاديث الدكتور «أحمد ماهر» - ضد «النحاس» فقد كان الأول كثير التردد عليها وكانت تصرح دائماً بأن الوفد وزعامته قد خرجا على خط «سعد زغلول» وأن الباقى من رصيده هو أحمد ماهر وهيئته السعدية.
وعلى الرغم من كل هذا فقد كانت «صفية زغلول» تعتبر النحاس ضحية للعديد من الشخصيات التى «زينت» له ما صنع فى ٤ فبراير وكانت تقول:
- «إننى حزينة على النحاس الذى عرفته قبل ١٩٤٢ ولا أستطيع أن أنسى أنه خدم مصر حتى ذلك الحين خدمات صادقة. أما النحاس بعد ذلك «فمنه لله» ولعل هذا يفسر لماذا لم يشترك النحاس فى تشييع جنازة «صفية زغلول».
وفى ذكرى رحيل «سعد زغلول» فوجئت الحياة الحزبية بمصر بتشكيل جماعة اسمها «السعديون الأحرار» كان الهدف منها هو دعوة الزعماء إلى الاتحاد، وذهبوا إلى أم المصريين وطلبوا منها التوسط بين الزعماء لكنها رفضت!!
وحسب ما نشرته مجلة «الاثنين» «عدد ٢٨ أغسطس ١٩٤٤» فإن أم المصريين قالت للسعديين: إذا كان الله قد كتب فى عالم الغيب لمصرنا العزيزة سوءاً، فالله يعجل بموتى قبل أن أرى هذا السوء..

وقالت أم المصريين أيضاً:

- إنى فخورة بالدكتور «أحمد ماهر» وزملائه وإخوانه، وإن أمنيتى أن أرى مصر فى أيام «الفاروق» ملكناً المحبوب العظيم رافعة أعلام الحرية والاستقلال الصحيح.

□□

كانت السنوات قد مرت وتتالت، ولم تعد الدنيا هى الدنيا!!

كانت مصر على أبواب صفحة جديدة، فقد انتهت الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥، ومصر تحلم بالاستقلال!!

وكانت صفية زغلول تقترب من عامها السبعين حينما تناهى إلى سمعها قصة اغتيال الوزير الوفدى أمين عثمان فى ٥ يناير ١٩٤٦.

أسبوع كامل والصحف والمجلات تنشر تفاصيل جريمة الاغتيال التى شارك فيها «أنور السادات» الذى سيصبح بعدها واحداً من أهم الأسماء السياسية ويصل لمنصب رئيس الجمهورية!!

كانت صحة «أم المصريين» قد ضعفت تماماً، وهزمتها الشيخوخة، وكان النقراشى باشا هو رئيس الوزارة!!

فى صباح ١٢ يناير ذهبت «صفية» كعادتها - التى لم تنقطع إلا لضرورة قصوى - لزيارة ضريح زوجها «سعد زغلول»، ثم تناولت طعام الغداء مع أفراد أسرتها الذين يزورونها ظهر كل يوم سبت، ثم جلست لبعض الوقت فى مكتب «سعد».

بعد الظهر وفى حوالى الساعة الرابعة أحست ببعض الألم، فقام قريبها د. أحمد شفيق باشا بفحصها ونصحها بضرورة الراحة، وهكذا صعدت إلى حجرتها لتستريح!

وعندما ازداد قلق الأسرة عليها تم استدعاء د. سليمان عزمى باشا لفحصها لكنها كانت قد أسلمت الروح عند الخامسة مساء!!

ودفنت «صفية» بجوار زوجها!!

وقبل أسابيع من وفاتها زارها صحفى بريطانى وأشار إلى ضريح سعد من نافذة بيتها وسألها عن شعورها وهى تطل كل صباح إلى ضريح زوجها!

فقالت صفية زغلول:

أعرف أنى سأدفن هناك، وكلما استيقظت فى الصباح ونظرت إلى الضريح من النافذة أحس فى نفسى بأن المسافة التى سأقطعها بين الحياة والموت قصيرة جداً»..

و....

ولم يكن كل ما مضى من كلمات وسطور إلا بعض ملامح ومحطات صغيرة من مشوار «الهانم والزعيم».

انتهت

وبعد أن قرأت!!

الكثيرون من أبناء جيلنا انتهت معرفتهم بالزعيم «سعد زغلول» عند قولته المأثورة: «مافيش فايدة». وذلك نتيجة لتعتيم إعلامى ظالم أستهدف رموز وأعلام ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ التى استمر صداها حتى يوليو ١٩٥٢ مما خلق قطيعة بين أجيال الأمة منعت تواصل الخبرات وأضاعت كثيرا من الجهود لربط الشباب بوطنه. وتاهت من أذهان هذا الشباب صورة ذلك الزعيم الوطني التى تمثل ملحمة كفاح مصرية.

بدأت فى ريف الدلتا ثم ظهر وعيه النضالى مجاورا أزهريا فى صفوف العرابيين ثم كمونه داخل روب المحاماة التى أظهرت مواهبه الفكرية والبلاغية والخطابية.

ولم يلبث أن استخدم هذه القدرات فى موقعه كناظر للمعارف يتصدى كرجل دولة مصرى لخطط إنجلترا للسيطرة على عقل مصر، ثم يتصدى للاستبداد السياسى كمشرع فى مجلس شورى النواب الذى كان وكيله المنتخب ثم يشعل شرارة ثورة الوطنية المصرية عام ١٩١٩ بعد استنفاد كافة الوسائل القانونية والسلمية فى المطالبة بالاستقلال هاتفا: «لابد من قارعة» ملقيا فى أسماع الجماهير المصرية كلماته الخالدات: الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة.

ومن زاوية عبقرية يُطل موهوبنا المتألق «رشاد كامل» على الحياة الخاصة بزعيم الأمة ليحكى عن علاقته بأم المصريين وتأثيرها على نشاط الباشا السياسى وتأثرها به. ويلتقط الأفراح والمسرات الصغيرة والمضايقات والأحزان والفواجع. كل هذا نحسه ونراه من خلال قلم رشاد الدقيق، الرشيق، الأنيق.

كتابنا الثالث لـ«رشاد كامل» كان انحيازا للجدية فى التناول والاحترام الشديد لذكاء سيدنا الوحيد وهو أنت.. عزيزى القارىء.

«عبدالخالق نصر»

• أهم مراجع الكتــاب •

- أحمد عرابى (مذكرات) — كشف الستار عن سر الأسرار
- إلياس الأيوبى — تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا
- د. حسين فوزى النجار — سعد زغلول الزعامة والزعيم
- سعد زغلول (مذكرات) — ثمانية أجزاء تحقيق د. عبد العظيم رمضان
- صبرى أبو المجد — سنوات ما قبل الثورة
- عباس محمود العقاد — سعد زغلول سيرة وتحية
- عباس حلمى الثانى [الخديو] — (مذكرات) عهدى
- عبد الخالق لاشين — سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية (٢ جزء)
- عبد الرحمن فهمى (مذكرات) — يوميات مصر السياسية (٢ جزء)
- عبد الرحمن الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية ثورة سنة ١٩١٩ (٣ جزء)
- د. عبد العظيم رمضان — تطور الحركة الوطنية فى مصر
- د. عفاف لطفى السيد — تجربة مصر الليبرالية
- على سلامة — ما لا يعرفه الناس عن الزعيم مصطفى النحاس
- فاطمة اليوسف — (مذكرات)
- فخرى عبد النور — (مذكرات) ثورة ١٩١٩
- كريم خليل ثابت — سعد فى حياته الخاصة
- د. لويس عوض — تاريخ الفكر المصرى الحديث
- د. لطيفة سالم — سقوط الملكية فى مصر
- محمد التابعى — من أسرار الساسة والسياسة
- محمد علوبة باشا — ذكريات اجتماعية وسياسية
- مصطفى أمين — من واحد لعشرة .. من عشرة لعشرين
- مصطفى أمين — سنة أولى حب – مسائل شخصية
- محمد عودة — سبع باشوات
- محسن محمد — سعد زغلول مولد ثورة .. الشيطان
- محسن محمد — ١٩٤٦ سنة من عمر مصر
- محمد زكى عبد القادر (مذكرات) — أقدام على الطريق
- د. محمد حسين هيكل باشا — (مذكرات) فى السياسة المصرية (٢ جزء)
- مصطفى النحاس — (مذكرات) إعداد سكرتيره الخاص محمد كامل البنا
- محمد كامل سليم — (مذكرات) ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها
- د. محمد صادق عرب — حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ والحياة السياسية المصرية
- محمد ابراهيم الجزيرى — ذكريات تاريخية لطيفة
- هدى شعراوى — (مذكرات)

• صدر للمؤلف •

١- لغـز السادات .... (الجداوى للنشر)

٢- ثورة يوليو والصحافة .... (الجداوى للنشر)

٣- عبد الناصر الذى لا تعرفه .... (الجداوى للنشر)

طبعة أولى ١٩٩٠

طبعة ثانية ١٩٩٣

٤- ذكريات صلاح حافظ .... (مؤسسة روزاليوسف)

٥- ذكريات د. يوسف إدريس .... (المركز المصرى العربى)

٦- عبد الناصر فى تل أبيب .... (الجداوى للنشر)

٧- لغز يونيو ٦٧ الهزيمة والعقاب .... (سوزانا للنشر)

٨- السادات أسطورة لغز .... (سوزانا للنشر)

٩- طلعت حرب: ضمير وطن .... (سوزانا للنشر)

١٠- أحمد بهاء الدين: اهتمامات عربية!

(إعداد) تقديم الكاتب الكبير لويس جريس

١١- ناهد رشاد :

المرأة التى هزت عرش مصر! .... (مركز الراية للنشر والإعلام)

١٢- باقة حب

(كتاب تذكارى عن أحمد بهاء الدين) .... (هيئة قصور الثقافة)

١٣- السادات المبادرة والمنصة .... (سوزانا للنشر)

١٤- البحث عن السلام بالجنس .... (دار الخيال)

١٥- السادات مؤامرة ومغامرة ١٥ مايو .... (دار نصر للنشر والتوزيع)

١٦- خطيئة ٦٧:

عبد الناصر، المشير، شمس بدران .... (دار نصر للنشر والتوزيع)

١٧- الهانم والزعيم (دار نصر للنشر والتوزيع)

الفهرس

صفحة

الكتاب والمؤلف



«صفية زغلول» امرأة يندر أن تتكرر!

وبقدر ما كان «سعد زغلول» رجلا استثنائيا في حياة مصر كانت «صفية» امرأة استثنائية في تاريخ مصر.

دخلت «صفية» التاريخ ليس لأنها ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا صديق الانجليز الحميم، ولكن لأنها زوجة سعد زغلول: الانسان والثائر والزعيم!

حرم القدر «صفية وسعد» نعمة الانجاب. فأصدر الشعب قرارا غير مكتوب بأن تصبح صفية هي أم المصريين جميعا بغير استثناء: الكبار والصغار، الأغنياء والفقراء، المسلمون والأقباط.

وكما تستحيل مصر بغير النيل، والوردة بغير العطر، والحياة بغير الحب، تستحيل صفية بغير «سعد» وتستحيل «سعد» بغير «صفية».

«الهانم والزعيم» [illegible] جديدة لأعظم [illegible] اختلطت فيها السياسة بالحب، والثورة بالرومانسية، والوطن بالمنفى!

«الهانم والزعيم» كتاب جديد للكاتب الصحفي «رشاد كامل» يصدر بعد مرور ١٠١ سنة من زواج «سعد وصفية» و٧٠ سنة من رحيل «سعد زغلول»..

«الناشر»



















